المجلة العربية للدراسات التاريخية

علمية محكمة تصدر عن مركز التاريخ العربي

العدد (١٨) - السنة السادسة ٢٠٢٦م

الأَلوان الغنائية الشعبية في الجنوب التونسي «غناء البراش بجهة تطاوين»

أ.د / عبد السلام الفيتوري

مبنى السلطة التنفيذية وبيت الضيافة في المدينة الإغريقية البريتانيون (Prytaneion)

أ.د / فؤاد حمدي بن طاهر

أهم مبادئ الإدارة العامة في مصر خلال العصر العثماني (١٥١٧م - ١٩١٤م)

د. ماجد هاشم كيلاني

الخدمات الطبية العسكرية وتأسيس المستشفيات في الدولة العثمانية خلال حرب القرم

أ.د / أماني جعفر الغازي

وثائق الجنيزة من الرقمنة إلى الذكاء الاصطناعي

د. سهر سيد دسوقي إسماعيل

الدور السياسي والإجتماعي للزوايا: الزاوية القشاشية والحركة الشابية مثالا

د. نعيمة براهمي

المجلة العربية للدراسات التاريخية

تعريف بالمركز

تم إنشاء المركز عام ٢٠١٩م في مدينة إسطنبول على يد الدكتور محمد محمود خليل، كمساهمة في إثراء المعرفة التاريخية، والاعتناء بحضارة الوطن العربي، وتوفير ما يلزم من دراسات جادة ووثائق تاريخية.

التواصل

info@arabhistorypublishing.com
www.arabhistorypublishing.com
+ 905446117942
Şirinevler - Istanbul - Turkey

أقسام المركز

- دار نشر
- مركز أبحاث
- قسم الوثائق العثمانية
- المجلة العربية للدراسات التاريخية

شروط وأحكام النشر

١- تنشر المجلّة العربية للدراسات التاريخية الأبحاث الأصيلة ذات المنهجيّة العلميّة الرّصينة والتي تلتزم بالموضوعيّة، وتتوافر فيها الدّقة والجديّة. في التاريخ ، وكافة العلوم الإنسانيّة والعلوم الاجتماعيّة ذات الصلة بالتاريخ.

٢- كلّ بحث لا يحترم شروط النّشر لا يؤخذ بعين الاعتبار.

٣- تخضع كلّ الأبحاث إلى التّحكيم من قبل هيئة مختصّة، ويلقى البحث القبول النّهائي بعد أن يقوم الباحث بالتّعديلات المقترحة.

٤- للمجلّة كلّ الحق في أن تطلب من الباحث أن يحذف أو يعيد صياغة بحثه، أو أي جزء منه بما يتناسب مع طبيعة المجلّة.

٥- لا يجب أن يكون البحث قد سبق نشره أو كان جزءا من كتاب منشور.

٦- يتعهّد الباحث بعدم تقديم البحث للنشّر في جهة أخرى، بعد إقرار نشره في المجلّة العربية للدراسات التاريخية، إلاّ بعد الحصول على إذن كتابيّ بذلك من مدير المجلّة.

٧- لا تتجاوز صفحات البحث المقدّم ٢٥ صفحة.

٨- على الباحث احترام شروط الكتابة التّالية:

- تحتوي الصّفحة الأولى من البحث على؛ عنوان البحث، الاسم الكامل للباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي اليها باللّغة العربيّة واللّغة الانجليزيّة، البريد الالكتروني للباحث، ملخّص للدّراسة في حدود ١٥٠ كلمة حجم ١٢ بلغة المقال وبلغة أجنبيّة (لإنجليزية)، الكلمات المفتاحيّة بعد الملخّص.

- تقدّم الأبحاث مكتوبة ببرنامج Word بخط Traditionnel Arabic حجم ١٤، تكتب العناوين الرئيسيّة والفرعيّة للفقرات بحجم ١٤ مثلها مثل النصّ الرئيسيّ لكن مع تضخيم الخط. أما الأبحاث المكتوبة باللّغة اللاتينيّة فتكتب بخط Time new Roman، بحجم ١٢ وتكون الحواشي ٤ سم على جوانب الصّفحة الأربعة، كما تدرج الرّسوم البيانيّة والأشكال التوضيحيّة في المقال، وتكتب عناوينها والملاحظات التوضيحيّة أسفلها، أما الجداول ترقم ترقيماً متسلسلاً وتكتب عناوينها أعلاها والملاحظات التوضيحيّة أسفلها.
- يلتزم الباحث بتهميش المعلومات على طريقة APA American Psychological Association
- بالنّسبة لعلامات الترقيم، توضع النّقطة (.) بعد الكلمة مباشرة دون وجود فراغ بينهما، ويوضع فراغ واحد بين النّقطة وبداية الجملة التّالية. كما لا توضع النّقطة (.) أبدا في العناوين، أمّا إذا كان العنوان يضمّ عنوانين أحدهما فرعيّ والآخر رئيسيّ فيفصل بينهما بنقطتين.
- يجب إدراك الفرق بين الفاصلة بالعربية (،) والفاصلة بالأجنبية (,) واستغلالهما في الكتابة المناسبة، كما تكتب الفاصلة بعد الكلمة مباشرة ولا يوجد فراغ بينهما.
- تكتب واو العطف ملتصقة بالكلمة التي تليها ولا يترك فراغ بينهما.
- عدم تزيين النصّ بالألوان والخطوط العريضة وتكبير الحجم، يجب احترام الشروط المعروضة سابقا.
- ضبط اتّجاه النصّ بالعربيّة من اليمين الى اليسار، والنصّ بالأجنبيّة من اليسار الى اليمين، وضبط اتجاه الجمل في النّصوص إذا كانت باللّغة العربيّة او بالأجنبيّة.
- عدم الإكثار من الفقرات وجمعها في نصّ سياقي واحد، واللّجوء الى الفقرات عند الضرورة النصية.

٩- الأفكار والآراء التي يتضمّنها البحث لا تعبّر عن رأي المجلّة وإنما هي وجهة نظر أصحابها. كما أنّ هيئة تحرير المجلّة غير مسؤولة عن أيّ سرقة علميّة تتم في البحوث المقدّمة لها.

١٠- يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلميّ والثقافيّ.

١١- ترسل الأبحاث الى إيميل المجلة

المحتويات

الخدمات الطبية العسكرية
وتأسيس المستشفيات في الدولة العثمانية
خلال حرب القرم

أ.د / أماني جعفر الغازي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

مقدمة

إن من أهم الأهداف الرئيسة للخدمات الطبية العسكرية، هو القيام بتخفيف الآلام الناتجة عن الحروب؛ وذلك بمعالجة الجرحى من أجل إبقائهم على قيد الحياة، وهذه الميزة التي تتميز بها موجودة أساسًا في طبيعة مهنة الطب، وتقوم –في الوقت ذاته– بالحفاظ على صحة الجنود وعلى استمرارها بصورةٍ سليمةٍ لأجل الانتصار في الحروب؛ فهي بذلك تخدم هدفًا عسكريًّا، كما أن تقديم الخدمات الصحية للمجتمع تعتبر من العناصر الرئيسة للخدمات الطبية التي تُقدّم في السلم والحرب.

ويجب بيان أن هذه الخدمات تُقدّم للعسكريين وفق بيانات مفصلة من قِبَل الإدارة العسكرية التي تقوم بإعداد قوائم للخدمات الصحية.

ونلاحظ أن أعداد الموتى بسبب الأمراض المعدية يفوق دائمًا نظائرهم في الاشتباكات في أغلب الحروب التي وقعت على مرّ التاريخ؛ ويعود سبب ذلك إلى وجود مجموعة مزدحمة من العسكر في ظروف سلبية، إضافة الى السلبيات التي تفرضها الحروب نفسها، وإذا نظرنا إلى تاريخ الطب العسكري التركي بصورة عامة فإنّنا نرى وقوع السلبيات التي تفرضها الحروب بصورة متكررة، وقيام الخدمات الصحية العسكرية بأعمالها بعد انتهاء الحرب في الوقت الذي كان من المفترض فيه أن تقوم بالإرشادات الصحية قبل الحرب.

هدف الدراسة:

هدفت الدراسة إلى تقييم الخدمات الطبية للعسكر في التاريخ التركي بصفة عامة وفي التاريخ العثماني بصفة خاصة، ممّا يوضح –في مضمونه– اهتمام الدولة العثمانية ببناء الجندي العثماني والاهتمام بصحته، وتطبيب جراحه في ساحة المعركة.

موضوع الدراسة:

إلقاء الضوء على الخدمات الطبية التي قدمتها الدولة العثمانية للجنود في ساحة المعركة.

النقاط التي ستتعرض لها الدراسة:

١- الخدمات الطبية العسكرية في بداية العهد العثماني.

٢- تطور الخدمات الطبية العسكرية العثمانية في القرن التاسع عشر الميلادي.

٣- الخدمات الطبية العسكرية خلال حرب القرم.

٤- الخدمات الطبية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى.

منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي الاستقرائيّ؛ وذلك باستقراء مصادر عثمانية وتركية أصيلة، وتحليلها واستنتاج المعلومات منها.

حدود الدراسة الزمانية والمكانية:

تطور الخدمات الطبية العسكرية خلال حرب القرم حتى الحرب العالمية الأولى.

تمهيد:

نظرة عامة على تطور الخدمات الصحية الطبية العسكرية في التاريخ التركي:

انتشر الأتراك في العصور القديمة على بقعةٍ واسعةٍ من الأرض شملت الشرق الأقصى وأراضي القوقاز، والآناضول، والبلقان، وأوروبا الوسطى، كما انتشروا بين الحين والآخر على حدود الصين، وآسيا الوسطى، والهند، وإيران، والدولة الرومانية والبيزنطية؛ ونظرًا لهذه المساحة الجغرافية الواسعة، وللعلاقات الوثيقة بين الأتراك والأجناس الأخرى التي حولها فقد تعيّن عليه الاهتمام بجميع مناحي الحياة؛ ومن ضمنها الخدمات المصاحبة للجيش التركي.

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى أهمية مداواة الجرحى من العسكر خلال الحروب عند الأتراك، وكذلك عند الأقوام القديمة التي عاشت في الآناضول، كما أن هنالك معلومات تفيد بعدم القيام بهجمات عسكرية على أماكن التداوي الصحية خلال الحروب، وتعتبر هذه من أروع صور الالتزام الأخلاقي ناحية الجيوش المتحاربة، وتوجد صورة تبين تداوي أحد الجرحى من الجنود، نُقشت على مزهريّة يعود تاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد(١).

وعلى الرغم من أن الجيوش التركية قد لعبت دورًا

(1) Turan, O. Türk Cihan Hakimiyeti MefkûresiTarihi. İstanbul. Cilt 1, Boğaziçi Yayınları, 1995. S. 45.

كبيرًا في فنون القتال على مرّ التاريخ، لكنه لا توجد وثائق مكتوبة كافية عن طبيعة الخدمات الصحية أثناء الحروب.

ومع ذلك فإنه طبقًا للتراث الشعبي التركي، كان هناك أشخاص يطلق عليهم «حكماء القوم» يرافقون قادة الجيش في الحروب، ويقومون بقراءة ملاحم الحروب العالمية على العساكر؛ للرفع من روحهم المعنوية، كما كانوا يقومون بمداواة الجرحى من الجنود.

وتوجد إشارات في تلك المصادر تبين مشاركة النساء في الحروب، وقيامهن بالتعاون مع الرجال في معالجة الجرحى، وتزويد الجيش بالمستلزمات الخفيفة(١).

وقد أدرك الأتراك مدى أهمية الخدمات الصحية في الحروب؛ فعملوا على بناء صحة ومتانة الوحدات العسكرية التي تشارك في المعارك؛ فقد قام السلاجقة بتأسيس أول مستشفى متجول يرافق الجيش خلال الحرب، وكان يتكون من المواد الطبية والخيام وغير ذلك من المستلزمات الصحية المنقولة على متن ٤٠ جملًا.

وكانت هذه المستشفيات المتجولة أو المتنقلة تسير خلف الجيش بمسافة معينة، وتقوم بتقديم الخدمات الطبية للجنود المصابين بالمرض أو الجروح أثناء المعارك(٢).

الخدمات الطبية في بداية العهد العثماني:

وبعد تأسيس الدولة العثمانية في الآناضول عام ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م وفي السنوات الأولى كان المتطوعون من الخيّالة يقومون بغارات عسكرية على الحدود البيزنطية، ويفتحون المدن، وينشرون الإسلام ثم قامت الدولة بتشكيل جيش نظامي مؤلف من فرسان الساهية وألحقت بعد ذلك وحدات الدَوشيرمة(٣) زمن السلطان أورخان (٧٢٥ – ٧٦٤ هـ / ١٣٢٤ – ١٣٦٢ م)، والتي كانت النواة لفرقة الانكشارية، ولكن لا توجد معلومات وافية

---

(1)Ünver S. Tıp Tarihi, I ve II nci Kısımlar. İstanbul.1943, s. 172-173.

(2)Zeydan C. Medeniyeti İslamiye Tarihi. Cilt: III. İstanbul. İkdam Matbaası, 1913, s. 375.

(٣) دوشرمة: كلمة تركية تكتب بزيادة الفاء «دوفشرمه» ولكن الأصح لغويًا أن تكتب بدونها، وجاءت الكلمة بمعنى الإسقاط الحامل لحملها، أو السقوط في الهاوية، كما تطلق على كلمة داشر بمعنى الذي لا أهل له أو لا يرجع إليه في شؤونه، وقد أُطلقت على الانكشارية؛ للتحقير من شأنهم، وتشويه نظام إسلامي قائم على التجنيد الإجباري؛ وهو نظام إسلامي لا يخالف الشرع أبدًا، ولكن التشويه لمجرد أن يشوهوا جنودًا فتحوا مدنًا، وأوصلوا الإسلام إلى مناطق جديدة.

أماني جعفر الغازي: ضريبة الغلمان في عيون المستشرقين، بحث منشور في جامعة القصيم، بحوث مؤتمر الاستشراق، ماله وما عليه ١٧/ ٣/ ١٤٣٨هـ/ ١٦/ ١٢/ ٢٠١٩م، ص١١٧٩-١١٨٠.

حول كيفية سير الأمور الصحية في هذه الفرقة التي تعتبر أكبر قوة مشاة عسكرية، ولكن توجد معلومة تفيد بأنه جرى تأسيس وحدات مساعدة بداخل الوحدات المقاتلة أطلقت عليها «الصنوف العسكرية»، ويستطيعون القيام بالخدمات الطبية والعمليات الجراحية ثم أصبح يتواجد طبيب واحد وجراح واحد ومضمد واحد للقيام بالمريض في فرقة الجيش الانكشارية، ويتقاضون رواتبهم من الدولة، ويطلق على هذا الصنف العسكري «يا يا باشيلر» بمعنى رؤساء المشاة، ويتعلمون مهنة الطب خصيصًا للعمل في المستشفيات المتجولة لأجل معالجة المرضى والجرحى من الجنود، كما يقومون بإحضار العقاقير الطبية معهم(١).

وقد قامت الدولة العثمانية بتأمين الأطباء للجيش عن طريقتين:

الطريقة الأولى: الأطباء الذين نشأوا في مدارس الطب في العصر السلجوقي.

والطريقة الثانية: الأطباء الذين تعلموا عن طريق معلّم المهنة.

ثم بدأ السلطان بايزيد الأول (٧٩٢ – ٨٠٦هـ / ١٣٨٩ – ١٤٠٢م) بتشييد المستشفيات؛ حيث بدأها باسم «دار شفاء يلديريم بايزيد»، في بورصة بجوار جامعها مباشرةً، ووقفية تأسّسها تدل علي ذلك فأصبحت هذه المستشفى بمرور الوقت محلًّا لتعاقب أجيال من الأطباء في الجيش العثماني(٢).

وقد أدّى توسع رقعة الدولة العثمانية فيما بعد إلى ازدياد المشاكل الصحية؛ مما أدّى إلى زيادة الحاجة إلى تنسيق منظم للمؤسسات الصحية، فتأسّس منصب رئيس الأطباء (حكيم باشي(*)) في زمن السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ – ٩١٨ هـ / ١٤٨١ –

---

(1)Özbay K. Türk Asker Hekimliği Tarihi ve Asker Hastaneleri Tarihi, Cilt: I. İstanbul. Yörük Basımevi, 1976, s. 23-55.

(2)Bayat AH. Osmanlı Devletinde Hekimbaşılık Kurumu ve Hekimbaşılar. Gevher Nesibe Bilim Haftası ve Tıp Günleri Bildirileri. Kayseri. 1982, s. 610-616.

(*) حكيم باشي: هو أحد رجال الـ (بيرون) داخل تشكيلات السراي العثماني، وهو رئيس الأطباء في السراي، ورئيس الأطباء المسلمين وغير المسلمين في كافة أنحاء الدولة العثمانية، ورئيس الكحالين والجراحين؛ فهو المسئول عن تعيينهم، وترقيتهم، والتفتيش عليهم، وعزلهم.. وغير ذلك، وكان يطلق على الحكيمباشي أيضًا اسم (رئيس الأطباء)، ويخاطب بألقاب تدل على معاني الطب والتداوي، ويحصل رئيس الأطباء على أعلى الرتب مثل رتبة الدفتردارية، وقضاء العسكر، والوزارة، وفي أوائل القرن السابع عشر كان يعمل تحت إمرة الحكيمباشي ٢١ طبيبًا مسلمًا، وما يزيد على ٤١ طبيبًا يهوديًّا، أما هو فكان يحصل على راتبٍ يوميٍّ قدره ٥٠٠ أقجة.

=

١٥١٢م)، وقد اقتصرت وظيفة رئيس الأطباء في البداية على معالجة السلطان وأفراد أسرته، ثم توسعت هذه الوظيفة فشملت اختبار الأطباء وتعيينهم في الجيش، وفي الأماكن الأخرى، وعزلهم إذا اقتضى الأمر، إضافة الى الأعمال الإدارية في المستشفيات.

كما كان رئيس الأطباء يرافق السلطان في حملاته العسكرية، وتروي المصادر التاريخية أن أول رئيس للأطباء هو محي الدين محمّد (٩١٠هـ - ١٥٠٤م). وفي كتاب «السجل العثماني» ذكر أن الطبيب الشيخ يوسف سنان الدين (٧٧٣ – ٨٣٥ هـ / ١٣٧١ – ١٤٣١ م هو أول رئيس للأطباء في العصر العثماني.[1]

وعلي أية حالٍ فإن تأسيس المهنة جاء مبكرًا جدًّا بالنسبة للتاريخ العثماني؛ وذلك نظرًا لما فرضته الحاجة العسكرية والتوسعية للدولة العثمانية، وما صحب هذا التوسع من ضرورة وجود هذا المنصب؛ لذا تميل الدراسة إلى رأي كتاب السجل العثماني.

ثم ازداد اهتمام الدولة العثمانية بالأطباء، وبخاصة أطباء البلاط العثماني في عهد السلطان محمد الفاتح ٥٥٨ – ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ – ١٤٨١م؛ حيث قام السلطان نفسه بتشكيل فريقٍ طبيٍّ من أشهر أطباء ذلك العصر، وكان مؤلفًا من ثمانية أطباء رافقوه في معاركه (ثلاثة منهم أتراك؛ وهم: آلطوني زادة، وآخي جلب ٨٤٠ – ٩٣١ هـ/ ١٤٣٦ – ١٥٢٤ م، وبشير جلبي، وأربعة منهم فرس؛ وهم: أحمد قطب الدين ٩٠٣ هـ/ - ١٤٩٧م، وشكر الله شيرواني ٨٦٥ هـ- ١٤٦٠م، وخواجة عبد الله، وعبدالحميد جلبي (لاري)، ويعقوب باشا المنتسب إلى يهود إيطاليا ٨٢٩ – ٨٨٦هـ/ ١٤٢٥ – ١٤٨١م.[2]

وقد قام السلطان محمّد الفاتح ببناء مدرسة ضخمة بمثابة كلية طب ضمن جامعه الذي شيّده عام ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م في استانبول، وفي الوقت نفسه أولى اهتمامًا كبيرًا بالطبابة العسكرية؛ حيث قام عقب فتح القسطنطينية بتوزيع غنائم الحرب بما فيها المواد القيمة المستخرجة من خزانات آياصوفيا أولًا

أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، المجلد الثاني، ترجمة: صالح سعداوي، الطبعة الأولى، استانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٩٩٩م، ص ٤٨٤، ٤٨٥، ولمزيدٍ من المعلومات انظر: الطب في العصر العثماني، المرجع نفسه.

(1)Bayat Ah.Osmanli Devletinde Hekimbasilik Kurumu ve Hekimbsilar Gevher Nesibe.

للمزيد عن أخبار الحرمين في العصر العثماني أنظر: يلمازا أوزنونا: تاريخ الدول العثمانية، الطبعة الأولى، تركيا: مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٩٠م، ص٥٣٢-٥٣٣.

(٢) لم تتوفر للدراسة جمع تواريخ الأطباء.

إلى الأطباء والكحالين (أطباء العيون)، والجراحين الذين يعملون في الجيش، ثم إلى بقية أنفار الجيش والعسكر.(١)

الاهتمام بالناحية الصــحية في ذروة تقدم الدولة العثمانية:

لقد انتشر في عهده كثيرٌ من دور الشفاء؛ حيث وضع لها نظامًا مثاليًّا في غاية الدقة والروعة، وقد عهد إلى طبيبٍ أو طبيبين بدارِ شفاءٍ واحدةٍ، يعاونهم كحّال، وجرّاح، وصيدلي، وجماعة من الخدم والبوابين، واهتم بدقائق الأمور حتى أن الأدوية لا تُصرف للمريض إلا بعد التدقيق فيها، والطباخ الذي يعمل في المشفى يكون على درايةٍ بطهي الأطعمة وصنوفها التي توافق طبيعة المرض، وكل العلاج والأدوية كانت بالمجان دون تمييز(٢)، وقد أكد على أهمية الطب في وصيته التي تركها من بعده.(٣)

الاهتمام بالناحية الصــحية في ذروة تقدم الدولة العثمانية:

ثم ازداد الاهتمام بالناحية الصحية العسكرية في عهد السلطان سليم الأول ٩١٨-٩٢٦ هـ / ١٥١٢ -١٥٢٠ م؛ نظرًا لكثرة المعارك في عهده؛ حيث أمر بإجراء الفحص الطبي على أفراد عسكره عند الخروج الى حملة جالديران عام ٩٢٠هـ - ١٥١٤م، وهذا العمل لافتٌ للنظر في تاريخ الطب العسكري التركي في العصر العثماني؛ حيث لاحظ السلطان -الذي كان علي رأس الجيش بنفسه- وفاة بعضٍ من جنوده عند الوصول الى سيواس(٤)؛ وذلك بسبب شدة برد الشتاء والقحط؛ فأمر بإجراء الفحص الطبي على جميع أنفار الجيش، كما قرر أن يعود أربعون ألفًا من جنوده الى استانبول بسبب عدم تحملهم الظروف المناخية الصعبة، واستمر السلطان مع خمسمئةٍ من الخيالة، وثمانين ألفًا من المشاة، وقد أكد السلطان سليم الأول بقراره هذا

---

(1)Özcan A. Osmanlılarda Askeri Teşkilat. Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt:4. İstanbul.1994, s. 77

(٢) علي محمد محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، الطبعة الأولى، لبنان: دار البيارق ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٢٨.

(٣) لمراجعة وطنية السلطان محمد الفاتح انظر: علي محمد الصلابي: مرجع سابق، ص ٢٣٧-٢٦٢.

(٤) سيواس: مدينة في تركية الأسوية الأناضول على نهر قزل إرماق، يوجد شمالًا طربزون، وشرقًا أرضروم، وجنوبها الشرقي حلب، وجنوبًا أطنه، وغربًا أنقرة، انظر: أحمد الشرقاوي وآخرون: جغرافية الممالك العثمانية، الطبعة الأولى، القاهرة: دار البشير للثقافة والعلوم، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ١٣٩، وانظر: س. موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثماينة، ترجمة: عصام محمد الشحادات الطبعة الأولى، لبنان: دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣١٧.

على صحة وسلامة الجيش التي هي مفتاح الانتصارات في الحروب، كما أنه منع بهذا القرار موت العديد من الجنود لأسباب صحية لا علاقة لها بالقتال في ساحة المعركة.(١)

ودخل الجيش العثماني مرحلة الازدهار، والانتصارات العظيمة في عهد السلطان سليمان القانوني ٩٢٦ – ٩٧٤هـ/ ١٥٢٠ – ١٥٦٦ م؛ حيث أنشا عام ٩٦٣ هـ/ ١٥٥٥م المجمع المعماري الضخم الذي عُرف بإسم مجمع السليمانية، والذي احتوى بداخله مدرسة للطب، إضافة إلى المسجد والملحقات المعمارية الأخرى، كما شكل دائرة صحية منظمة داخل فرقة الانكشارية، وبدأ في هذا العهد الكادر الصحي المتكون من الأطباء والجراحين الذين يتقاضون رواتبهم من الدولة، بصورةٍ منتظمةٍ في الدائرة التي يقيم فيها قائد الفرقه الانكشاري.(٢)

وتشير الوثائق التاريخية أن في عهد السلطان مراد الثالث ٩٨٣ -١٠٠٣ هـ/ ١٥٧٤ – ١٥٩٦ م كان يوجد ٣٦١٥٦ جنديًّا انكشاريًّا و٣٨ طبيبًا وجراحًا في الجيش العثماني، وكانوا يتقاضون الرواتب من الدولة، وبحلول عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م، واستنادًا على هذه المعلومات يمكن القول بأنه كان هنالك طبيب أو جراح واحد لكلّ ١٠٠٠ جنديٍّ من العسكر.(٣)

وعندما بدأ السلطان مراد الرابع ١٠٣٢ -١٠٤٩ هـ / ١٦٢٣ – ١٦٤٠م حصار بغداد في جمادى الثاني ١٠٤٧ هـ/ ١٦ نوفمبر ١٦٣٧م أمر بتشييد خيام المستشفى العسكري المتجول أو المتنقل بجانب خيمته الخاصة، وأمر بالاعتناء والاهتمام بمعالجة الجرحى من الجنود، وكان السلطان يزور الجرحى بين حينٍ وآخر لرفع معنوياتهم.(٤)

وقد تم تعيين أشهر أطباء العصر العثماني في منصب رئيس الأطباء في الجيش العثماني في مختلف عهود الدولة، ويمكن أن نذكر منهم –على سبيل المثال لا الحصر– الطبيب الشاعر والكاتب عياشلي شعبان شفاءي ١١١٧ هـ/ ١٧٠٥م الذي كان يعمل مدرسًا

(1)Ataç A. Osmanlı Devletinde Askeri Sağlık Hizmetleri. Osmanlı Devletinde Sağlık Hizmetleri Sempozyumu Kitabı. Eds.:Ak B,Ataç A.Ankara. Ajans-Türk Matbaası, 2000, s. 253.

(2)Ünver S. Tıp Tarihi, I ve II nci Kısımlar. İstanbul. 1943, s. 172-173

(3)Gencer Aİ. İstanbul Tersanesinde Açılan İlk Tıp Mektebi, İ.Ü. Edebiyat Fak. Tarih Dergisi. 1977; sayı: 31, s. 301-310.

(4)Terzioğlu A. Yeni Arşiv Kaynakları Işığında Gülhane ve Türk Tıbbının Gelişmesine Katkıları, Gülhane ve Cumhuriyetin Kuruluş Döneminde Türk Tıbbına Katkıları Simpozyumu Bildirileri. İstanbul. 1999, s. 14.

بمدرسة طب السليمانية، وطبيبًا في البلاط العثماني، وهو صاحب مؤلفات عديدة في الطب، وكذلك جَورَك زاده حافظ حسن أفندي ١٢١٦ هـ / ١٨٠١م الذي كان هو الآخر يعمل مدرسًا في مدرسة طب السليمانية، كما كان رئيسًا للأطباء، وصاحب مؤلفات طبية عديدة، وقد عُيّن رئيسًا للأطباء في الجيش العثماني عام ١١٨١ هـ / ١٧٦٨م خلال الحرب التركية – الروسية.(١)

تطور الخدمات الطبية العسكرية العثمانية في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وما بعده:

لقد تابع العثمانيون تطور الطب العسكري في أوروبا عن كثبٍ؛ والذي تم بشكلٍ سريعٍ تحت تأثير حركة النهضة العلمية؛ وبالتالي فإن العثمانيين قد عملوا علي تطوير الطب العسكري العثماني، ومنها -علي سبيل المثال- قيام رئيس الأطباء مصطفى بهجت أفندي ١١٨٨-١٢٥٩هـ/ ١٧٧٤ – ١٨٣٤م؛ الذي يُعدّ من أهم الأعلام في تاريخ الطب العسكري العثماني في القرن ١٣هـ / ١٩م؛ حيث قام بتطوير أسلوب تعليم الطب الحديث في الدولة العثمانية، كما قام بتأسيس مدارس الطب والمستشفيات لتنشئة الأطباء العسكريين، وبعد أن عيّنه السلطان سليم الثالث ١٢٠٣- ١٢٢٢هـ/ ١٧٨٩ – ١٨٠٧م رئيسًا للأطباء عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م واصل وظيفته حتى عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م؛ حيث أنشأ في عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م مدرسة الطب الحديثة، والمستشفى التعليمية في منطقة قاسم باشا في استانبول من أجل تدريب الأطباء والجراحين، وقد واصلت هذه المدرسة مهامها حتى أتلفها حريقٌ في رجب ١٢٣٨هـ / يوليو ١٨٢٢م.(٢)

ومن أعماله –أيضًا- بعد أن عيّنه السلطان محمود الثاني ١٢٢٣- ١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨-١٨٣٩م رئيسًا للأطباء للمرة الثانية ١٢٣٩-١٢٥٠هـ / ١٨٢٣ – ١٨٣٤م، وتمّ تأسيس مدرسة الطب الحديثة في جمادى الثاني ١٢٤٣هـ/ ١٤ مارس ١٨٢٧م؛ والتي عُرفت بإسم «طب خانه عامرة»، وقد تضمن الخطاب الذي عرضه الطبيب مصطفى بهجت أفندي علي السلطان -في جمادى الأولى ١٢٤٢هـ / ٢٣ ديسمبر ١٨٢٦م- معلومات تطرق فيها إلى هدف مدرسة الطب، وأصول التعليم فيها، وإلى وضع الطب العسكري في ذلك العهد وأهميته، وكيفية التعليم الطبي.

---

(1)Ataç A. 14 Mart 1827’de Açılan Tıp Okulunun Açılışı İle İlgili Dört Belge, Yeni Tıp Tarihi Araştırmaları 2-3. İstanbul. 1996/1997, s. 242-257.

(2)Terzioğlu A. Yeni Bulunan Kaynaklar Işığında Dr. K. A. Bernard ve Mekteb-i Tıbbiye-i Şahane. V. Türk-Avusturya Tıbbi İlişkileri Simpozyumu Bildirileri. İstanbul. 1995, s. 78-91.

وبعد إلغاء الجيش الانكشاري سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م أصبح يُعرف الجيش العثماني بإسم «العساكر المحمدّية المنصورة»، وهنا أصبحت مهمة علاج الجنود -في هذا الجيش، والوحدات العسكرية الأخرى في الدولة العثمانية- تتم حسب المناهج الطبية الحديثة في الحرب وفي السلم، وكان الأطباء الخريجون من مدرسة (طب خانه عامرة) مزودين بالمعلومات الطبية القديمة والحديثة على حدٍّ سواء، كما كانوا مُلزمين بتعلم إحدى اللغات الأجنبية، وتقبل هذه المدرسة الطلبة المهرة الذين لديهم الاستعداد لدراسة الطب من أفراد العساكر المحمدية المنصورة ومن خارجها، وكانت المدرسة تدفع راتبًا صغيرًا لطلابها خلال الدراسة، وكان هناك قسم من خرّيجيها يقوم بالعمل في الطب العام، وقسم آخر يقوم بالجراحة وذلك بحسب كفاءتهم.

إن العثمانيين الذين كانوا يقاتلون في جبهاتٍ مختلفةٍ كانوا دومًا بحاجةٍ إلى أطباء وجراحين أكفّاء وقت الحرب والسلم، ومدرسة الطب تنشيء جراحين مهرة يستطيعون القيام بعمليات جراحية سريعة على الجرحى في ميدان المعركة؛ ولأجل سدّ حاجة الجيش بشكل مؤقت تم اختيار ثلاثين جرّاحًا من جراحي استانبول؛ لأجل إتمام تعليمهم في مكانٍ مخصصٍ لهم في مدرسة الطب، ثم يتم اختيار عشرين متفوقًا، ويتم تعيينهم في الجيش العثماني براتب ٧٥ قرشًا، ويستمر الجراحون الآخرون في أماكنهم بالمدرسة بغرض تعليمهم، ورفع مستواهم(١).

وبهذه الصورة، ولأجل سدّ متطلبات الجيش الجديد، والوحدات العسكرية الأخرى من الأطباء والجراحين، تم تعيين الدفعة الأولى من الخريجين من مدرسة (الطب خانه العامرة) من الأطباء والجراحين في الوحدات العسكرية المرابطة في القلاع والثغور، ثم بدأ تعيين الدفعات التالية -من خريجي مدرسة الطب خانه العامرة- في المستشفيات العسكرية التي تأسّست خصيصًا (للعساكر المنصورية المحمدية)؛ وفي الحقيقة أن إنشاء المستشفيات العسكرية الحديثة في الدولة العثمانية يرجع تاريخه إلى سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م؛ حيث تأسست في هذا العام (مستشفى لاوند) في منطقة لاوند، ومستشفى (طوب طاشي) في منطقة أسكدار، ثم افتتحت بعد هذا التاريخ مستشفيات عسكرية عددية تراوحت مساحتها ما بين الصغيرة والكبيرة على الجانبين الأورويّ والأناضوليّ في

(1)Frik F. Türkiye’de Sağlık Hizmetlerinde Alman İlaçları, Türk – Alman Tıbbi İlişkileri Sempozyum Bildirileri. İstanbul. 1981, s. 79.

استانبول[١][٢]، وهذه المستشفيات هي كالآتي:

اسم المشفى	سنة التأسيس
مستشفي الترسخانة	١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م
مستشفى الجبانة الحربية	١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م
مستشفى الطوبخانة	١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م
مستشفى الطابور الثالث	١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م
مستشفى المابين	١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م
المستشفى العسكري الخاص	١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م
مستشفى باب سر عسكري	١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤ م
مستشفى همبرخانة	١٢٥٠هـ/ ١٨٣٥ م
مستشفى مالتبة	١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م
مستشفى طوب قابو	١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م
مستشفى بهاريا	١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م
مستشفى الليمان الكبير	١٢٥٣هـ/ ١٨٣٨ م
مستشفى طوب طاشى الخزفي	١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م

اسم المشفى	سنة التأسيس
مستشفى صارى يير	١٢٥٤هـ/ ١٩٣٨ م
مستشفى أخير قابو	١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م
مستشفى استنية	١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م
مستشفى رامي	١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م
مستشفى طرابيا	١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م
مستشفى حيدر باشا	١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م
مستشفى جموش صويى	١٢٦٤/ ١٨٤٧م
مستشفى كولخانة في دمير قابو	١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م
مستشفى قوله لي	١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م
مستشفى بكلربكي	١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م
مستشفى ابليك خانة	١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م
مستشفى زيتون بروني	١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م
مستشفى حركة	١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م
مستشفى يلديز	١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م

وكل تلك المستشفيات في استانبول وضواحيها.[٣]

وتشير صحيفة «تقويم الوقائع» في عددها الرابع

(1)Raynora MS, Cliff AD. The geographical spread of cholera in the Crimean War: epidemic transmission in the camp systems of the British Army of the East, 1854–55. Journal of Historical Geography. 2004; 30: 32–69.

(2)Süer H.H. 1877-1878 Osmanlı-Rus Harbi Rumeli Cephesi. Ankara. Genelkurmay Basımevi, 1993, s.23.

(3)Ataç A, Uçar M, Yiğitler C. Osmanlı Hasta ve Yaralı Askerlere Yardım Cemiyetinin 1877-78, Osmanlı Rus Savaşında Yürüttüğü Sağlık Hizmetleri. VIII. Türk Tıp Tarihi Kongre Kitabı İstanbul. 2006, s. 347-366

والتسعين سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م إلى الأوامر السلطانية الصادرة بخصوص إنشاء المستشفيات العسكرية في الألوية، والأقضية، والقرى الواقعة في أيالات الأناضول والروميلي، إضافةً إلى المستشفيات الخاصة بالفقراء والعجزة.(١)

وتؤيد هذه الإشارات الى أن فتح المستشفيات العسكرية في الدولة العثمانية جاء بشكلٍ منظمٍ في الفترة الواقعة قبل سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م؛ والتي تأسست في أغلب الأحيان في المواقع التي تحدث فيها الحروب والتمردات ضد الدولة، فكان قسم من تلك المستشفيات يُغلق بعد انتهاء المعارك، والقسم الآخر يقدم خدماته عقب انتهاء المعارك، وقد أدّت المستشفيات العسكرية دورها حتى وقوع الانقلاب الدستوريّ، وخلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م، وعلى الرغم من التغييرات المستمرة التي طرأت عليها إلا أنها ظلت مرتبطة بمناطق الجيش العثماني.(٢)

وبالعودة قليلًا لما أسلفنا ذكره نجد أن الدولة العثمانية قد استمرت في تطوير تعليم الطب العسكري الحديث؛ حيث بدأت منذ عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م بتعديلاتٍ جديدةٍ على مدرسة (الطب خانه العامرة)؛ فغيّرت إسمها، وبدأت بمواصلة التعليم بإسمها الجديد الموسوم بـ «مكتب طبيه عدليه شاهانه» في مكانها الجديد في منطقة غلطة سراي باستانبول، وقد تحققت هذه التنظيمات الجديدة في المدرسة الطبية بفضل الطبيب carl

(1)Akgün SK, Uluğtekin M. Hilal-i Ahmer'denbn Kızılay'a. Ankara. Beyda Basımevi, 2000, s. 97-106.

(٢) وقد جاءت على النحو التالي:

منطقة الجيش الأول: أدرنة، وقارا اغاج، وقريق كليسة وديماطوقا، وجسر مصطفى باشا، وده ده أغاج وجومولجينة، وقريجا على، وشومنو، وروسجوق، وايسلمية، وطرنوفا، وفيدين، وبيلونة، وطولجي.

منطقة الجيش الثاني: مستشفيات عسكرية في كلٍّ من: ماناسطير، وسالونيك، وسالونيك دنيز وايشكودرا، وناسليج، واسكوب، وازمير، والحميدية، وازمير بوجها، والبوسنة، والكيلان، وايشتيب، وايستولجه، وكوبرولو، وقوزانا، وقوصوه، وبيريشتينة، وميرتوفيجة، ومورا، وينيشهير، وموستار، ونيس، وناردا، والاسونيا، وبيراوازا، وبادكوريجة، وسراز، وسانيجة، وسرفيجة واوسطورومجا، ويانيا، وويني بازار، ودابرة، وطاشليجة.

منطقة الجيش الثالث: مستشفيات عسكرية في كلٍّ من ارزنجان، وارضروم، وخربوط، وقارص، وسيواس، ودياربكر، ووان، وطرابزون.

منطقة الجيش الرابع: توجد مستشفيات عسكرية في كل من: الشام (دمشق)، وبيروت، وحلب، وحماه، وحمص، وصيدا.

منطقة الجيش السادس: توجد مستشفيات عسكرية في كلٍّ من: صنعاء، والحديدة، والعسير، وابها، والطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وطرابلس الغرب، وبنغازي، وكريت قندية، ورسمو، وحانيا، والإسكندرية، وجدة.

Emrocs Bernand كارل امبرويس برنارد الذي استضافته الدولة من فيينا، وتعلم الطب فيها، ومنذ ذلك التاريخ أصبح الطب يُعلّم وفق مبادىء تعليم الطب الحديث، وقد تخرجت أول دفعةٍ من (مكتب طبيه عدليه شاهانه) في شوال ١٢٥٩هـ / يوم ٢٠ سبتمبر ١٨٤٣م تحت رعاية السلطان عبد المجيد ١٢٥٥-١٢٧٧هـ / ١٨٣٩-١٨٦١م.[(١)]

وقد مارست مستشفيات الطب العسكري الحديثة عملها في بعض أراضي الدولة العثمانية بحسب التنظيمات الحديثة في تعليم الطب العسكري مع متابعة التطورات الحاصلة في الطب، والجراحة، والطب العسكري في جميع أرجاء العالم، وقد قام الأطباء العسكريون الذين درسوا في مدارس الطب بعد تحديثات عام ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م بعرض تجاربهم الميدانية الأولى بمهارةٍ في حرب القرم التي وقعت بين العثمانيين والروس عام١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م.

خدمات الطبابة العسكرية ومساوئها خلال حرب القرم ١٢٧٠-١٢٧٣هـ /١٨٥٣ -١٨٥٦م:

لقد افتُتحت مستشفيات ميدانية بين حاميات الجيش العثماني، وتم تعيين الجرّاحين في كتائب الجيش، وتعيين الأطباء في الأفواج، وكان هؤلاء الجراحون والأطباء من خريجي المدرسة الطبية، كما تم تعيين الدكتور اللواء محمد علي باشا في منصب رئيس أطباء الجيش، وعلى الرغم من تطور الخدمات الصحية في الجيش العثماني، إلا أنه لم يكن هنالك خطة صحية واضحة في حالة الحروب، كما كانت هنالك نواقص كثيرة في المواد الصحية الأساسية والضرورية لسير عمليات العلاج[(٢)]؛ ويعود السبب الرئيس في ذلك إلى عدم تشكيل البنية التحتية للطبابة العسكرية داخل الجيش العثماني على غرار ما هو موجود في الجيوش الأوروبية؛ فعلى الرغم من هذا التطور الكبير الذي كانت عليه إلا أنه كان يشوبها بعض النقص؛ فمثلا كان الأطباء بالكاد يستطيعون معالجة المرضى والجرحى؛ لأنهم لم يأخذوا قسطًا وافرًا من التعليم بخصوص تطبيق المناهج الطبية الحديثة في وقت الحروب، في الوقت الذي كان فيه الأطباء العسكريون في أوروبا يستخدمون المواد المضادة للجراثيم وكذلك المورفين[(٣)] أثناء العمليات الجراحية في الحروب منذ

---

(1)Ataç A, Uçar M. 1912 Yılında Yayımlanan Bir Belge Işığında Osmanlı Hilal-i Ahmer Cemiyeti’nin Balkan Savaşı’nda Yürüttüğü Sağlık Hizmetleri. VIII. Türk Tıp Tarihi Kongre Kitabı. İstanbul. 2006, s. 367-375.

(2)Danişment İ.H. Osmanlı Tarihi Kronolojisi, 4. Cilt. İstanbul. Türkiye Basımevi, 1955, s. 388–389.

(٣) وهي مادة شبه قلوية مخدرة، ومسكنة للآلام والجروح، وستخرج من نبات الأفيون، وتصنع منه الأدوية.

عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م، وهذا ما كان يجهله الأطباء العسكريون في الجيش العثماني؛ فقد كانت معلوماتهم محدودة للغاية عن تلك التطبيقات.(١)

ومن أهم نواقص الخدمات الطبية العسكرية – أيضًا- عدم إعداد السجل الصحي للجنود، في الوقت الذي كانت فيه الإحصائيات والسجلات الصحية الأخرى يتم إعدادها بشكلٍ منظمٍ في الجيوش الأوروبية؛ فمن الواضح أنه لم يكن قد تبلور بعد مفهوم تنظيم السجلات الصحية في ذهن أصحاب القرار في الجيش العثماني، ولهذا السبب لا توجد مراجع تفيد بعدد المرضى، والجرحى، والموتى بصورةٍ صحيحةٍ أثناء الحرب؛ فمثلًا في الوقت الذي توجد فيه مجلدات كثيرة تتضمن معلومات حول عدد المرضى، والجرحى، والموتى في الجيوش الأوروبية خلال حرب القرم؛ فإن المعلومات التحريرية عن الموضوع ذاته في الجيش العثماني كانت ضئيلة جدًّا.(٢)

وعلى سبيل المثال فإنّه في الدراسة التي أُجريت حول حرب القرم، كُتب عدد الموتى في الجيوش الأوروبية مع الجيش العثماني في جدولٍ واحدٍ، إلا أنّنا نلاحظ ان القسم المخصّص للجيش العثماني – في الجدول المذكور- بقي خاليًا؛ ولهذا السبب نحن لا نعرف شيئًا من هذه المعلومات سوى مراجعة المصادر الاجنبية.(٣)

وعلي ذلك فإن الأعداد كانت واضحةً في الجنود الروس والأوروبيين بينما كانت غير واضحة تمامًا، وغير مكتملةٍ في الجيش العثماني، على الرغم من أن كثيرًا من المتوفّين في تلك الحرب كان بسبب الأمراض المعدية مثل وباء التيفوئيد، بالإضافة إلى الذين ماتوا في ساحات القتال(٤) مثلهم مثل جنود الجيوش الروس والأوروبيين، وأغلب الجنود الجرحى الذين كان يتم نقلهم إلى المراكز الصحية الكائنة خلف ساحة القتال كانوا يتوفون في تلك المراكز.(٥)

ويتبين من تلك المعلومات ظهور الوباء في جميع الجيوش المشاركة في الحرب اعتبارًا من بداية الحرب؛ حيث أدّى ذلك الى موت عددٍ كبيرٍ من العسكر، ولم يتم أيّ تدخلٍ طبيٍّ بشأن ذلك الوباء،

(1)Genelkurmay Başkanlığı. Birinci Dünya Harbinde Kafkas Cephesi 3 ncü Ordu Harekatı, Cilt II. Ankara. Genelkurmay Basımevi, 1993, s.730-732

(2)Genelkurmay Başkanlığı. Osmanlı Devri Birinci Dünya Harbinde Türk Harbi. Cilt V, Kitap 3. Ankara. Genelkurmay Basımevi, 1980, s. 545-560.

(3)Hoffman W. Sıhhiye Hidamatı. Çeviren; Hüseyin Hüsnü. İstanbul. Askeri Matbaa, 1920.

(4)Kavur EŞ. Askeri Hekimliğin Sıhhiye Hizmetlerinde Bir Etüd. Dirim Dergisi. 1973; 4:s.193-195.

(5)Erdem G. Birinci Dünya Savaşı Yıllarında Sağlık Hizmetleri. Genelkurmay Başkanlığı, Erzurum Mareşal Çakmak Asker Hastanesi, Seferde Sağlık Hizmetleri Sempozyum Kitabı. 2010, s.10-25.

وخاصةً الذي يصاحبه الحمى، والمعروف بإسم «التيفوئيد»(١).

وقد تم تخصيص قشلة (ثكنة عسكرية) السليمية في استانبول للجنود الإنكليز الذين جاءوا إلى غاليبولى(٢) –أوّلًا– ثم استانبول، وتأسّس في ذلك الحين مستشفى حيدر باشا على غرار المستشفيات الحديثة؛ وذلك لمعالجة المرضى من الجنود الإنكليز، والجرحى الراجعين من حرب القرم، ولكن بسبب عدم كفاية هذا المستشفى أمام العدد الكبير والمستمر من المرضى والجرحى؛ قامت الدولة العثمانية باستخدام بعض المباني الأخرى كمستشفى لسدّ متطلبات المعالجة، ونذكر من هذه المباني: قصر قاواق في منطقة السليمية، وقشلة الخيالة في منطقة قوله لي، وسفينتين حربيتين مرابطتين في خليج القرن الذهبي في استانبول، بالإضافة إلى استخدام مستشفى سانت جورج الإنكليزي الكائن في منطقة أوغلي بك باستانبول، كما استخدمت قشلة السليمية في استانبول كمستشفى حربي، وذلك بعد خروج الجنود الانكليز منها وذهابهم الى القرم.(٣)

ثم دخلت الدولة العثمانية في حروبٍ عديدةٍ مثل الحرب العثمانية – الروسية ١٢٩٤- ١٢٩٥هـ / ١٨٧٧ – ١٨٧٨م، والحرب التركية – اليونانية ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م، وحرب طرابلس الغرب ١٣٢٩- ١٣٣١هـ / ١٩١١ – ١٩١٢م، وحرب البلقان ١٣٣١- ١٣٣٢هـ / ١٩١٢ –١٩١٣م، لكن الحرب الأهم كانت الحرب العالمية الأولى ١٣٣٢- ١٣٣٦هـ / ١٩١٤ – ١٩١٨م، وهي التحدي الرئيس بالنسبة للخدمات الطبية العسكرية؛ نظرًا لكثرة الجبهات المفتوحة علي الدولة العثمانية.

الخدمات الطبية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى ١٣٣٣-١٣٣٧هـ / ١٩١٤-١٩١٨م:

من الثابت تاريخيًّا أن الجيش العثماني كان واحدًا من أفضل الجيوش التي شاركت في الحرب العالمية الأولى من حيث التجهيزات، والبنية الصحية العسكرية مع بعض النواقص؛ ولهذا السبب يُعدّ نموذجًا حسنًا من حيث فهم المرحلة التي وصلت إليها الخدمات الطبية العسكرية في بداية القرن الرابع

(1)Erkanı Harbiyeyi Umumiye Riyaseti. Hidamatı Sıhhiyede Harb Tecrübeleri, Harbi Umumiden Alınan Bazı Malumat ve Tecrübeler. İstanbul. 6. Matbaa-i Askeriye, 1922, s. 58.

(٢) غاليبولي: أول مدينة في أوربا فتحها العثمانيون، وأصبحت مركزًا لحملاتهم ضد البلقان.

(3)Erkanı Harbiyeyi Umumiye Riyaseti. Hidamatı Sıhhiyede Harb Tecrübeleri, Harbi Umumiden Alınan Bazı Malumat ve Tecrübeler. İstanbul

عشر الهجري / العشرين الميلادي.

وبالنسبة للوضع الصحي العام في العالم؛ فعند نشوب الحرب العالمية الأولى؛ كانت صحة ووقاية الإنسان العثماني، وكذلك الحيوانات -من الأوبئة والأمراض-، وكذلك الجيوش العثمانية تحت مسؤولية الإدارة الصحية والبيطرية كما هو الحال في الجيوش الحديثة، وكانت الوظيفة الأولى لهذه الإدارة هو تأمين الخدمات الصحية للجرحى والمرضى.

ويدخل في هذه الخدمات أيضًا الوقاية الصحية للجنود والدواب، وإسكانهم، وتغذيتهم، وكسوتهم، ويقدم هذه الخدمات بصورةٍ عامةٍ طبيب، وجراح، وصيدلي، وطبيب أسنان، وكيميائيّ، وبيطريّ، وبعض الممرضين[1].

وكانت أعلى سلطة للإدارة الصحية في الجيش العثماني هي رئاسة دائرة الصحة التابعة لنظارة الحربية، وتعتبر من أهم المبادئ الرئيسة للجيش؛ حيث تنظر في زيادة الكادر الصحي عند دخول الجيش إلى الحرب عما تكون عليه في وقت السلم؛ فعند اندلاع الحرب العالمية الأولى قام الجيش العثماني بتنفيذ الخطط من أجل توسيع البنية الصحية العسكرية؛ فتم تعيين مفتش على كلّ جيشٍ من الجيوش العثمانية المقاتلة في جبهات الحرب برتبة فريق طبيب، وتعيين رئيس أطباء على كلّ فيلق برتبة عميد طبيب، وتعيين رئيس أطباء على كلّ كتيبةٍ برتبة عقيد طبيب، وتعيين طبيب على كلّ فوجٍ برتبة مقدم طبيب، وتعيين طبيب على كلّ فرقةٍ برتبة ملازم أول طبيب[2].

وعادة وقت السلم في الجيش العثماني يكون الكشف على الجنود في مستوصفات في كل قطائع الجيش، وتندرج تحت المستشفيات العسكرية، ولكن في وقت الحروب كان يتم ما يلي:-

أوّلًا: تأسيس وحدات صحية في جميع الجيوش، والفيالق، والأفواج؛ لأجل تقديم الخدمات الصحية.

ثانيًا: تشكيل المستشفيات المتجولة (المتنقلة) والمستشفيات الثابتة (مثل تشكيل المستشفيات الحربية الوضعية، ومستشفيات الهلال الأحمر داخل البلاد) في أرض القتال.

وكانت الوظيفة الأساسية للوحدات الصحية هي تقديم الخدمات الصحية للجرحى في وقت الحروب، وكانوا ينقلون الجرحى إلى الخط الخلفي

(1)Erkanı Harbiyeyi Umumiye Riyaseti. Hidamatı Sıhhiyede Harb Tecrübeleri, Harbi Umumiden Alınan Bazı Malumat ve Tecrübeler. İstanbul.
(2)Noyan A. Son Harplerde Salgın Hastalıklarla Savaşlarım. Ankara. Son Havadis Matbaası, 1956, s. 9.

من جبهة القتال؛ حيث يتم إسعاف أوليّ لهم في «أكواخ الجرحى»، ثم يتم نقلهم إلى الوحدات الصحية الموجودة في الفرقة العسكرية؛ حيث يتم معالجتهم، وإجراء عمليات جراحية لهم إذا اقتضى الأمر.(١)

التنظيم الطبي:

وهذا النظام الطبي يوافق أنظمة الخدمات الطبية العسكرية الحديثة؛ وحيث أن الجيش العثماني بوحداته الصحية وبكادره الطبي كان يمتاز بتقديم الخدمات الصحية على الوجه الأكمل، وكان رئيس الأطباء في الفرقة العسكرية هو المتحكم في جميع أفراد الفريق الطبي بمن فيه من موظفين وممرضين وأطباء في الفرقة، وكان يتمتع بتوظيف، وتعيين، ونقل، وجزاء أفراد الفريق الطبي، وله ارتباط بقائد الفرقة، ويراسل الدائرة الصحية العسكرية؛ التي بدورها تقوم بإعداد تقارير يومية في جميع الوحدات الطبية العسكرية، وإرسالها الى رئاسة الأطباء في الفيالق وكافة الدوائر الصحية العسكرية.

إضافة إلى ذلك تأسّست صيدليات في الفرق العسكرية، وكانت هذه الصيدليات تصرف مخصصات لها ضمن صلاحيات رئيس الأطباء؛ حيث كانت الأدوية، وأدوات ومواد المعالجة تُطلب من الرئيس الثاني للدائرة الصحية، وتُجلب هذه الأدوية والمواد من صيدليات المستشفيات العسكرية القريبة، وهذا المفهوم يشكل أساس بنية الخدمات الطبية في الجيوش العثمانية؛ فعلى الرغم من الظروف القاسية والسلبية للحروب يتبين تأمين الخدمات الصحية المثمرة خلال الحرب العالمية الأولى، وقد أيّد هذا المفهوم المقدّم الطبيب هوفمان في كتابه الموسوم بـ «الخدمات الصحية» الذي ألفه عقب الحرب العالمية الأولى، وترجمه إلى التركية المقدّم الطبيب حسني بك.(٢)

وعندما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى لم يكن هنالك عدد كافٍ من الأطباء العسكريين لسدّ طلبات الخدمة الصحية خلال الحرب؛ فقامت الدولة بتخصيص جميع المستشفيات الموجودة في داخل حدود الدولة، والقريبة من جبهات القتال للخدمات الطبية العسكرية، وألحقتها تحت قيادة الفيالق العسكرية الموجودة في نفس تلك المناطق الموجودة فيها المستشفيات.

إضافةً إلى ذلك أصدرت الدولة قانون «مكلفية

(١)Sağlam T. Büyük Harpte 3. Orduda Sıhhi Hizmet. İstanbul Askeri Matbaası. 1941, s. 51.

(٢)Karatepe M, Kutlubay R. I. Dünya Savaşı Yıllarında Kayseri’de Sağlık Çalışmaları. IX.Türk Tıp Tarihi Kongresi Bildiri Kitabı. Ankara. Nobel Yayın, 2006, s. 350-353.

الأطباء» والذي ينص على التجنيد الإلزامي لجميع الأطباء، وأطباء الأسنان، والصيادلة؛ أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ إلى ٤٥ سنة، وقد كان هؤلاء يتلقّون تعليمًا لفترةٍ وجيزةٍ في مدرسة طب كلخانة، ومستشفى السريريات، ثم يتم إرسالهم إلى جبهات القتال، ولكن على الرغم من ذلك الإجراء إلى أنه ظل هذا العدد من الكادر الطبي غير كافٍ لسدّ متطلبات الناحية الطبية أثناء الحرب؛ فتقرّر إرسال طلاب المدرسة الطبية أيضًا الى جبهات القتال(١).

وقد أوضحت الإحصائيات أنه يوجد في الجيش العثماني في بداية الحرب العالمية الأولى ١٢٠٢ طبيبًا، ومن ضمنهم ٩ أطباء من الأصل اليوناني، و١٧ طبيبًا من الأصل الأرمني، و٣ أطباء من الأصل اليهودي، لكنهم جميعًا من رعايا الدولة العثمانية؛ ولأجل سدّ متطلبات الخدمات الطبية العسكرية من الأطباء دخل ١,٢٨٣ طبيبًا مدنيًّا إلى الجيش برتبة ضباط احتياط، وكان ٥٢٨ منهم من الأصل التركي، و٣٣١ من الأصل اليوناني، و٢٢٩ من الأصل الأرمني، و١١٦ من الأصل اليهودي، و٧٩ من الكاثوليك المارونيين، وجميعهم من رعايا الدولة العثمانية، ولكن على الرغم من ذلك لم تنتهِ الحاجة إلى الأطباء طوال الحرب العالمية الأولى، وقد تُوفّي ١٣٪ من الأطباء العسكريين خلال الحرب بأسبابٍ مختلفةٍ، وبخاصة من الأمراض المعدية.(٢)

وإضافةً إلى القيام بسدّ حاجة الجيش العثماني من الأطباء والصيادلة، قامت الدولة كذلك بسدّ حاجة الجيش من الموظفين الصحيين فدعت جميع الموظفين الصحيين العاملين في مستشفيات استانبول وفي جمعيات الهلال الأحمر الى الالتحاق بالخدمة العسكرية، وفي الوقت ذاته قام الجيش العثماني بالوقوف ضد الأمراض المنتشرة والمعدية خلال الحرب العالمية الأولى، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور توفيق صاغلام في كتابه الموسوم بـ «الخدمات الصحية للجيش الثالث خلال الحرب العظمى».(٣)

وقد قام الجيش العثماني بتشكيل نظام الرقابة والتفتيش لمنع انتشار الأمراض المعدية؛ حيث تأسّست المحطات الصحية التي تحتوي على أفران التنظيف، وإزالة التلوث؛ وذلك في الأماكن التي كان يتم فيها تبادل الجنود الذاهبين إلى جبهات القتال مع

---

(1)Ataç A. Osmanlı Devletinde Askeri Sağlık Hizmetleri. Osmanlı Devletinde Sağlık Hizmetleri Sempozyumu Kitabı. Eds.:Ak B,Ataç A.Ankara. Ajans-Türk Matbaası, 2000, s. 271.

(2)Erdem G. Birinci Dünya Savaşı Yıllarında Sağlık Hizmetleri. Genelkurmay Başkanlığı, Erzurum Mareşal Çakmak Asker Hastanesi, Seferde Sağlık Hizmetleri Sempozyum Kitabı. 2010, s.10-25.

(3)Genelkurmay Baskanligi Osmanli Devri Birinci Dunya Harbinde Turk Harbi.Cilt V,Kitap 3.Ankara.Genelkurmay Basimevi,1980,s545-560

الجنود الراجعين من الجبهات. وبعد ان أخترعت صناديق الضباب.[1]

وفي أواسط عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م بدأ الجيش العثماني يستخدم هذه الصناديق بدلًا من أفران التنظيف، وقد أدّى الاهتمام بالنظافة في الأماكن التي يتجمع فيها العسكر إلى عدم إنتشار الأمراض السارية والمعدية بين الجنود.[2]

وإذا اختصرنا بصورةٍ عامةٍ تلك المعايير التي قام بتطبيقها الجيش العثماني خلال فترة الحروب التي خاضتها الدولة -وبالأخص الحرب العالمية الأولى- في مواضع الصحة، والتغذية، والمأوى، والملبس، نجد أن الجيش العثماني قد قام باتّباع الخطوات الآتية في هذه المجال:

١- منع الازدحام في المعسكرات، والثكنات العسكرية الأخرى، والمحافظة علي النظافة العامة بإزالة الرطوبة من الردهات، وتأمين الهواء النقي والمشمس.

٢- تأمين الوسط الصحي في حمامات المعسكرات والثكنات العسكرية، والقيام بطلاء الجدران بصورةٍ مستمرةٍ، وزيادة استهلاك الماء، وعمل التنظيفات المستمرة إضافةً إلى تأمين النعال المناسبة لاستخدامها من قبل الجنود داخل الردهات.

٣- القيام بغسل ملابس الجنود، والأغطية، والمفروشات، وغلي الملابس الداخلية للجنود بالماء الساخن لمدة نصف ساعة على الأقل.

٤- تأمين استحمام الجنود بصورةٍ منتظمةٍ بالماء الساخن والصابون، إضافةً إلى غسل أيديهم، وأرجلهم، وأفواههم، وأنوفهم صباحًا ومساءً تحت رقابة الضباط.

٥- تنظيم أوقات الطعام للجنود، كما يجب أن تكون المأكولات مسخّنة على النار؛ كي لا تكون حاملة او ناقلة للأمراض المعدية كالكوليرا.

٦- إصلاح المباني التي يكون مستوى النظافة فيها متدنيًا؛ كالاسطبلات، والحمامات، والمراحيض، والأماكن التي تُذبح فيها المواشي، وأماكن غسل الملابس الكائنة بجوار المنابع، والآبار، والأنهار، وشبكات المياه؛ والتي تكون مصدر الشرب للجنود؛ كي لا تختلط المياه الفاسدة بالمياه العذبة، هذا بالإضافة إلى تجفيف المستنقعات الكائنة بالمناطق المجاورة؛ وذلك لمنع انتقال الرياح الفاسدة.

٧- العمل على تخفيف الازدحام الناتج عن إسكان الجنود في البيوت، والخانات، وكذلك تخفيف الازدحام في الأسواق القريبة من معسكرات الجيوش والفيالق.

---

(١) لم تجد الباحثة تفسيرًا لهذه الكلمة، ولكن من الواضح أنها غسالات ملابس تعمل يدويًّا.

(2)Ozcan A.Osmanlilarda Askeri Teskilat. Osmanli Ansiklopedisi,Cilt: 4.Istanbul.1994,s.

وعلى الرغم من كل هذه التدابير، نستطيع القول بأن عدد ضحايا الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى نتيجة الأمراض السارية والمعدية يُقارب عدد الضحايا جرّاء الجروح، والصرعى في ميدان المعركة.

الخاتمة

يمكن القول بأن الخدمات الطبية العسكرية ليست إحدى خدمات الدعم للجيوش فحسب، إنما هي إحدى العوامل المؤثرة التي تحدد نتائج الحروب بشكلٍ مباشرٍ؛ وبناءً على ذلك يستوجب تشكيل نظام الطبابة العسكرية المناسب على أساس التطورات الحربية منذ فترة السلم، كما يجب كذلك تخطيط المتطلبات من المواد والأدوات الصحية منذ وقت السلم بحسب أسوأ الاحتمالات المتوقّعة في حالة الحروب.

لكننا نلاحظ أن خدمات الطبابة العسكرية في الجيش العثماني لم تكن بالمستوى المطلوب في جميع الحروب، وبصفةٍ خاصةٍ في الحروب التي وقعت بعد تطبيق نظام الطب الحديث عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م، ونشاهد أنه خلال وعقب كلّ حربٍ يقوم الجيش العثماني بمناقشة السلبيات، والنواقص الموجودة في خدمات الطبابة العسكرية، ويقوم بعمل التحسينات عليها.

ولكن لم تكن تلك التحسينات بشكلٍ يلبّي متطلبات التطوّرات التي حصلت في علم الطب، والطب العسكريّ؛ ولهذا السبب كانت النواقص والسلبيّات تتكرر دومًا في الحروب التي كانت تقع فيما بعد.

قائمة المصادر المراجع

أولًا: المصادر والمراجع العثمانية:

Ataç, A. 2000. Osmanlı Devletinde Askeri Sağlık Hizmetleri, Osmanlı Devletinde Sağlık Hizmetleri Sempozyumu Kitabı. Eds.: Ak B, Ataç A. Ankara. Ajans-Türk Matbaası, s. 253

Ataç, A. 1996/1997. 14 Mart 1827'de Açılan Tıp Okulunun Açılışı İle İlgili Dört Belge, Yeni Tıp Tarihi Araştırmaları 2-3. İstanbul, s. 242-257

Ataç, A., Uçar M, Yiğitler. 2006. Osmanlı Hasta ve Yaralı Askerlere Yardım Cemiyetinin 1877-78 Osmanlı Rus Savaşında Yürüttüğü Sağlık Hizmetleri. VIII. Türk Tıp Tarihi Kongre Kitabı. İstanbul. s. 347-366

Ataç, A., Uçar M. 2006. 1912 Yılında Yayımlanan Bir Belge Işığında Osmanlı Hilal-i Ahmer Cemiyeti'nin Balkan Savaşı'nda Yürüttüğü Sağlık Hizmetleri. VIII. Türk Tıp Tarihi Kongre Kitabı. İstanbul. s. 367-375

Akgün Seçil Karal, Uluğtekin Murat. 2000. Hilal-i Ahmer'den Kızılay'a. Ankara. Beyda Basımevi.

Bayat, A. H. 1997. Tıp Tarihimizde Hekimbaşı Hayatizâdeler. Tıp Tarihi Araştırmaları. 6: s.109-118

Bayat, A. H. 1982. Osmanlı Devletinde Hekimbaşılık Kurumu ve Hekimbaşılar.

Çalışmaları. IX.Türk Tıp Tarihi Kongresi Bildiri Kitabı. Ankara. Nobel Yayın, s. 350-353.
Kavur, EŞ. 1973. Askeri Hekimliğin Sıhhiye Hizmetlerinde Bir Etüd. Dirim Dergisi; 4: s.193-195
Noyan, Abdülkadir. 1956. Son Harplerde Salgın Hastalıklarla Savaşlarım. Ankara. Son Havadis Matbaası.
Özbay, Kemal. 1976. Türk Asker Hekimliği Tarihi ve Asker Hastaneleri Tarihi, Cilt: I. İstanbul. Yörük Basımevi.
Özcan, Ahmet. 1994. Osmanlılarda Askeri Teşkilat. Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt: 4. İstanbul.
Özdemir, Hikmet. 2005. Salgın Hastalıklardan Ölümler; 1914-1918. Ankara. Türk Tarih Kurumu.
Raynora, MS, Cliff AD. 2004. The geographical spread of cholera in the Crimean War: epidemic transmission in the camp systems of the British Army of the East, 1854–55. Journal of Historical Geography; 30: s. 32–69
Sağlam, Tevfik. 1941. Büyük Harpte 3. Orduda Sıhhi Hizmet. İstanbul Askeri Matbaası.
Süer, H. Hikmet. 1920. 1877-1878 Osmanlı-Rus Harbi Rumeli Cephesi. Ankara. Genelkurmay Basımevi, 1993, Matbaa.
Terzioğlu, Ahmet. 1999. Yeni Arşiv Kaynakları Işığında Gülhane ve Türk Tıbbının Gelişmesine Katkıları, Gülhane ve Cumhuriyetin Kuruluş Döneminde Türk Tıbbına Katkıları Simpozyumu Bildirileri. İstanbul, s. 14.
Terzioğlu, Ahmet. 1995. Yeni Bulunan Kaynaklar Işığında Dr.K.A. Bernard ve Gevher Nesibe Bilim Haftası ve Tıp Günleri Bildirileri. Kayseri. s. 610-616.
Danişment İsmail Hami. 1955. Osmanlı Tarihi Kronolojisi, 4. Cilt. İstanbul. Türkiye Basımevi.
Erdem, Günyüz. 2010. Birinci Dünya Savaşı Yıllarında Sağlık Hizmetleri. Genelkurmay Başkanlığı, Erzurum Mareşal Çakmak Asker Hastanesi, Seferde Sağlık Hizmetleri Sempozyum Kitabı. s. 10-25
Erkanı Harbiyeyi Umumiye Riyaseti. Hidamatı Sıhhiyede Harb Tecrübeleri. 1922. Harbi Umumiden Alınan Bazı Malumat ve Tecrübeler. İstanbul. 6. Matbaa-i Askeriye.
Frik, F. 1981. Türkiye'de Sağlık Hizmetlerinde Alman İlaçları, Türk – Alman Tıbbi İlişkileri Sempozyum Bildirileri. İstanbul. s. 79
Gencer, A.İ. 1977. İstanbul Tersanesinde Açılan İlk Tıp Mektebi, İ.Ü. Edebiyat Fak. Tarih Dergisi.; sayı: 31, s. 301-310
Genelkurmay Başkanlığı. 1979. Balkan Harbi. Genelkurmay Askeri Tarih ve Stratejik Etüt Başkanlığı Askeri Tarih Yayınları, Ankara.
Genelkurmay Başkanlığı. 1993. Birinci Dünya Harbinde Kafkas Cephesi 3 ncü Ordu Harekatı, Cilt II. Ankara. Genelkurmay Basımevi.
Genelkurmay Başkanlığı. 1980. Osmanlı Devri Birinci Dünya Harbinde Türk Harbi. Cilt V, Kitap 3. Ankara. Genelkurmay Basımevi.
Hoffman, W. 1920. Sıhhiye Hidamatı. Çeviren; Hüseyin Hüsnü. İstanbul. Askeri Matbaa.
Karatepe, Münir, Kutlubay, Rauf. I. 2006. Dünya Savaşı Yıllarında Kayseri'de Sağlık

Mekteb-i Tıbbiye-i Şahane. V. Türk-Avusturya Tıbbi İlişkileri Simpozyumu Bildirileri. İstanbul, s. 78-91.

Turan, Osman. 1995. Türk Cihan Hakimiyeti MefkûresiTarihi. İstanbul. Cilt 1, Boğaziçi Yayınları.

Ünver, A. Süheyl. 1943. Tıp Tarihi, I ve II nci Kısımlar. İstanbul.

Zeydan, Corci. 1913. Medeniyeti İslamiye Tarihi. Cilt: III. İstanbul. İkdam Matbaası.

ثانيًا: المراجع العربية:

أوزتونا، يلمازا. ١٩٩٠م. **تاريخ الدولة العثمانية**، الطبعة الأولى، تركيا: مؤسسة فيصل للتمويل.

أوغلي، أكمل الدين إحسان. ١٩٩٩م. **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، المجلد الثاني، ترجمة: صالح سعداوي، الطبعة الأولى، استانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية.

س. موستراس. ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م. **المعجم الجغرافي للامبراطورية العثمانية**، ترجمة: عصام محمد الشحادات، الطبعة الأولى، لبنان: دار ابن حزم.

الشرقاوي، أحمد الشرقاوي؛ وآخرون. ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م. **جغرافية الممالك العثمانية**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار البشر للثقافة والنشر.

الصلابي، علي محمد محمد الصلابي. ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. **الدولة العثمانية عوامل النهوض**، وأسباب السقوط، الطبعة الأولى، لبنان: دار البيارق.

الغازي، أماني جعفر. ١٧/ ٣/ ١٤٣٨هـ/ ١٦/ ١٢/ ٢٠١٩م. ضريبة الغلمان في عيون المستشرقين، **بحث منشور في جامعة القصيم**، بحوث مؤتمر الاستشراق ماله وما عليه، ج ٢.



١ : المستشفى العسكري العثماني في دائرة الآغوات بقصر بكلربكي على الجانب الآناضولي من استانبول ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م



٢ : المستشفى العسكري في منطقة خادم كوي على الجانب الاوروبي من اسطنبول، شيده السلطان عبدالحميد الثاني ما بين عامي ١٣٠٥-١٣٠٩هـ/ ١٨٨٧ – ١٨٩١م، وقد كان لهذا المستشفى دور كبير في معالجة المرضى في الحرب العالمية الاولى.



٣: الكتابة الانشائية للمستشفى على المدخل الموجود في الواجهة، ويشاهد اسم السلطان عبدالحميد خان.



٤ : توزيع الطعام في المستشفى عام ١٣٢٣هـ/ ١٩١٥ م خلال الحرب العالمية الاولى.



٥: منظر من الجو لمستشفى خادم كوي.



٦: منظر جانبي لمستشفى خادم كوي.



٧: الواجهة الامامية لمستشفى خادم كوي.



٨: جراحة المفاصل من عهد السلطان عبدالحميد الثاني١٢٩٣-١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ م – ١٩٠٩م.



٩: مستشفى خادم كوي، خيام مرضى الكوليرا من قبل جمعية الهلال الأحمر زمن حرب البلقان.



١٠ : العسكر في الجيش العثماني يحملون جندي مصاب بجروح في معركة جناق قلعة في سنوات الحرب العالمية الأولى.



١١ : جنود في الجيش العثماني مصابون بجروح اثناء الحرب العالمية الاولى.



١٢ : معالجة وتداوي الجرحى في الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الاولى.



١٣ : معالجة وتداوي الجرحى في الجيش العثماني خلال معركة جناق قلعة في سنوات الحرب العالمية الاولى.



١٤: ممرضات جمعية العلال الحمر يحملن بعض المصابين بالجروح اثناء الحرب العالمية الاولى.



١٥ : الاطباء خلال عملية جراحية لجندي مصاب بجروح خلال الحرب العالمية الاولى.



١٦ : الجنود الاوروبيون المصابون بجروح اثناء الحرب العالمية الاولى.

الألوان الغنائية الشعبية في الجنوب التونسي «غناء البراش بجهة تطاوين»

Popular singing styles in southern Tunisia:
Brash singing in the Tataouine region

الأستاذ الدكتور عبد السلام الفيتوري

أستاذ متعاقد في المعهد العالي للفنون والحرف بقابس

ملخص

يهدف هذا المقال إلى دراسة غناء «البرّاش» بوصفه أحد الألوان الغنائية الشعبية المميّزة في الجنوب التونسي، وتحديدًا في جهة تطاوين، حيث يشكّل هذا النمط الغنائي جزءًا أساسيًا من التراث الشفوي المحلي. يتناول البحث الخصوصيات الفنية والدلالية لهذا الغناء، مبرزًا علاقته بالبيئة الصحراوية وبالنسيج الاجتماعي الذي نشأ فيه. ويبيّن الكاتب أنّ غناء البرّاش كان وسيلة للتعبير عن المشاعر الجماعية، ومجالاً لتداول الحكايات والأمثال والرموز التي تعبّر عن القيم القبلية والانتماء للأرض. كما يستعرض المقال التحولات التي عرفها هذا اللون الغنائي في ظلّ تغيّر البنية الاجتماعية والاقتصادية، وما نتج عنها من تراجع في حضوره بالممارسات الاحتفالية المعاصرة. ومن خلال المقارنة الميدانية، يكشف المقال عن تلاشي بعض وظائف الغناء التقليدي، مقابل بروز محاولات لإحيائه ضمن جهود صون التراث اللامادي. في الختام، يؤكد الباحث على ضرورة إدماج هذا اللون الغنائي في مشاريع البحث الميداني والتوثيق الثقافي، لما يحمله من قيم رمزية وجمالية تعبّر عن هوية الجنوب التونسي وذاكرته الجماعية.

لكلمات المفتاحية :غناء البرّاش – الألوان الغنائية الشعبية – التراث اللامادي – جهة تطاوين – الذاكرة الجماعية – الهوية

Keywords: Brach singing - popular singing styles - intangible heritage - Tataouine region - collective memory - identity

Summary

This article explores *Berrāsh* singing as one of the distinctive forms of popular vocal expression in southern Tunisia, particularly in the Tataouine region. It highlights this traditional art as a key component of the local oral heritage, reflecting the intimate relationship between music, environment, and community life. The study examines the aesthetic, symbolic, and social dimensions of *Berrāsh* singing, showing how it once served as a medium for expressing collective emotions and transmitting moral values, stories, and proverbs that embody tribal identity and attachment to the land. The article also analyzes the transformations that this genre has undergone due to social and economic changes, leading to its gradual decline in contemporary festive practices. Through field observations, the researcher reveals the erosion of some traditional functions of the song while noting emerging efforts to revive it within cultural heritage preservation programs. Ultimately, the study underscores the importance of documenting and safeguarding this vocal tradition as a living expression of southern Tunisia's cultural identity and collective memory.

مقدمة

إنّ الذّاكرة الجّمعيّة هي ذلك الجمع الرمزي لذاكرات الأفراد، وهي تأسيس لهويّة المجتمع وضمان صيرورته. ويمكن القول أنْ الذّاكرة الجمعيّة أهمّ مرتكز يقوم عليه وبه مشروع التوثيق، فهي تقوم بسرد الأحداث ونقلها عن طريق الرواية الشّفاهيّة. فبتداولها كل جيل بإضافة أشياء جديدة أو حذف أشياء أخرى لتتوافق في النهاية مع واقع حياته التي يعيشها. فقد اعتمد البشر قديما على ذاكرتهم، لتخزين عاداتهم ونقل تقاليدهم. فلقد كانت الذّاكرة الجّمعيّة مصدراً للتاريخ من خلال جميع أوجه النشاط الثقافي والمعرفي لهذه الجماعة. ومن أهم هذه الأوجه الشعر والخطابة والسير والحكايات والبطولات الجمعية والفن والأسطورة. «تستحضر الذاكرة لا التاريخ المكتوب فقط بل التاريخ الذي يعيشه الناس ويتناقلونه جيلا بعد جيل، ويصنعون من خلاله حركة مجتمعاتهم وهنا تقوم الذاكرة بدور المراقب والحارس»[(١)]

ولعل كل ما تنتجه الذّاكرة الجماعيّة الشعبيّة وتروّجه من تلك المأثورات الشّفوية، هو بالضرورة تراثٌ شعبي. ولئن ذهب البعض إلى القول أنْ هذا التراث هو من تلك الأمور التي ماتت تماما واندثرت في

(١) خواجة، (أحمد)، **الذاكرة الجماعية والتحولات الاجتماعية من مرآة الأغنية الشعبية**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، منشورات البحر الأبيض المتوسّط، ١٩٩٨، ص٤١.

طيّات النسيان. وباعتبارها قد ارتبطت بالأجداد والزمن الغابر، فهي ثقافة ذلك العصر الذي ولّى بمحاسنه ومساوئه. فإن هذا لا ينفي ان ذلك التراث إنما هو تجسيد لمخيال الجماعة وانعكاس لصورة المجتمع البدوي في أدق تفصيله بالرغم مما يطرأ عليها من تغيرات وتحريفات. «الأغنية قصيدة غنائية ذات لحن معين مجهولة النشأة. عاشت أجيالا طويلة سابقة في الوجدان الشعبي طورت وهذبت خلالها وأُضيفت لها معان جديدة»(١)

والأغنية الشعبيّة وباعتبارها فرعا من فروع التراث الشعبي، تعد مدخلا من المداخل التي ترصد الحياة الشعبيّة للمجتمعات باعتبارها قديمة قدم المجتمع والإنسان نفسه ومؤطرا تاريخيّا تنطلق منه حضارة أي مجتمع. لذلك كانت بمثابة السجل الذي يسطر تاريخ الأمة بمكوناته المادية واللامادية، ويمكن القول إنّ الأغنية الشعبية، وعلى الرغم من أنها اعتبرت كنوع من الأدب العامي يغلب عليه الكلام المتصنع ويحوم حول مواضيع مبتذلة جعلته محل ازدراء واحتقار. إلا أنّ هذا لا ينفي أنّ الأغنية الشعبية، وبما تحمله من رموز فأنها كانت تكشف عن تجارب الإنسان مع نفسه، ومع الكون من حوله.

كذلك يمكن أنْ نشير إلى أنّ حضور الأغنية الشعبية، هو حضور لذاكرة بكل ما تحمله من عبق تاريخ الأجداد والأجيال السابقة. لتأخذنا في رحلة عبر ماض أنتجه الأجداد ليخلقوا منه توصلا بين الماضي والحاضر والمستقبل. كما يمكن القول أيضا في هذا الإطار أنْ الأغنية الشعبية، قد تجاوزت تلك الوظيفة الاعتيادية المنحصرة في كل ما هو ترفيهي أو طربي. بل كانت تعد بمثابة ذاكرة للمكان والزمان وكذلك كان للأغنية الشعبية دور في حماية الهوية، من كل أشكال الافتتان والنسيان. كما أنْ الأغنية الشعبية مكنتنا من التعرف على كل تلك التفاصيل العجيبة، في حياة أهل البادية المادية والفكرية والاجتماعية. كذلك يمكن القول أيضا أنْ الأغنية الشعبية كان لها الدور الكبير، في الكشف عن اللاّشعور الجمعي. فلطالما كانت الأغنية الشعبية بمثابة تلك النافذة التي من خلالها يمكن الكشف عن الحالة النفسية والاجتماعية للفرد أو الجماعة.

لذلك تعد الأغنية الشعبية ركنا من أركان ثقافتنا وصفحة تعكس جانبا من عاداتنا وتقاليدنا. والأغنية الشعبية تختلف عن غيرها من سائر أشكال التعبير الشعبي في كونها تؤدى عن طريق الكلمة واللحن معا، لا عن طريق الكلمة وحدها. ومن ثم كان البحث في الأغنية الشعبية ذو شقين، شق يختص بالكلمة وشق يختص باللحن والموسيقى.» أما الشق الموسيقي فينبغي أن يكون البحث فيه من

---

(١) حجاب، (نمر حسن)، **الأغنية الشعبية في شمال فلسطين**، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين،١٩٨٣، ص١١.

اختصاص الباحثين في الموسيقى بصفة عامة، والموسيقى الشعبية بصفة خاصة. «أما الجانب الكلامي فيدخل في اختصاص أصحاب الدراسات الفلكلورية والاجتماعية»(١) الأغنية الشعبيّة تتشكّل في ضوء الواقع والثقافة السائدة في المجتمع، وموضوعها الثقافي هو الذي يجعلها موضوعا للأنثروبولوجيا الثقافية. والواقع أنّ البحث في العوامل الاجتماعية والثقافيّة المساهمة في تشكيل الأغنية إشارة إلى جملة من العادات والتقاليد التي تختلف باختلاف البيئة والمحيط الاجتماعي الثقافي المنبثق عنهما هذا النمط الغنائي الشعبي. ولعل ما يميز الأغنية الشعبية هي تلك القدرة التي تمتلكها من أجل الحفاظ على نظام القيم وترسيخه وجعله يتواصل حيّا فاعلا عبر التداول من جيل إلى آخر، حيث تساهم في ترسيخ الثقافة واستقرارها وتعميقها لدى الأفراد، وتضمن للفرد تناسقا وتناغما مع البناء الثقافي للمجتمع، شكلا ومضمونا فالأغنية الشعبية وباعتبارها مادة ثرية ومعبرة، ونتاجا للشعوب عبر حقب زمنية متعاقبة فأنها كانت حاملة لعدة دلالات رمزية ومعان تتحدد من خلالها الهوية الثقافية للمجتمع البدوي. كما يمكن القول أيضا في هذا الإطار أن الأغنية الشعبية وباعتبارها نتاجا لتلك الذاكرة الجمعية. فأنها كانت بمثابة ذلك المرتكز الذي يقوم عليه وبه مشروع التوثيق والتخزين. ولعلها في فترة ما اعتبرت المصدر الوحيد، الذي نستند إليه في دراستنا لتحديد لنمط عيش المجتمعات الإنسانية. فالأغنية الشعبية هي مرآة للحضارة وهي مرآة صادقة تقدم سجلا حيا يكشف عن طبيعة عيش الأفراد وقواعد سلوكهم وأنماط حياتهم العملية والفكرية فهي تعبر عن مضامين الحياة الإنسانية المختلفة وأنماطها المتنوعة. ولا شك في ذلك أن الأغنية الشعبية، تمثل صورة دقيقة لواقع حياة الإنسان البدوي. فأغاني البرّاش مثلا وباعتبارها كلون غنائي شعبي، إنما هي انعكاس لنفسية الإنسان البدوي وفكره وتسعي ما استطاعت إلى تشكيل هوية الإنسان وتحديد ملامح شخصيته في حقبة ما من تاريخ البشرية. «إن الأثر الثقافي لا تتحقق فيه صفة الشعبي إلا إذا نجح في خلق تواصل في الشكل والمضمون والخطاب، والرؤية للعالم مع البنيات الذهنية للفئات التي تبنته»(٢)

لذلك فالأغاني الشعبية تختلف وتتنوع حسب طبيعة عيش المجتمع البدوي ولعل من بين تلك الألوان الغنائية الشعبية التي تحضر عند أهل البادية في جهة تطاوين أغاني البراش التي وان تراجعت في أشكال

(١) إبراهيم (نبيلة)، **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د.ت) القاهرة مصر العربية،١٩٨١، ص ٢٦.

(٢) الرزقي، (الصادق)، **الأغاني التونسية**، دار سحر لنشر تونس، ٢٠١١، ص١٩.

حضورها اليوم إلا أنها مازلت تحضر في مختلف الممارسات الاحتفالية الفرجوية فما هو غناء البراش؟ وما هي أبرز خصائص غناء البرّاش وطبيعة السياق العام الذي يمارس فيه؟

I. أغاني البراش

البراش هو لون غنائي حكر على النساء دون الرجال تختص به، المرأة ولا تغنيه إلا ليلا وهو أقرب الي الشعر الملحمي منه إلى الأغنية إذا هو مرتبط بقصص الحب والحزن أو، بالسمر وعادة ما ينبني على التساؤلات والحوارات الداخلية أو الخارجية. مثل «قمرة يا وقادة الغالي وين بلاده». وهو يسمي بالجنوب الغربي بالشبرّاش وفي مناطق أخري «مثل الشمال الغربي يسمي بالنجمة»(1) وقد ارتبطت أغاني البراش وكما يشير إلى ذلك الضاوي موسي، «بالاحتفالات في عاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر محرم الذي صادف مقتل الحسين بن علي لذلك كان الشيعة، يحيون فيه ذكري مأتمه عبر عدة طقوس. وبالتالي فهو تقليد تعود جذوره إلي دولة الفاطميين الشيعة (٩٠٩-١٧٧١م)»(2)

وبالإضافة إلى ذلك فإن البرّاش إلى جانب أنه سلس وذو إيقاع ويتميز بالخصوصية والفرادة وهذا، ما يجعله شكلا غنائيا متنوع وثري. من ذلك أنه من حيث الموضوعات المعالجة يتطرق إلى كل مظاهر، حياة البادية في مختلف تجلياتها. ويمكن القول في هذا الإطار، أنّ البراش يعد بمثابة المتنفس للمرأة والصبية لتتحدث عما يختلج في كيانها. وهو المعبر الوحيد عن تجربتها ومن هذا المنطلق يمكننا القول، أنّ البرّاش هو ديوان المرأة كشعر تماما هو ديوان الرجل. وعادة ما يكون البرّاش ذو إيقاع خفيف تتغني به الصبايا، أيام كانت ترعي الغنم وسط الوهاد والفيافي البعيدة تروح عن نفسهن وبه تطردنا وحشة الليل ومرارة الفراق.

ولعل ما يميز أغاني البراش في جهة تطاوين، علي وجه الخصوص أنّ هذا اللون الغنائي الذي تنشده وتنظمه النسوة هو بمثابة كشف الحجاب عن عديد المواضيع والمسائل التي لا يجوز أو يعد من العيب في المجتمع البدوي الخوض فيها. لعدة اعتبارات مختلفة متعلقة بالعرف والعادات والتقاليد، وطبيعة ونمط الحياة خاصة منها ما يتعلق بالحب والغزل والتعلق بالحبيب «الفارس» في البادية الذي تتغنا به الصبايا وتمني النفس بقدومه. وعادة ما يكون غريب عن العرش أو المجتمع والوسط الذي تعيش فيه

---

(١) جراد، (فاطمة)، **العائلة والحياة العائلية بجهة تطاوين،١٨٨١-١٩٥٦**، تقديم (د): فتحي ليسير، جامعة منوبة المعهد العالي لتاريخ المعاصر تونس ٢٠١٥، هامش ص، ٣٦٧.

(٢) **نفس المرجع**، ص، ٣٦٧

ويقابل برفض العائلة والعرش نظرا لما يكتسبه قيم القرابة، والنسب من أهمية لدي المجتمع البدوي. فالنسب وحمل الاسم مصدر للفخر والتباهي، «ويمكن القول أنّ الصبايا في البادية ما يفسر تعلقهم بالفارس الذي يأتي من مكان بعيدا. ليأخذهم من تلك الحياة في البادية التي وإنّ بدت في ظاهرها، مليئة بكل معاني المحبة والسعادة فإن هذا لا يخفي ذلك الجانب من حياة البادية من المعاناة وتعب التنقل والترحال. وما يحمله من مشقة فتدعو الفتاة الله كتعبير، على التوق إلى التحرر من تعب العمل وقسوة الحياة.»[1]

وما يفرضه عليها أباها من أعمال ومتاعب فتقول يا سانية يا قديمة هدم الله جالك، الناس ترحل وتنزل وبابي يجدد حبالك. إنّ أغاني البرّاش تتجاوز كونها مجرد أغاني شعبية لتسلية، والترفيه أو للاحتفال فهي رفيقة حياة الإنسان في بيئته ومرعاه. وهذا ما يجعل من البرّاش بمثابة ديوان الجماعة الشعبية وهو سجل منجزاتها الثقافية وحصيلة خبرتها ومعارفها. فإن مكوناته تحفل بأصداء ما اكتنزته الذاكرة الجماعية ويمكن القول أنْ أغاني البرّاش، وإنّ يترأ للبعض أنها شبيهة بأغاني الأعراس أو الاحتفالات أو أنها تؤدي نفس الوظيفة فأن هذا لا يتعدى كونه مجرد انطباع. فبالبحث والغوص في عمق أغاني البرّاش وفهم كل تلك المعاني والأبعاد الدلالات الرمزية، ندرك أنّ هذا اللون الغنائي يتسم بنوع من الشمولية لذلك فهيا تعد. «سجلّا أمينا للبيئة التي أنتجته، وعليه ترتسم أكثر خصائصها أصالة وأعمقها تأثيرا»[2]

فهي لا ترتبط بحدث أو بمناسبة مثل أغاني الأعراس، أو أنها تتناول مواضيع محددة مثل أغاني الغزل أو الحب. بل هي إبراز وكشف وتطرق لجميع خبايا ومظاهر حياة البادية، في كل تفصيلاتها بل أيضا في بعض أغاني البرّاش نجد ذكر وكشف لعديد الجوانب التي لا تتطرق لها الأغاني الشعبية الاعتيادية في تطاوين. أوأنها تبرزها في صورة مخالفة لما هي موجودة عليه.

وهذا ما يضفي على أغاني البرّاش صفة الثراء والتميز. فأغاني البراش تعكس أفكار المجتمع البدوي واتجاهاته، وبالتالي هي نتاج لتلك لذاكرة الجماعية الشعبية وما تزخر به من مأثورات شفوية. هو بالضرورة تراث شعبي. ويعد هذا التراث «إضافة إنسانية مستمرة للحياة ووسيلة مباشرة من وسائل، معرفة الإنسان عبر العصور وبخاصة معرفة الإنسان

---

(١) البقلوطي (الناصر)، **مقولات من التراث الشعبي**، منشورات دار تبر الزمان، تونس-٢٠٠٥، ص٣٥

(٢) حميد عارف(مجيد)، **الأثنولوجيا والفلكلور (علم التراث الشـعبي-النطقي والمادي)** ، مطابع التعليم العالي، دار الكتب والوثائق. ببغداد، سنة ١٩٩٠ ، جامعة بغداد كلية الآداب، ص.

معرفة فنية ومعرفة الحياة التي عايشها الإنسان من خلال رؤية فكرية جمالة[1] يمكن القول أيضا إن أغاني البراش هي فرع من فروع التراث الشعبي. باعتبارها خلق ثقافي وفنّي يتجاوز الفرد وينفلت عن الخطاب الرسمي، وما يتضمنه من ثقافة سائدة ومهيمنة. كما أنّها تتجاوز دائرة المحظور والممنوع الدّيني ...كما تنصهر الأغنية ضمن ديوان التّقاليد الشفويّة، بانتمائها إلى دائرة المنقول والمتوارث شفهيا التي تمكّن جميع الثقافات مهما كانت رموزها التي تستعملها أو اللّهجات التي تعبّر بها من تأكيد ذاتها وهويتها

وأغاني البراش كلون غنائي نسائي وبالرغم ما يحمله هذا اللون الغنائي من خصوصية، وفرادة إلا أنه لا يتعدى كونه جزاء لا يتجزأ من الأغنية الشعبية. وإنّ كان له طابعه الخاص فالمتأمل في امتداد تلك، المساحة الزمنية الواسعة يجد تراثا هائلا تعاقبت عليه السنين والأزمنة .وقد أختلف وتنوع حضور المرأة، باختلاف وتنوع خصوصية كل مجتمع. نظرا لما للمرأة من حضور بارز في المجتمعات العربي، منذ القدم في مجال الغناء والإبداع الموسيقي. وقد أختلف هذا الحضور وتنوّع في أبعاده الفنية والتعبيريّة من مجتمع إلى آخر، ومن زمان إلى آخر. فتشكّل تبعا لذلك فنّا غنائيّا نسويّا أخذ أبرز معالمه وخصوصياته من خصوصيات المرأة كنوع اجتماعي في تفاعل مع خصوصيات مجتمعها »[2]

ومن هنا فقد أصبحت الحاجة ملحة إلى الاهتمام، بهذا التراث الذي في كثيرا منه أنساق إلى الإهمال والنسيان. ودفن بعضه مع الأجيال التي ولّت ولم يصلنا من هذا الكم الهائل إلّا القليل .وحتى هذا القليل بدأ يضمحل شيئا فشيئا. لأن التراث هو تجسيد لمعالم تلك الهوية لكل مجتمع، فهو يمثل خيال الشعب وأحاسيسه. فهو يتجاوز الرؤية الفردية الأحادية، لأنه ينبع من عمق تاريخ الأمة لأنه ضميرها الحي.

«ونظرا لما يمكن أن يحتوي عليه الغناء النسائي، من تصوير لمعالم هويتها الإنسانيّة ...لكونها ذاتا وكيانا اجتماعيا مؤثرا ومتأثرا بالضرورة في المجتمع»[3]

وبالإضافة إلى ذلك يمكن القول إن أغاني البرّاش تجاوزت ذلك التصور الانطباعي، بأنها مجرد لون

(١) بوذينة (محمد)، **الرقص والغناء في حضارات الشعوب القديمة**، ص١٣

(٢) الجمني (نهي)، **أساليب التعبير عن الهوية النسوية وشواغل المرأة، من خلال سجل الأغاني النسائيّة التراثية بمدينة مكثر**، دراسة سوسيلو-موسيقية، رسالة بحث لنيل شهادة الماجستير، في جماليات وتقنيات الموسيقى اختصاص، علم الموسيقى، المعهد العالي للموسيقي بسوسة، ٢٠٠٨-٢٠٠٩، ص ٥.

(٣) المرزوقي (محمد)، **الأدب الشعبي**، الدار التونسية لنشر ١٩٦٧، ص٥١.

غنائي بدوي من خلاله نتمكن من التعرف على خبايا البادية. بل هو يمكن القول إنه بمثابة لغة لأهل البادية، وأداة لتواصل فيما بينهم ولا تفهم ولا تدرك لمن ليس منهم. فالبرّاش لم ينحصر في ذلك الطابع الغنائي الاحتفالي، بل تجاوز ذلك ليصبح في عديد المواطن أداة للأخبار أو لإيصال مرسول أو رد خبر ما. ومن هنا ندرك ونفهم ما تحمله أغاني البراش، من دلالات رمزية ومن إشارات إلى الرصيد الثقافي للمجموعة. فضلا عن وفرة العناصر والمكونات التي تستمر في الوجود وتواصل حضورها عبر الزمن. كما يمكن أن نشير إلى أنّ أغاني البراش إضافة إلى ما يتميز به من خصائص فنية وثراء في المعاني، وتجاوزها لكل تلك الحدود المتعارف عليها في الغناء الشعبي في الجنوب التونسي. وما تتميز به ممارسة، هذا اللون الغنائي من دلالات رمزية تجسد الواقع البدوي في مختلف تمظاهراته. فإن أغاني البرّاش كانت حاملة في طياتها بعدا عقائديا لعله لا يظهر للمتلقي العادي، الغير مدرك لتلك الأبعاد والدلالات والممارسات المصاحبة لأغاني البراش. هذا البعد العقائدي يتجسد خاصة في أن أغاني البراش، كانت مبعثا على التفاؤل خاصة بالنسبة للفلاحين في البادية. حيث كانت أغاني البراش تؤدي في عديد الأحيان، من أجل قدوم موسم فلاحي وفير وعند بداية هطول الأمطار.

كما أن ما يميز أغاني البراش أيضا في جهة تطاوين، المحافظة على الصور الشعرية القديمة المعروفة في الشعر الجاهلي. «فأنك لا تكاد تفرق بين الصور التي جاء بها شعر جماعة من الجنوب في وصف الفرس والمهري، والمطر وبين ما جاء في شعر امرئ القيس وطرفة مثلا في هذه المواضيع بالذات»(١)

فأغاني البراش مكنتنا من الاطلاع ومن التعرف على واقع المرأة البدوية داخل مجتمع يغلب، فيه طابع الحياء ومحافظ على الخصائص القبلية وتحكمه الأعرف القبلية. وحياة المرأة فيه محكومة بالطابع الذكور ويمكن القول أنّ عالم المرأة، أو الصبية في المجتمع البدوي ظلا ذلك العالم المحاط بالسرية والغموض. أو يمكن القول هو من الأشياء التي تكون حكرا على النساء ومحاطة بنوع من السرية. ولا يسمح بالخوض فيه ولا بإطلاع الرجال الذكور عليه.

ولعل هذا ما يجعل أغاني البراش تتميز عن غيرها من الأنماط والألوان الغنائية الشعبية، هو أنّ البرّاش يتميز بنشأتها في وسط بدوي وإنتشاره بسرعة في الأوساط النسائية الشعبية. وهذا ما جعل معظم

---

(١) الخصخوصي (أحمد)، **نعيمة غانمي ومبروك المناعي**، **أغاني النساء في بر الهمامة**، الأطلسية لنشر الطبعة الأولي جانفي ٢٠١٠، ص٢٦.

أغاني البرّاش لا يمكن أن تتخذ شكلا سكونيا ثابتا فهي دائمة التغير وتتبدل أثناء عملية الانتقال، بالمشافهة أو بفضل الزيادات أو الإضافات التي تدخل على نصوصها. «وبالإضافة إلى ذلك لا يمكن أن تحتفظ الأغنية بأدائها النغمي فترة طويلة من الزمن، كما يمكن أن تحافظ على صيغتها وألونها وحتى مواضيعها في بعض الحالات»(١)

أيضا يمكن أنّ نشير إلى أن أغاني البراش، مكنتنا من معرفة منزلة المرأة ومكانتها في مجتمع يمجد فيه الرجل بصفته رأس القبيلة وعمادها. حيث أنا أغاني البراش أبرزت تلك الصورة للمرأة في المجتمع البدوي، صورة المرأة التي تسعى إلى التحرر وتجاوز الحرمان. فكان الأدب والغناء النسائي له دور كبير في الوسط البدوي من خلال استيعاب معظم وجل التجارب العاطفية، التي يعيشها الأفراد داخل مجتمعهم إلى جانب إبراز كل تلك التقاليد والممارسات والعادات في الوسط البدوي. إنّ فهم البراش باعتباره غناءً نسائيًا شعبيًا لا يكتمل إلا بالنظر إلى الإطار الاجتماعي والثقافي الذي يُمارَس فيه. فالبراش ليس مجرّد أداء غنائي تقليدي، بل هو فعل جماعي يعبّر عن روح الانتماء والاحتفاء، ويتجسّد داخل فضاءات مخصوصة تُعيد إنتاج القيم والعلاقات داخل المجتمع المحلي. ومن ثَمّ، يصبح من الضروري الانتقال إلى دراسة سياق الممارسة، للكشف عن الظروف الاجتماعية والرمزية التي تمنح هذا الفن الشعبي معناه واستمراريته.

II. البراش الممارسة والسياق الاحتفالي

لعل أبرز ما يميز أغاني البراش نشاءتها في وسط بدوي الأمر الذي مكن، من انتشار هذا اللون الغنائي في الأوساط النسائية في البادية. كما أن أغاني البرّاش وإن لم ترد مرتبطة بأنشطة احتفالية معينة كاحتفالات المرتبطة بالزفاف أو الختان أو، كل الممارسات الاحتفالية المرتبطة بحدث ما. فإن هذا لا ينفي أن أغاني البرّاش كانت بمعزل عن، كل مظاهر حياة البادية. فقد كانت مرتبطة بأنشطة الإنسان أو العائلة في البادية وهذا ما يجعلها «لون من ألوان التعبير الإنساني من أحاسيس، النّفس من فرح وترح ورغبة ورهبة وما اليها»(٢)

فأغاني البراش لم تراد اعتباطيا ولم تكن مجرد أغاني من أجل الترفيه أو تمضية الوقت فحسب، وإن ارتبطت في جوانب منها بالأبعاد الترفيهية وحضرت ممارسات التسلية ولكن ذلك لا ينفي ما تحمله أغاني البراش من عمق. يكشف ذلك «القمع ألذكوري الذي جعل المرأة تنكفئ على ذاتها تسلي

(١) الحبيب (محمد)، **التراث الفنّي في تونس، التراث الفنّي العربي وطرق عرضه**، ص14 .

(٢) القشاط، (محمد سعيد)، **الإبل وحضارة الصحراء**، دار الملتقي لطباعة والنشر، بيروت،١٩٩٨، ص٢٩.

نفسها، بما تجود به قريحتها من مكتمن الذات خارج الرقابة الذكورية»[١]

فأغاني البراش قد مست كل تلك الأعمال والممارسات للعائلة البدوية. نجد مثلا في موسم جني «البلح» براشة «خال صميدة «والتي تكون في فصل الخريف، حيث يقوم الفلاح في البادية بجني البلح ويكون معه بناته. حيث كانت أغاني البراش تنتقل عبر المشافهة كذلك يمكن ان نشير الي انه، ومن خلال ما أجريناه من حوار تبين لنا أنّ براشة» خال صميدة «كان يرددها الصبايا من أجل أن يُسمح لهم باللقاء وسماح لهم بالمرح واللعب فكانت البنات في غنائهم لهذه البرّاشة، وكأنه طلب ورجاء من «خال صميدة» الذي يمثل سلطة الأب في البادية أن يسمح لهم بالالتقاء.فكانت هذه البرّاشة وإن كانت فيها دعوة للهو وللمرح وللاتقاء بالأحبة فأنها لا تخلو من نوع، من ألم الفراق والاشتياق إلى الأهل وهي أيضا لا تخلو من وصف جمال وروعة البادية.

خَالْ صْمِيدةَ هـــيهْ خَلْي اَلْبَنَاتْ يِقْبْـــلُوْ

نَخْلَاْتِينْ طُـــــوَالْ وْعَرْجُوْنِّينْ يِهّــــبْلُوْا

نَخْلِّتِينْ فِي اَلْعِـلالْي يَا بْلّــــــحْهُمْ دِوْاَءّ

إن ما يمكن أن نتبينهٌ أن أغاني البرّاش كانت حاملة لعديد الدلالات، الرمزية وذلك انطلاقا من السياقات التي نزلت فيها وهذا ما يؤكد أن هذه الممارسات الغنائية الشعبية في البادية لم ترد بمعزل عن واقعها الاجتماعي والثقافي. فالأغنية الشعبية وكما يؤكد ذلك أحمد خواجة فقد ارتبطت أوكد الارتباط بالبيئة الجغرافية والاجتماعية.» إنّ الفنّ أصبح ظاهرة عامة يواجه بها، الإنسان احتياجاته الشّخصيّة والاجتماعية والروحية »[٢]

فهذا اللون الغنائي في البادية وخاصة في جهة تطاوين، كان ضمن ممارسات وفي كثير من الأحيان ترتبط بحدث أو نشاط أو عمل ما في البادية. مثل براشة «**خال صميدة**» والتي ارتبطت بموسم جني البلح في فصل الخريف وهذا يؤكد على أن هذا اللون الغنائي إنما إرتبط بأزمنة، ووقائع وهذا تأكيدا على أن هذا اللون الغنائي لم يكن مجرد لون غنائي تغلب عليه الانطباعية والاعتباطية.

ومن السياقات التي تتنزل فيها أغاني البرّاش، ويعتبر من أهم المواضيع التي تناولتها أغاني البرّاش موضع الإبل وما للإبل من أهمية في الحياة البدوية. «إن الإبل هي الحيوان الوحيد الذي صبر وتحمل

---

(١) جراد، (فاطمة)، نفس المرجع، ص٣٦٧

(٢) تيمور (أحمد يوسف)، **جمع وتسجيل وتدوين الأغاني الأغاني الشعبية**، مجلّة التراث الشّعبي، بغداد، العدد، ٣-٤/ ١٩٧٧، ص١٢٧.

المتاعب وكابد لوافح الصحراء، وشظف الجدب حاملا أجددنا إلى أرض لم يبلغوها إلا بشق الأنفس. فيحق لنا أن نعتبر حضارة الصحراء هي حضارة الإبل أو كما يقلون حضارة الجمل»(١) والإبل تكتسي مكانة هامة عند الإنسان في المجتمع البدوي. بل أن قيمة الفرد أحيانا في النجع تحدد بالإبل، فالفلاح في البادية يولي مكانة تكاد تكون مقدسة للأبل. فمن لا إبل له ليس له عضد ولا جاه ولا يؤخذ بكلامه، وقد وردت عديد أغاني البراش متناولة الإبل كموضوع. حتى أن بعض أغاني البرّاش، نجد فيها نوع من «المخيال الشعبي» الذي يصور تعلق الأبل في حد ذاتها بأصحابها في تأكيد على التعلق بالإبل وبالنجع وبحياة البادية. وفيه تأكيد أيضا على أنه بالرغم ما مر على المجتمع البدو في الجنوب التونسي، وخاصة في جهة تطاوين من كل أشكال الاستعمار ومحالات إدخال المجتمع البدوي في نمط وحياة المدن. وإجباره علي ترك كل تلك الممارسات والعادات فإن الإبل وفية لأصحابها ولي موطنها. «فمسرح البداوة هو البادية ثم ما يليها من أطراف الأقاليم المجاورة، وقد فرضت حياة البادية وتربية المواشي فيها على البدو حياة خاصة وأكسبتهم عادات ومميزات خاصة يجب فهمهما لفهم مشاكلهم الخاصة المختلفة»١٥

وهذا يتجسد من خلال **براشة الإبل**:

اَلْإِبْلْ قَالْتْ حْلِيلِي مْنّ بَرْ فِيهْ اَلْنّصَارَىْ
وَنْغَرّيدّ عَلَىَ طُوْلَ لْيّلْيَ وْعَمْرِي مَشِالْي خْسّاْرَةّ
وَاَلْإِبّلْ قَالْتّ غِيْرّ اَجْلّوُ بِيْا إنْزّلْكُمّ فِي فْجوْجّ خْلِيّةَ
وْ اَلْرُوْمّي مَاّ طْقّتّشَ لَعْبَا وْلّبْاَسّ لْلكَشْابِيِةّ
وْاَلْإِبْلْ قَالْتّ اَجْلُوُ قْبْلّيْةّ وْبّلاَدْ اَلْتّرْكِي نْهّرْ وُبْلاَ

فالإبل احتلت في نفوس العرب مكانةً مرموقةً منذ القدم، فهي رفيقة الإنسان البدوي وقد طوى على ظهرها الفيافي والقفار وأدلج الأصقاع والأمصار. فالإبل قديما كانت موضعَ القصيدة والحكاية. وملهمة للشعراء في القدرة على الحركة وسط الظروف الصعبة. وهذا ما يفسر أن معظم أغاني البراش كانت تتغني بالإبل. حتى أن بعض أغاني البرّاش وإن كانت تتناول ممارسات، واحتفالات أخري فإن الإبل تحضر لما تكتسيه من أهمية. إن أغاني البرّاش وإن استأثرت بنسبه هامة منها بالإبل كموضوع ومبحث، فإن هذا لا ينفي صفة الثراء عن أغاني البرّاش التي تناولت كل الممارسات والاحتفالات والتقاليد والعادات في حياة المجتمع البدوي. في جدها ولهوها ومرحها، «يعدّ التراث الغنائي الشعبي باختلاف أنواعه جزءا هاما من هويتنا

(١) العربي، (علياء)، **"صوت العرضاوي: مقاربة أثنوموسيقولوجيّة"، مجلة الثقافة الشعبيّة**، العدد ٢٢، ٢٠١٣، ص.١٠٨.

الثقافية »[1] ومنها الأفراح والمناسبات مثل الأعراس وحفلات الختان وغيرها من احتفالات أهل البادية. أعراسهم قديما في البادية كانت بانتقال أهل النجع إلي صاحب «العرس» أو الزفاف، ولا يبقي أحد ويقيمون عنده إضافة إلى كونه لا يخلو من الجوانب الأخرى من لقاء الأحبة والتقاء الصبايا واجتماعهم وقدوم الفرسان وما يتبع ذلك من ممارسات. مثل «اللهيد»[2] الخيل فالأعراس في المجتمع البدوي تكتسي أهمية بالغة، ولها طبعها الاحتفالي المميز وذلك كونها تعكس خصوصية المجتمع البدوي. وهذه ما نجده في براشة المشي للعرس.

بَرْشَةّ مَابْيّنْ ٱلْدْوَاْوِيْرّ وْحِيْرّتْ مَنْ كَانْ نَاْئِـمْ قُوْمُ
أَلْعبّوْ يَا اَلْبْنّيَاْتْ وْاَلْفْرّحَ مَاْزْاْلْ دَاْيّـمْ
هَكْي العشيشة اَلْصْغِيْرّةَ اَلْمْحّجْرْةَ بِاْلْحَوْاْلّـيِ
عْلِيْهَا سْقِيْطَةّ سْمِيْنّةَ مَا بْيّنْ بايَعْ وُشَـاْرْيِ
يَا قْصْعّةَ ٱلْسْرّجْ رَنْي يَا مْخْضّبَةَ بِاْلْحَنَاْنِي يَا دْمْعةّ
اَلْعِينْ كِفْي خُوْيِ بْنّ اُمْي جَفْاْنْـــيِ

في وحدة مكوناته فهذه الممارسات الاحتفالية، حاملة لعدة دلالات رمزية فيها تأكيد على ترابط نسيج المجتمع البدوي. وثراء ثقافته» إن ثراء الثقافة الشعبية والتصاقها بأحاسيس الجماعات ووجدانها، جعلنا نميل إلى اعتمادها كمرجع أو إبستمي نتمكن بواسطته من مقاربة الواقع ورصد حركة مجتمعنا في التاريخ والزمان»[3] فالأعراس في البادية تجاوزت تلك الأبعاد الاحتفالية لترسم لنا حياة المجتمع البدوي. باعتبار أن الأعراس هي ضرب من ضروب، «الفنون التقليدية وهي تعبير عن أصالة الشعوب كمادة إبداعية أبدعتها الشعوب تلقائيا. تعبر عن فكرها ووجدنها ويمتزج بها الموروث الثقافي والتاريخي، مع الخبرة الإنسانية في تجربة الحياة اليومية»٢٠

كما أن أغاني البرّاش أيضا وبالإضافة إلى ذلك تناولت عدة، مواضيع في حياة البادية كانت بمثابة السياقات والأطر التي تنزل فيها هذا اللون الغنائي. ومن بينها باب اللهو والمرح والترويح على النفس. وفي هذا الإطار يمكن القول أيضا أن أغاني البرّاش، على الرغم انها كانت لونا غنائيا تجاوز الألوان الغنائية الشعبية المعهودة. إلا أن هذا لا ينفي أن هذا اللون الغنائي، غير حامل لبعض خاصيات الأغنية الشعبية عامة من التداول بين العامة والتوارث بين

(١) اليافي (عبد الكريم)، "الإبداع في الفنون والعلوم "، **المجلة العربية للثقافة**، ع.١٨، تونس، مارس، ١٩٩٠، ص.١٦

(٢) **اللهيد:** أو لهيد الخيل ويكون في الأفراح، والأعراس وهو من تقاليد أهل تطاوين في الجنوب الشرقي التونسي، ويكون أما استعراضيا أو تنافسيا

(٣) يوسف، (سوزان)"الفولكلور لغة لتواصل الحضارات"، **مجلة الثقافة الشعبية**، العدد ٤٠، شتاء ٢٠١٨، ص.١٤

الأجيال إلى أن وصلت بأشكالها الحالية. «فالأغنية الشعبية أغنية مجهولة المؤلف والتي نشأت بين العامة، في أزمنة ماضية وبقيت متداولة بينهم لمدة طويلة حتى وصلت إلينا بشكلها الحالي»(١)

كما يمكن القول أيضا في هذا الأطار ومن خلال دراستنا وتعرضنا لهذا اللون الغنائي الشعبي، النسائي ولئن يبدو في ظاهره وكأنه حامل لعديد المعاني أو الدلالات والرموز التي يصعب إدراكها وكشف خفاياها. فإن هذا لا ينفي حمل هذا اللون الغنائي الي عديد الإشارات سهلة الأدراك. التي من خلالها تدرك الحياة اليومية لأهل البادية، في مختلف أبعادها ومظاهرها. وكل قصائد الجنوب سواء تغنت بالمحبوبة ذات العينين الذابلتين أو بالمحارب، فهي تحتوي على إشارات سهلة الفهم إلي الحياة العادية والمشاغل اليومية وإلي شيمهم الريفية والرعوية.

كذلك يمكن القول ان لعل ما يميز الأغنية الشعبية عامة أنها تحافظ على العادات والتقاليد والمعتقدات الخاصة، بالجماعة الشعبية وذلك لتناقلها مشافهة من جيل الى أخر حاملة معها هذا الكم الهائل من الموروث الثقافي الخاص بالجماعة الشعبية. عبر الزمن الأمر الذي جعلها تتمتع بعديد الخصائص كجماعية التلحين وسهولة التلحين فالأغنية الشعبية كما وصفها أحد الدارسين، هي واحدة من أعظم ألغاز التجربة الإنسانية. فهي بلا شك ملك الناس أو العامة ومع ذلك فإن الناس لم يقوموا بصنعها وكذلك فأنها ليست تعبيراً تم بطريقة خفية، عن الحياة العاطفية للناس لأنها على العكس من ذلك نتيجة حصاد المهارة الفنية الفردية. من خلال عمل عدد غير محدد من المغنين الشعبيين الذين أسهموا في أن تصل إلينا في شكلها الحالي.

ولعل هذا ما يحيلنا على موضوع ما يتعرض له الموروث الغنائي الشعبي من تهديد بالاندثار وتلاشي، ولعل أغاني البرّاش خير دليل علي ذلك وهذا ما لمسنه من خلال الدارسة التي قمنا بها. فهذا اللون الغنائي أتسم بنوع من الغموض حتى عند أهل الجهة أو بنوع من الازدراء أو التجاهل وغياب، البحث في هذا اللون الغنائي. «إن في أدبنا الشعبي كنوزا لو ندري كيف نستخرجها ونرعاها وفي ترثنا العربي درر، أستغلها الغرب قبل أن نستغلها والأمر لا يحتاج إلا إلى عزيمة مخلصة»(٢)

(١) ابو زيد، (أحمد)، واخزون، **دراسات في الفولكلور**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٢، ص٣١٠

(٢) خريف، (محي الدين): **الشعر الشعبي التونسي أوزانه وأغراضه**، تونس ليبيا' الدار العربية للكتاب، ١٩٩١، ص، ٥٨.

الخاتمة

إنّ تلاشي أغاني البرّاش في الجنوب الشرقي التونسي لا يمكن النظر إليه بوصفه مجرّد اختفاءٍ لنمطٍ غنائيّ نسائيّ تقليدي، بل هو في جوهره مؤشّر على تحوّل بنيوي في منظومة القيم والتعبيرات الرمزية داخل المجتمع المحلي .فقد كان هذا اللون الغنائي جزءًا من نسيج الحياة اليومية، ومن فضاء التعبير الشفوي الذي من خلاله وجدت المرأة الريفية وسيلتها الخاصة للتعبير عن الذات، وللتواصل مع محيطها الاجتماعي ضمن منظومة من المعاني والإيقاعات التي تستبطن الذاكرة الجماعية للمجتمع البدوي.

لقد شكّل البراش ذاكرة صوتية جماعية تعبّر عن الفرح والحزن، وعن تفاصيل الحياة البسيطة المفعمة بالعفوية والانسجام مع الطبيعة. كان الغناء فعل انتماء واحتفاء بالوجود، تتعانق فيه الكلمة والإيقاع لتنتجا رؤية فنية للعالم تستمد قوتها من التجربة المعيشة ومن الترابط الوثيق بين الإنسان وفضائه البيئي. غير أنّ التحولات الاجتماعية الكبرى، وما رافقها من انتقال تدريجي من نمط الحياة البدوية إلى أنماط حضرية حديثة، أضعفت البيئة الحاضنة لهذا التراث، ففقد البراش وظائفه الرمزية والاجتماعية التي كانت تضمن له الاستمرارية.

ومع ذلك، فإنّ هذا الاضمحلال لا يعني نهاية حضور البراش في الذاكرة، بل يفتح المجال أمام **إعادة التفكير في سبل إحيائه وتثمينه** ضمن مقاربة ثقافية جديدة تراعي التحولات الراهنة دون المساس بجوهره التراثي. إنّ توثيق هذا اللون الغنائي، ودراسته ميدانيًا وأنثروبولوجيًا، يمثّلان خطوة أساسية نحو صون جزءٍ من الهوية الثقافية للجنوب الشرقي، وإعادة الاعتبار لدور المرأة في صياغة التراث اللامادي وإغنائه.

فالبرّاش ليس مجرّد ممارسة فنية من الماضي، **بل هو** نصّ حيّ في الذاكرة الشعبية، يختزن سرديات عن المكان والمرأة والهوية، ويعكس قدرة الثقافة الشعبية على البقاء والمقاومة رغم تحوّلات الزمن. ومن هنا تبرز الحاجة إلى التعامل مع هذا التراث بوصفه رصيدًا رمزيًا وجماليًا، لا مجرد أثرٍ منقرض، بما يمكّن الأجيال القادمة من استلهام قيم الأصالة والتعبير الجماعي التي حملها هذا الغناء النسائي عبر التاريخ.

قائمة المصادر والمراجع

الخطيب (محمد)، **المجتمع البدوي**، منشورات دار علاء الدين لنشر والتوزيع والترجمة، سورية الطبعة الأولي سنة، ٢٠٠٧،

أبو زيد، (أحمد)، واخزون، **دراسات في الفولكلور**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٢،

أمال (الشنيني)، **الأغنية الشعبية في حياة المرأة الريفية بمنطقة ماجورة**، من ولاية قفصة رسالة بحث لنيل شهادة الماجستير في جماليات وتقنيات الموسيقي، المعهد العالي للموسيقي بسوسة،٢٠١٠-٢٠١١،

البقلوطي (الناصر)، **مقولات من التراث الشعبي**، منشورات دار تبر الزمان، تونس-٢٠٠٥،

بن تنفوس، (عزيزة): **التراث الغنائي العربي**، مجلة الفنون الشعبية عدد١١، تونس، المعهد الوطني لتراث، ١٩٩٦.

بوذينة (محمد)، **الرقص والغناء في حضارات الشعوب**، منشورات محمد بوذينة جوان، ١٩٩٩،

تيمور (أحمد يوسف)، **جمع وتسجيل وتدوين الأغاني الشعبية**، مجلّة التراث الشّعبي، بغداد، العدد، ٣-٤/ ١٩٧٧،

الجمني (نهى)، **أساليب التعبير عن الهوية النسوية وشواغل المرأة، من خلال سجل الأغاني النسائيّة التراثية بمدينة مكثر**، دراسة سوسيلو-موسيقية، رسالة بحث لنيل شهادة الماجستير، في جماليات وتقنيات الموسيقى اختصاص، علم الموسيقى، المعهد العالي للموسيقي بسوسة، ٢٠٠٨-٢٠٠٩.

الحبيب (محمد)، **التراث الفنّي في تونس، التراث الفنّي العربي وطرق عرضه**.

حجاب، (نمر حسن)، **الأغنية الشعبية في شمال فلسطين**، منشورات رابطة الكتاب جراد، جراد، (فاطمة)، **العائلة والحياة العائلية بجهة تطاوين،١٨٨١-١٩٥٦**، تقديم (د): فتحي ليسير، جامعة منوبة المعهد العالي لتاريخ المعاصر تونس ٢٠١٥،

حميد عارف(مجيد)، **الأثنولوجيا والفلكلور (علم التراث الشعبي-النطقي والمادي)** ، مطابع التعليم العالي، دار الكتب والوثائق. ببغداد، سنة ١٩٩٠، جامعة بغداد كلية الآداب.

خريف، (محي الدين): **الشعر الشعبي التونسي أوزانه وأغراضه**، تونس ليبيا' الدار العربية للكتاب، ١٩٩١.

الخصخوصي (أحمد)، **نعيمة غانمي ومبروك المناعي، أغاني النساء في بر الهمامة**، الأطلسية لنشر الطبعة الأولي جانفي ٢٠١٠،

خواجة، (أحمد)، **الذاكرة الجماعية والتحولات الاجتماعية من مرآة الأغنية الشعبية**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، منشو رات البحر الأبيض المتوسّط، ١٩٩٨،

زهني (محمود)، **الأدب الشعبي، مفهومه ومضمونه**، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية،١٩٨٢،

العربي، (علياء)، «**صوت العرضاوي: مقاربة أثنوموسيقولوجيّة**»، **مجلة الثقافة الشعبيّة**، العدد ٢٢، ٢٠١٣،

القشاط، (محمد سعيد)، **الإبل وحضارة الصحراء**، دار الملتقي لطباعة والنشر، بيروت،١٩٩٨.

مرتي (بول)، **أناشيد الجنوب التونسي الغنائية الشعبية**، تعريب وتعليق الحسناوي الزراعي، دار سحر لنشر،٢٠٠٦،

المرزوقي (محمد)، **الأدب الشعبي في تونس**، الدار التونسية لنشر، ١٩٦٧.

اليافي (عبد الكريم)، «الإبداع في الفنون والعلوم »، **المجلة العربية للثقافة**، ع.١٨، تونس، مارس، ١٩٩٠،

يوسف، (سوزان) «الفولكلور لغة لتواصل الحضارات»، **مجلة الثقافة الشعبية**، العدد ٤٠، شتاء٢٠١٨.

مبنى السلطة التنفيذية وبيت الضيافة في المدينة الإغريقية البريتانيون (Prytaneion)

الأستاذ الدكتور فؤاد حمدي بن طاهر
جامعة بنغازي- ليبيا

ملخص الدراسة

يعرف مبنى السلطة التنفيذية وبيت الضيافة في المدينة الإغريقية باسم البريتانيوم (Prytaneion)، وهو أحد أهم المباني الذي تمارس فيه نشاطات إدارية وسياسية واجتماعية تخص المواطن الإغريقي. ولكن على الرغم من أهميته الكبيرة في حياة الإغريق إلا أنه لم يكن لهذا النوع من المباني شكل معماري مميز مثل المعابد أو المسارح أو غيرها من المباني التي تميزت بها العمارة الإغريقية؛ فهو في الواقع لا يختلف كثيراً عن المباني السكنية. السمة الوحيدة له هي احتواءه على موقد مقدس مكرس لهيستيا (Hestia) مؤلهة الموقد عند الإغريق، وهذه في واقع الأمر ليست خاصية يمكن الاعتماد عليها كثيراً في تحديد هويته، حيث لا يخلو أي مبنى سكني إغريقي من موقد نار. من هنا كانت عملية الكشف أو حتى التعرف على مثل هذا النوع من الأبنية الرسمية صعب جداً. هذه الدراسة تسلط الضوء على ما كان يقدمه البريتانيون من خدمات للمواطن الإغريقي في العديد من المجالات الحياتية، وما ورد عنه في كتابات القدامى، بالإضافة إلى سرد بعض الأمثلة القليلة التي تم الكشف عنها، والتعرف عليها، بما فيها النموذج الوحيد الذي تم الكشف عنه في إقليم كيرينايكي (برقة)، وهو بريتانيون مدينة كيريني (شحات).

الكلمات المفتاحية:

العمارة الإغريقية، البريتانيون، الكتاب القدامى، المؤلهة هيستيا، الشكل المعماري.

كلمة بريتانيون (Prytaneion) تعني مقر البريتانيس أي مقر السلطة التنفيذية في المدينة الإغريقية. يتكون المجلس غالبـًا من عدد محدد من المواطنين المنتخبين من مجلس الشيوخ (Boule). البريتانيون يُعد مركزاً سياسيـًا، ودينيـًا، واحتفاليـًا في آن واحد، حيث يجتمع فيه أعضاء مجلس السلطة التنفيذية لمناقشة شؤون المدينة، ويحفظ فيه أرشيف المدينة، والوثائق الرسمية. وتتمثل قداسته في كونه يحتوي دائمـًا على موقد مقدس مُكرس لهيستيا (Hestia) مؤلهة الموقد والنار، التي تمثل روح المدينة واستمرارها. كما كانت تقدم فيه وجبات الطعام لأعضاء البريتانيس، والشخصيات البارزة، والأبطال، والمواطنين الذين جلبوا فوائد أو مجد للمدينة، وذلك من خلال سفارة ناجحة، وكذلك زوار المدينة من السفراء الأجانب، والرياضيين المنتصرين في الألعاب القومية مثل سباقات الألعاب الأولمبية.

وعلى الرغم من أهميته الوظائفية في حياة الإغريق، وفي مكونات المدينة الإغريقية، إلا أنه من الناحية المعمارية، لا يمثل طرازاً معماريـًا مميزاً، لأنه في واقع الأمر لم يكن أكثر من كونه نوع من المباني السكنية الخاصة. السمة الوحيدة والأساسية لهذا المبنى هي الموقد المقدس المشترك، رمز الحياة الجماعية للمدينة، حيث يتم الحفاظ على نار دائمة مرتبطة بعبادة هيستيا (Hestia) مؤلهة الموقد، وصالات الطعام التي تقدم فيها وجبات للشخصيات التي أشرنا إليها.

يعتقد أن البريتانيوم، مثله مثل مبنى مجلس الشيوخ الإغريقي (Bouleuterion) موروثـًا عن التقاليد الملكية، التي كانت سائدة إبان العصر الملكي في بلاد الإغريق، حيث كانت هناك قاعات يجتمع فيها الملك مع الرؤساء التابعين لسلطاته لاستشارتهم، كما كانت هناك قاعات تقدم فيها الولائم لضيوفه. وهكذا فإن البريتانيوم، والبوليوتريون قد تشاركا نفس الموروث، الذي كان سائداً في القاعات الملكية. كما تتجلي القرابة الوثيقة بين الاثنين في حقيقة أن البريتانيون احتوى

على الموقد المقدس للمدينة المكرس للمؤلهه هستيا (Hestia) مؤلهه الموقد، وأن مبنى مجلس الشيوخ غالباً مع كان يحتوي على مذبح لنفس المؤلهة. يضاف إلى ذلك أن كلاهما يوجد في الميدان العام المدينة (Agora) أو بالقرب منه، وفي بعض الأحيان نجدهما بجانب بعض ويشتركان في جدار واحد كما هو الحال في مدينة بريبيني. ولكن ونتيجة للتطورات السياسية التي شهدتها بلاد الإغريق فإن المدينة الدولة (City state) لم تعد متجسدة في رجل واحد كما في العصر الملكي، وكانت بحاجة إلى مركز بلدي ينتمي إليه المجتمع بأكمله، بدلاً من مواطن فردي، حيث يمكن التشاور بين أعضاء المجلس التنفيذي للمدينة، وتقديم الضيافة باسم المجتمع ككل.

كلمة (Prytaneon) تعني، كما ذكرنا، مقر البريتانيس أي مقر أعضاء مجلس السلطة التنفيذية، أو مجلس الحكم في المدينة الإغريقية، إلا أن الوظائف المتعددة التي كانت تمارس فيه لا تعطي المفهوم الحقيقي لهذه اللفظة في كلمة واحدة، مما أدى إلى ترجمتها بأشكال مختلفة في اللغات الأوربية الحديثة. فهناك من يرى أن التعبير الفرنسي (Hotel-de-Ville) أي فندق المدينة هو الأقرب لكلمة بريتانيون من الترجمة الإنجليزية المعتادة قاعة المدينة (Town Hall (Wycherley,1962, p. 135)، وهناك أيضاً من يسميه قصر الضيافة. ونحن من جانبنا نرى أن التعبير الأنسب الذي يتفق مع وظائفه إلى حد كبير هو مبنى المجلس التنفيذي وبيت الضيافة.

على الرغم من أن الكتاب القدامى لم يقدموا لنا وصفاً معمارياً لمبنى البريتانيوم، إلا أنهم أولوه عناية جيدة في كتاباتهم بشكل مباشر، وأحياناً بشكل غير مباشر، وهي في مجملها تؤكد على أنه من المكونات الأساسية للمدينة الإغريقية، وتشير إلى وظائفه المتعددة التي تحدثنا عنها.

يذكر أرسطو (Aristotle) البريتانيوم بقوله «يوجد في المدينة (وهنا يقصد المدينة الإغريقية بصفة عامة) موقد مشترك يسمى

بريتانيوم» (Aristotle Politics 1273b)، وعند حديثه عن أثينا يقول «أولئك الذين أسدوا خدمات جليلة للمدينة كان يتم الاحتفاظ بهم (أي تكريمهم) في البريتانيون» (Aristotle, Athenaeion Politeia, 3. 5). وقد أشار إليه ثوكيديدس (Thucydides) عند نقاشه عن المركز القديم لأثينا بقوله «ما يعرف الآن بالأكروبوليس كان في السابق المدينة، بالإضافة إلى مع ما يقع في الأسفل، وبخاصة باتجاه الجنوب؛ ويتضح ذلك من خلال موقع الحُرم القديمة والبريتانيوم» (Thucydides. History of the Peloponnesian War, 2. 15). الرحالة والجغرافي باوزنياس (Pausanias)، الذي زارا العديد من المدن الإغريقية ذكر البريتانيوم عند حديثه عن أثينا وأولمبيا؛ يقول في حديثه عن أثينا «يوجد كذلك بناء يسمى بريتانيوم، حيث تقف صور لمؤلهتي السلام وهيستيا» (Pausanias, Description of Greece, 1. 18. 3). وعن بريتانيوم أولمبيا يقول «يوجد في بريتانيوم أولمبيا مذبح للمؤلهة هيستيا، ومن نار هذا المذبح يشعل المسؤولون الشعلة (وهنا يقصد الإليين أي سكان منطقة إيليس حيث توجد مدينة أولمبيا) من أجل التضحيات الأولمبية» (Pausanias, Description of Greece, 5. 15. 4). ويشير بلوتارخ (Plurarch) في حديثه عن حياة صولون (Solon) «أمر صولون بإقامة وجبات الطعام العامة في البريتانيوم، كعلامة على التكريم لأولئك الذين يستحقون الخير من المدينة». (Plutarch, Life of Solon, Solon, 25)، كما أشار هيرودوتس (Herodotus) للبريتانيوم ولكن بشكل غير مباشر في قوله «لقد أسسوا موقداً مشتركًا، وقدموا القرابين، كما هو الحال بين الإغريق» (Herodotus, Histories.1. 146).

نفهم مما تقدم أن مبنى البريتانيوم كان أحد أهم المباني الإدارية والسياسية الرسمية في نظام مدينة الدولة الإغريقية.

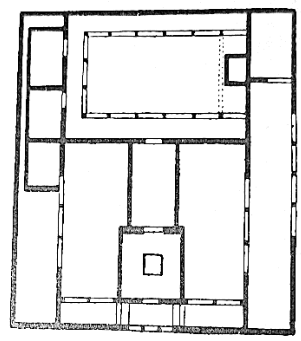
يفترض أن البريتانيوم من المباني القديمة جداً في المدن الإغريقية القديمة، وكان من المتوقع بقاء أشكال قديمة له، غير أنه لم يتم الكشف

على نموذج منه يعود إلى العهد العتيق أو المبكر (Archaic period) (حوالي ٨٠٠ – ٤٨٠ قبل الميلاد).كما كان من المعتقد أن البريتانيون عادة ما كان مستدير الشكل، مثل معابد فيستا الرومانية (Vesta)، التي كانت عبادتها مماثلة لعبادة هيستيا الإغريقية، وأنه احتفظ بشكل الكوخ الدائري البدائي. ربما كانت بعض مباني البريتانيون دائرية (ربما بريتانيوم أثينا كما يعتقد البعض)، غير أن الأمثلة الباقية بعيدة كل البعد عن إثبات أن ذلك كان هو المعتاد (Wycherley, 1962, p.135).

الأمثلة الباقية أو التي تم التعرف عليها من مباني البريتانيون تُعد قليلة جداً، والسبب الرئيسي في ذلك يعود لكونه لا يتميز بخصائص معمارية معينة، اللهم إلا الموقد المكرس للمؤله هيستيا، غير أن الموقد يمكن أن توجد بقاياه في أي من المباني السكنية الخاصة. وعلى العموم فإننا سوف نتناول في هذه الدراسة بعض النماذج التي تم الكشف عنها بشكل مؤكد أو التي تم التعرف عليها سواءً في المدن الإغريقية القديمة أو التي خططت وفق النظام الهيبودامي أو ما يسمى بنظام رقعة الشطرنج في نظام تخطيط المدن الإغريقية، بالإضافة إلى ما تم الكشف عن هذا النوع من المباني في مدن إقليم كيرينايكي (برقة) في ليبيا.

مبنى بريتانيون أولمبيا (Olympia)، وهي بلدة صغيرة في منطقة إيليس (Elis) بشبه جزيرة البيلوبونيز، تأسست عام ٧٧٦ قبل الميلاد، واشتهرت بتنظيم الألعاب الأولمبية، يُعد مثالاً جيداً، ومن أشهر الأمثلة الباقية عن هذا النوع من المباني. البريتانيون هو أحد أقدم المباني التي شيدت فيها. وهو من الأمثلة التي تعكس مدى أهمية الربط بين الشواهد الأدبية، والبقايا الأثرية، حيث أشار إليه باوزنياس كما ذكرنا سابقاً. يقع المبنى إلى الشمال الغربي من معبد المؤله زيوس (Zeus). يتكون المبنى (الشكل ١) في شكله العائد للفترة الكلاسيكية، والذي كان فيما بعد معقداً بسبب عمليات إعادة البناء والترميم. هناك مجاز في الجنوب يفضي إلى

حجرة مربعة، ربما كانت تحتوي على الموقد المقدس. وعلى كل جانب من هذه الحجرة يوجد فناء صغير، وعلى طول الجانب الخارجي من كل منهما يمتد صف من الأعمدة (Colonnade). الجانب الغربي المعمد ربما كان بمثابة أحد صالات الطعام، والحجرات الصغيرة في طرفه الشمالي يبدو أنها كانت المطابخ. ومن الحجرة المربعة سالفة الذكر هناك حجرة ضيقة تفضي إلى فناء أكبر في الخلف. والمبنى بأكمله مربع الشكل (Wycherley, 1962, pp. 135-36).



الشكل 1. بريتانيوم اولمبيا عن (Wycherley 1962 , p.136)

أما بالنسبة لمبنى البريانيوم في مدينة أثينا فقد تضاربت وتعددت بشأنه الآراء بين المتخصصين لعدة أسباب، حيث يذكر أحد الكتاب المحدثين أن بريتانيون أثينا يقع شمال الأكروبوليس وإلى الشرق أو إلى الشمال الشرقي من الأغورا، وذلك بناءً على ما ورد عند باوزنياس (Wycherley, 1962, p. 36). في الواقع باوزنياس لم يقول إن بريتانيوم أثينا يقع شمال الأكروبوليس أو إلى الجنوب الغربي من الأغورا نصاً. باوزنياس قال بالحرف الواحد في الفقرة (3 .18 .1)، «يوجد كذلك بناء يسمى بريتانيوم، حيث تقف صور لمؤلهتي السلام وهيستيا». (أنظر أعلاه ص ٣). ولنا أن نسأل من أين جاء تحديد موقعه؟ في الحقيقة إن تحديد الموقع قد أستشفه أو أستدل عليه علماء الآثار من خلال متابعة دليل تجوال الرحالة باوزنياس، وليس من خلال وصف مباشر. ولتوضيح ذلك أكثر نذكر أن باوزنياس كان يصف أغورا أثينا في الفقرات (1.3-1.17)، ثم اتجه إلى الشرق والشمال الشرقي للأغورا. وفي الفقرة (1.18) ذكر معبد المؤله أبوللو، ومعالم مدنية أخرى، ثم البريتانيوم. من خلال هذه السلسلة المتعاقبة من الوصف استشف علماء الآثار أن البريتانيوم يقع شرق أو جنوب شرق الأغورا،

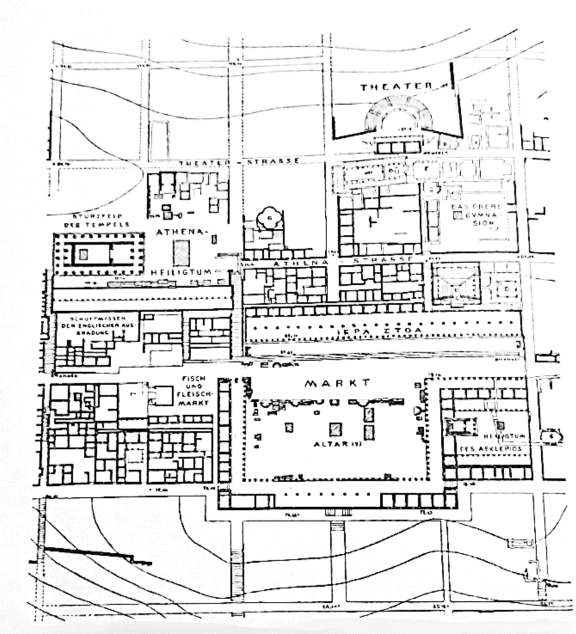
وشمال الأكروبوليس. هذا الموقع يتطابق مع بعض البقايا الأثرية التي ربما تنسب للبريتانيوم، ولكن لم يتم البرهنة على ذلك بشكل قاطع من ناحية أخرى يوجد مبنى دائري (Tholos) في أثينا تم تشييده في القرن الخامس، حوالي عام ٤٧٠ ق.م، وهو من أشهر مبنى دائري في أثينا. يتكون المبنى في شكله الأصلي من دائرة مسورة يبلغ قطرها الخارجي ٦٠ قدماً أي ما يعادل حوالي ١٨ متراً، وكان سقفه مدعوماً بستة أعمدة نحيلة مرتبة في مخطط بيضاوي داخل دائرة. أما السقف نفسه فكان مخروطياً مع بلاطات على شكل شبه معين متقنة الصنع من الطين النضيج (Terracotta). وقد كان مدخله في الشرق وأضيف إليه رواق ذو أعمدة في أواخرا العصر الهلنستي؛ وفي الشمال كان هناك ملحق يحتوي دون شك على مطبخ (Dinsmoor, 1975, p, 205; Wycherley, 1962, pp. 136-137). يعتقد أن هذا المبنى كان بمثابة البريتانيون أو نادي الطعام للقسم الرئاسي من مجلس الشيوخ. (Dinsmoor, 1975, p, 205). غير أن هناك من يشير إلى أنه كان يوجد لدى الأثينيين إلى جانب البريتانيوم نفسه، نسخة شبه مطابقة إلى حد ما للثولوس، تسمى سكياس (Skias)، حيث كان البريتانيس (رؤساء أو لجنة المجلس) يقدمون القرابين، ويأكلون فيه الطعام؛ وحيث كانت تحفظ فيه الأوزان والمقاييس الرسمية، والتي عُثر على بعضها (Wycherley 1962, p. 36). مما يعني أن مبنى الثولوس لم يكون مبنى البريتانيوم بالنسبة لمدينة أثينا على الرغم من أنه تقدم فيه وجبات الطعام للقسم الرئاسي من مجلس الشيوخ. وجهة النظر هذه تجد من يؤيدها من باحث أخر يرى أن بعض الكتاب المعاصرين يخلطون بشكل غير صحيح بين البريتانيون الأثيني ومبنى الثولوس الدائري، الذي كان البريتانيس يتناولون فيه الطعام (Robertson,1971, p, 388)، ما يعني أن مبنى الثولوس ليس له علاقة بمبنى البريتانيوم.

لا يعرف الكثير عن مبنى بريتانيوم مدينة دلفي

أكثر من كونه يقع ملاصقاً لمعبد المؤله أبوللو، في حرم أبوللو، كما أنه لا يوجد مخطط معماري واضح ومؤكد للبناء نفسه.

وإذا ما انتقلنا إلى المدن التي خططت وفق النظام الهيبودامي، أي نظام رقعة الشطرنج في تخطيط المدن، فقد أمكن التعرف على مباني البريتانيوم في كل من مدينة برين (Priene) ومدينة ماغنيسيا (Magnesia)، ومدينة ميليتوس (Miletus).

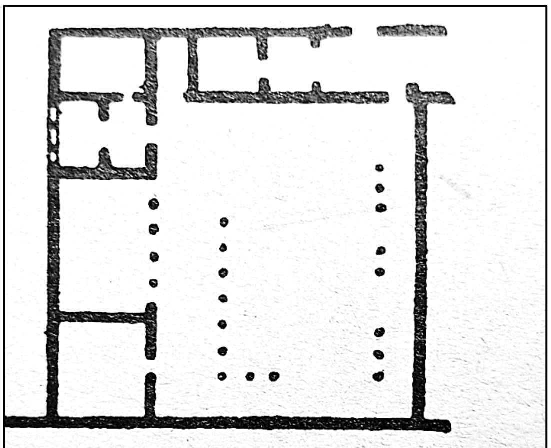
يقع بريتانيوم بريني (Priene)، وهي إحدى المدن الإغريقية الأيونية القديمة الواقعة حالياً في تركيا، والتي نُشر الكثير عن مخططها، بالقرب من الميدان العام للمدينة (Agora) ومبنى مجلس الشيوخ (Bouleuterion) (الشكل ٢). وهو يتألف من مبنى على طراز المنازل ذات الفناء المعمد (Peristyle)، مع حجرات رتبت حول فناء معمد على ثلاثة جوانب، مجاورة لقاعة الاجتماع. الحفريات أماطت اللثام عن موقد مستطيل حيث تشتعل النار المقدسة للمؤلهة هيستيا في الحجرة الموجودة في الزاوية الجنوبية الشرقية (Wycherley, 1962, p. 138؛ Wiegrand & Schrader, 1904, p.233, fig.225).



الشكل . 2 . بريتانيوم بريني عن (Robertson 1971 , p.187) مشار اليه في المخطط بالحرف D

مدينة ماغنيسيا (Magnesia)، هي إحدى المدن الأيونية القديمة، الواقعة في غرب تركيا حالياً. الحفريات الجزئية التي أجريت على أحد المباني في هذه المدينة، فسره الآثاريين على أنه بريتانيوم المدينة، وأنه يشكل جزء من المركب المعماري المدني الواقع بالقرب من الأغورا (الشكل ٣). يتضمن المبنى فناء كبير أبعاده حوالي 34.2x25.9m، محاط

بحجرات على طول جانبيه الشمالي والشرقي. يرجح أن المبنى هلنستي ويؤرخ بالقرنين الثالث–الثاني قبل الميلاد، وأنه يرتبط بالمدينة ومجلسها التنفيذي وموقدها المقدس. يعتمد الأثريين في تحديد هوية المبنى بالدرجة على أنه واقع ضمن المباني الإدارية الواقعة بالقرب من الأغورا، حيث أنه يقع في الزاوية الجنوبية الغربية من الأغورا (Wycherley, 1962, p. 138).



الشكل . 3 . بريتانيوم ماغنسيا عن (Wycherley 1962 , p.76)
مأخوذ من المخطط العام لاغورا المدينه

بريتانيوم مدينة ميليتوس (Miletus)

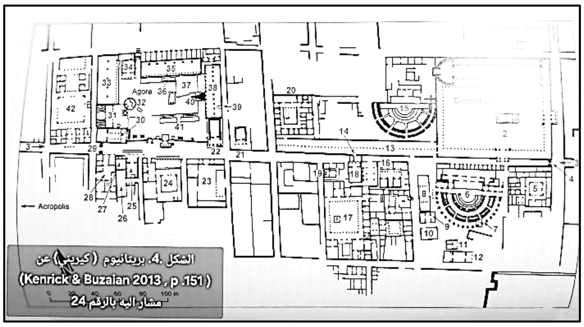
من بين أقدم وأهم المباني التي شيدت في مدينة ميليتوس، التي بدأ نموها المعماري قبل القرن الرابع قبل الميلاد، مبنى كبير يشبه المنزل يشغل مساحة ربعتين سكنيتين (Blocks) (وهذه وحدة شائعة في نظام تخطيط مدينة ميليتوس)، (Wycherley, 1962, p.69). ربما كان هذا المبنى هو بريتانيوم المدينة، وهو ما قد تم دمجه لاحقاً في مجمع الأغورا الشمالية. لا يوجد مخطط كامل ومؤكد بنسبة مائة بالمائة لبريتانيون ميليتوس ولكن توجد أعادة بناء معتمدة على بقايا أساسات، وتنظيم الفناء الداخلي، والأهم من ذلك الأدلة النقشية. حيث تم العثور في المنطقة على نقوش تشير صراحة إلى وجود بريتانيون، وكذلك نقوش شرفية تشير إلى تكريم مواطنين، وصيغة «يمنح حق تناول الطعام في البريتانيون». مجموعة نقوش ميليتوس (CorpusInscriptions Milet) (1.Milet) وبخاصة Milet 1.3 و Milet vi.

مبـانى البريتـانيوم في إقليم كيرينـايكي (برقة)

في الواقع لم يتم التعرف على مبنى البريتانيوم في أي من المدن الإغريقية في كيرينايكي حتى

يومنا هذا سوى في مدينة كيريني. لقد أظهرت الدراسات الحديثة أن بريتانيوم المدينة كان أحد المباني الرسمية المطلة على وسط ساحة الميدان العام (Agora) بالمدينة من الجانب الجنوبي من شارع باتوس، الذي يقطع منطقة الميدان العام باتجاه العلوة المحصنة للمدينة (Acropolis) (الشكل ٤). شيد المبني أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. واجهة المبني تقوم على رواق معمد يقوم على سلم مؤلف من ثلاث درجات، من خلاله يتم الدخول إلى فناء معمد كبير الحجم، تفتح عليه حجرات مختلفة على الجانب الغربي، أهمها قاعة مخصصة للولائم، وعند الركن الشمالي الغربي يوجد موقد الشعلة المقدسة. البناء في شكله الحالي بما في ذلك أعمدة الواجهة غير المخددة، وما يعلوها من والتيجان الكورنثية تعود إلى فترة ترميم المباني التي حدثت خلال العصر الروماني عقب شغب اليهود عام ١١٥ ميلادية، التي دمر فيها الكثير من مباني المدينة.

يجب الإشارة إلى أنه قد تم التعرف على بقايا بريتانيوم متواضع يحتوي على موقد أسفل عمليات توسع لاحقة أجريت على معبد المؤله أبوللو أرخيجيتيس. ومن المرجح أن البريتانيوم الحالي أي العائد أصلاً للقرن الرابع ق.م ربما قد أنشئ بديلاً عنه (Goodchild, 1970,p, 47;Kenrick, Philip,With a contribution by Buzaian Ahmed, 2013, pp, 171-172).



الشكل .4. بريتانيوم (كيريني) عن (Kenrick & Buzaian 2013 , p .151) مشار اليه بالرقم 24

في الختام يمكن القول إن عدم وجود طراز معماري معين للبريتانيوم يجعل عملية التعرف عليه مهمة صعبة، وبخاصة في حالة عدم وجود أدلة طبوغرافية أو نقشية واضحة. ولكن عندما يتم الكشف على مبنى يشبه المنزل، لكنه يتميز بمدخل ضخم، ويحتوي على قاعات كبيرة، وموقد ضخم إلى حد ما؛ وهو في الوقت نفسه مُلحق بالأغورا أو ضمن

المباني العامة الأخرى القريبة منها، يمكن تسميته مؤقتاً بالبريتانيون، إلى أن يتم التأكد على ذلك من خلال شواهد دامغة أخرى. يجب أن نضع في الحسبان أن اختيار موقعه بالقرب من الأغورا، كما هو الحال بالنسبة لمبنى مجلس الشيوخ كان أمراً طبيعياً.

أهم المصادر والمراجع:

المصادر:

Aristotle. Politics, Book VII, 1329 a-b.
Herodotus, Histories.1. 146.
Pausanias, Description of Greece (Hellados Periegesis), (L.C.L), London, 1954. V. 15. 8-11. (Olympia Prytaneon).
Plutarch, Parallel Lives.
Thucydides. History of the Peloponnesian War, 2. 15.

المراجع:

بن طاهر، فؤاد حمدي، (٢٠٢١)، المعجم المرئي للمصطلحات المعمارية الإغريقية والرومانية، منشورات جهاز المدن التاريخية، بنغازي.

بن طاهر، فؤاد حمدي، قضايا في فن المعمار عن الإغريق، محاضرات غير منشورة لطلبة الدراسات العليا، قسم الآثار، شعبة الكلاسيكي، جامعة بنغازي.

Cooper.F, (1963),"The Prytaneion: Its Function and Architecture, " Hesperia Journal, vol. 32, pp. 289-309.
Coulton, J.J, (1977), Ancient Greek Architects at Work, (Cornell University Press.
Dinsmoor, W. B,(1975), The Architecture of Ancient Greece,London & New York.
Goodchild, R.G, (1970) Cyrene and Apollonia, An historical guide, 3rd edition, Tripoli.
Kenrick, Philip,With a contribution by Buzaian Ahmed, (2013) Libya Archaeological, Guides, Silphium press, India.
Lawrence, A.W.(1973), Greek Architecture, 3rd, Oxford.
Piertrogrande, (1940) Africa Italiana, 7, p,112.

Robertson, D.S.(1971), Greek and Roman Architecture, 2nd, Cambridge.
Wiegrand Theodor& Schrader Hans, (1904) Priene: Ergebniss der Ausgrabungen und Untersuchungen in den Jahren 1895-1898, Berlin.
Stueehi, S (1975), Archetectura Cirenaica, Roma.
Wycherley, R.E.(1962), How the Greek Built Cities, second edition, New York.

الدور السياسي والإجتماعي للزوايا: الزاوية القشاشية والحركة الشابية مثالا

« The political and social role of the Zawiyas : The Qshashiya zawiya and The Chabia mouvement is an exemple »

الباحثة : نعيمة براهمي

أستاذ مساعد: بجامعة قفصة، تونس.

التلخيص: مثلت الزوايا في منتصف القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر مركزا لانطلاق التحركات السياسية المعادية للسلطة المركزية. وتمثل الزاوية القشّاشيّة والحركة الصوفية الشّابية أبرز مثالا على ذلك. فلقد مثلتا مجالا سياسيا قائما بذاته له قاعدة اجتماعية، ودور سياسي تجسده جملة من التشريعات والمؤسسات، فكانتا مثالا لسلطة صوفية متحكمة بالمجال وهو ما عجزت عليه السلطة المركزية بالحاضرة تونس.

- المقدمة:

نحى التصوف في بعض الأحيان منحى التمشّي السياسي وهو ما حمله لنا تاريخ البلاد التونسية، فلقد كانت الزوايا بمثابة الحامل للتحركات الاجتماعية والسياسية المناوئة للسلطة. وقد مثلت الزوايا في منتصف القرن الخامس عشر والقرن السادس العشر مركزا لمثل هذه التحركات، ولعل أبرز مثال على ذلك زاوية سيدي أبي الغيث القشاش -أو ما يطلق عليها الزاوية القشاشية في القرن السادس عشر-، والحركة الصوفية الشابيّة. فقد شهدت البلاد التونسية في أواخر الدولة الحفصية وبداية العهد العثماني نشأة إمارة موازية بقيادة الشيخ ابن عرفة الشابي، والذي تمكن بمساندة القبائل من «تكوين مقاطعة شاسعة»(١)، فكانت بذلك مجالا سياسيا قائما بذاته. وهو ما يبن لنا قوة هذه الحركة كسلطة متحكمة بالمجال والذي عجزت عن تحقيقه السلطة السياسية في بعض الأحيان.

(١) روبار (برنشفيك)، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ م**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٩٨٨، ج١، ص ١٤٢.

فكيف نظر الباحثون لهذا المجال (الزوايا)؟ وكيف تمظهر حضور كل من الزاوية القشاشية والمتصوف الشابي في المشهد الاجتماعي والسياسي بالمجال التونسي؟

I- مدخل نظري:

ارتبطت «الزاوية كمكان مقدس بكاريزما الوليّ الذي قامت من أجله الزاوية والوليّ لغة هو الناصر والولي: فهو الصديق والنصير. والموالاة ضد المعاداة والوليّ ضد العدو والولي القرب والدنو». «فمعنى الولي يستمد جذوره من المعطى اللغوي، وهو يحيل على معنيين بارزين متجانسين هما القرب والدنو من ناحية والحماية والنعرة من ناحية أخرى»(١). وتمثلت طبيعة الدور الذي تضطلع به الزاوية ومن يشرف عليها في بناء واستصباح وحصرُ وإطعام الضيفان. ويعنى هنا البناء الخاص بمكان الزاوية واستصباحها أي إضاءتها وحصرُ وحسب الملفوظ (حصير) نوع من الفراش مصنوع من الحلفاء ويعني ذلك الإشراف على مفروشات الزاوية. والفعل هنا مرتبط بالمكان المعروف بخصائصه التقشفيّة الدينيّة التصوفيّة، إلى جانب الإطعام(٢).

ونظر أفراد المجتمع إلى الزاوية على أنهاالمكان الفاضل الذي يمكنهم من حماية أرزاقهم بالتحبيس والوقفيات، والمُطْعِم لهم زمن المسغبة والمجاعات كما أنها مركزهم الطبّي الذي يقصدونه ومجال العلم والترفيه لديهم وإحدى مجالات حل عقدة الدين والتزاماته، خصوصا أمام ما تعرض له وما عاناه المجتمع من أوبئة ومجاعات وحروب.

وعندما نعود لما كتب حول الزوايا، نلاحظ الإختلاف في فهم العلاقة الرابطة بين الزاوية ومريديها فقد اعتبرها البعض مجال المظلومين حيث أن حسين خوجة نظر للزاوية على أنها ملاذ المظلومين ومكان يستجار به ممن ظلموهم وذلك رغم وصفه رجال التصوف بالأميّين مركزا على تأثيرها الروحي(٣) خاصة.

وبالمجال الريفي احتلت الزاوية حسب محمد

(١) بن صولة (عماد)، **وظائف الزاوية في المجتمع التونسي: سيدي البشير نموذجا**، شهادة دكتوراه تحت إشراف رضا بوكراع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، السنة الجامعية ١٩٩٨ – ١٩٩٩، ص ٥٣.

(٢) ابن عظوم (أبي القاسم بن محمد مرزوق)، **كتاب الأجوبة**، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة، قرطاج- تونس، ٢٠٠٤، ج١، ص ١٦٦ – ١٦٧.

(٣) خوجة (خوجة)، **بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب ليبيا – تونس، ١٩٧٥، ص٤٩.

الهادي الشريف مكان الجامع وهي مدرسة أو مدارس لتعليم القرآن وتعاليم الدين وقد ركز على دورها الاجتماعي الهام فهي وكما يقول مجال البركة والقدّسين[١] والعالمين.

كما كان من بين وظائفها «الحماية والمساعفة وإيواء الغرباء من المهجرسين من البدو على التوبة»[٢]. والمهجرسون هم المسلمون الذين ارتدوا عن الدين الإسلامي باعتناقهم المسيحية ثم عادوا من جديد لاعتناق الدين الإسلامي. وذهب جاك بارك إلى أكثر من ذلك واعتبر أن الزاوية «مؤسسة التقوى»[٣].

وأرجع محمد الضريف النشاط الهام وخاصة منه السياسي للزاوية إلى سببين وهما: أولا حالة الإحساس بغياب السلطة المركزية وهو الأمر نفسه بتونس في تلك الفترة التي بدأت تعرف تركزا جديدا لسلطة جديدة (العثمانية) تحتاج لوقت حتى تضع موطئ قدم بالمجال المفروض الهيمنة عليه. ثانيا حالة الإحساس بضعف السلطة المركزية[٤].

ولقد احتلت الزاوية مكانة هامة ناتجة أساسا عن الصراع السياسي مع السلطة حيث مثلت المنافس الرئيسي لها على فرض السيطرة المجاليّة الاجتماعيّة.

II- الزاوية القشاشيّة:

كان لهذه الحركة دور سياسي واجتماعي هامين فقد مثلت مكان انطلاق ما يسمى بحادثة البلكباشية، كما مثلت الحرم الآمن للمجرمين والتي لا يمكن اختراقها سواء من المجلس الشرعي أو من المجلس القبلي.

أ- الدور الإجتماعي للزاوية القشاشيّة:

بين صاحب المناقب القشاشيّة كيفية إيواء الزاوية للمجرمين وإن كان ذلك لغاية رفع شأن الزاوية وليس لإبراز عيوبها. فهذا «صالح القرشي المكني السويسي» هرب من دَيْن عليه للزاوية خوفا من أصحابه حتى أصبح أحد الفقراء بالزاوية «يخبز خبز السماط». هذا إلى جانب هروب رجل مجرم وإمرأة مجرمة للزاوية بقفصة. وهروب مائة وخمسين رجلا من المجرمين الفارين من السجن إلى زاوية الشيخ القشاش. وهروب الحاج علي بن عزة

---

(1) Chérif (MH), *Pouvoir et société dans la Tunisie de H'sayn bin Ali (1705 – 1740)*, ED. Publications de l'Université de Tunis, p 58- 351.

(٢) الباهي (مبروك)، **القبيلة فى تونس في العهد الحديث (ق١٦_ ق١٩)، من بداوة الجمل إلي بداوة الخروف والحوز / السباسب الوسطي مثالا**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس٢٠٠٥، مطبعة توب للطباعة فيفري ٢٠٠٥ ص ٩٨.

(٣) Berque (Jaques), *L'intérieur de Maghreb XV-XIX* , Edition Gallimard,1978 ,p 424.

(٤) الضريف (محمد)، **مؤسسة الزوايا بالمغرب**، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماعي السياسي، ١٩٩٢، ص٧٣.

القفصي لزاوية السيجومي التابعة لنفوذ القشاش من دين تخلد بذمته وأصبح من الفقراء المقربين للشيخ بالزاوية [١]. وهو ما يجعلنا نشك في أن نسبة هامة من الفقرا هم من المجرمين الفارين الذين تبنتهم الزاوية.

ولم يقتصر الأمر هنا على إيواء المجرمين بل وصل حدّ الدفاع عنهم وإعانتهم على الفرار من السجن. فقد تحدث صاحب المناقب على بركة الشيخ وكيفية إعانته الروحانية لبعض المسجونين بأن خطط لهم أبو الغيث طريقة ووقت الهروب[٢]. وقد حصلت بعض الملابسات بالحادثة، فالزمن الصيف في فترة القيلولة ووجود للمراسيل بين المساجين والشيخ. فعل الأمر الذي تضمن فعل أخرجوا على حين غفلة، هو في الأصل فعل مبرمجا له.

وإثر تسبب «محمد محنوش الأعور» في مصادرة بعض الأملاك بزاوية قفصة تم قتله في الفترة التي تلت غلق الزاوية(٣). أيضا بعد أن قرر الديوان مصادرة بعض أملاك الولي، سلط الغضب الإلهي على الباشا فقد قتل بعد أيام قلائل من غلق الزاوية وعاد للولي ما فقد منه[٤].

من هنا نلاحظ أن «الفقرا» والذين يمثلون في جزء منهم المجرمين الفارين لا يتوانون لحظة في تنفيذ قرارات الشيخ الحامي لهم، فهم ميليشيات من المجتمع كونهم الشيخ معترفين بفضله في حمايتهم منفذين لقراراته في كل الظروف.

تجعل كل هذه الحوادث والاغتيالات الزاوية ومريديها وشيوخها محل شك فيما يخص وظيفتهم الإجتماعية المعلنة، فكما هو واضح كان للزاوية دور كبير في تصفية أعدائها عبر الفعل الإجرامي حفاظا على وجودها بالمجال السلطوي.

إذا فقد كان للزاوية دور كبير في تعميق الظاهرة الإجرامية باحتوائها المجرمين- من وجهة نظر السياسي- والدفاع عنهم وعدهم من «فقرا» الزاوية شأنها في ذلك شأن المساجد المتعذر انتهاكها من قبل السلطة الحاكمة. وهي عادة منتشرة قبل حكم حمودة باشا(٥).

(١) القفصي (المنتصر بن المرابط بن أبي لحية)، **نور الأرماش في مناقب القشاش**، دراسة وتحقيق لطفي عيسي وحسين بوجرة، نشر المكتبة العتيقة-تونس، ١٩٩٨، ص ص ٢٠٣- ٣٩٦- ٤٢٧- ٥٢٠.

(٢) القفصي (المنتصر بن المرابط بن أبي لحية)، **نور الأرماش**...، **نفس المصدر**، ص٤٢٨.

(٣) الوزير السراج (محمد بن محمد الأندلسي)، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٨٤، المجلد ٢، ص٣٤٩.

(٤) القفصي (المنتصر بن المرابط بن أبي لحية)، **نور الأرماش**...، **نفس المصدر**، ص218.

(5) Henry Dunant(J), *Notice sur la Régence de Tunis*, imprimerie de Jules-Genève,1858, pp66-67-68-69-221.

ب - دور الزاوية السياسي:

من خلال مؤلف الأرماش نلمح تورط أبو الغيث القشاش في حادثة «البولكباشية»[1] والمجزرة التي حصلت في حقهم وقد ربط المنتصر هذا الفعل ببركة الشيخ[2]. والبلوكباشية بالأساس من المماليك وهم المشرفون على العسكر، كما أن تصرف الأحكام كان تحت أيديهم وقد «عظم جورهم على من دونهم من العسكر»[3] كما أنهم «استهانوا بالناس وأغاظوهم»[4]، وإعتدوا على ممتلكاتهم.

وقد تطاولت البلوكباشية على أبي الغيث القشاش عندما «طلبوا منه مالا لإصلاح بعض المآرب» وقد حدد أحمد قاسم طبيعة هذا المال الذي كان سيستعان به على دفع مرتبات الجيش.لأن الشيخ القشاش كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر من كثرة إحسانه للفقراء وإحياء الزوايا التي في المدينة والخارجة عنها وإطعام الطعام وفك الأسرى وأفعال البر حتى قيل انه كان يتصرف في إنفاقه من كون الله فسولت لهم أنفسهم بمطالبته فطالبوه وأرادوا إكراهه فبعث جماعة من الفقراء إلى المجازر التي بتونس وأمرهم بمشترى رؤوس الكباش فاجتمع له منها شيء كثير وفي أثناء ذلك حل بهم ما حل فكانوا يرون هذه الوقيعة من كرامات الشيخ»[5]. وربما هذه الحادثة تبين لنا كمؤرخين أن شيخ الزاوية كان متفق مع العسكر ومساند لهم في تحركهم السرّي للإطاحة برؤسائهم.

وما يدعم موقفنا هذا هو تولي عثمان داي للحكم، وهو المترعرع داخل الزاوية القشاشية والمتعايش مع «فقرا» الزاوية.

وقد كان لهذه الحادثة العديد من النتائج على المستوى العسكري والسياسي والاجتماعي والإداري والضرائبي وكذلك على مستوى الاقتصادي وعلى مستوى العلاقات الأجنبية. ويلخص كل هذه النتائج إنشاء دستور عثمان داي وسمي كذلك بالزمام الأحمر والميزان والذي عمل من خلال على تحقيق العدل.

---

(١) أطلق على هذه الثورة العديد من الأسماء مثل حادثة البلكباشية، واقعة البلكباشية. وأطلقنا عليها ثورة الدايات، لأنهم المستفيدين منها بالأساس وذلك بوصولهم للحكم.

(٢) القفصي (المنتصر بن المرابط بن أبي لحية)، **نور الأرماش...**، **نفس المصدر**، ص٢١٨.

(٣) الوزير السراج (محمد بن محمد الأندلسي)، **الحلل السندسية...نفس المصدر**، ص٣٣٩.

(٤) ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، بتحقيق الدكتور أحمد الطويل، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٩، ج٢، ص ٢٧ – ٢٨.

(٥) القيرواني (أبي عبد الله الشيخ محمد بن أبي القاسم الرعيني، **كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، ١٢٧٦ه، ص ١٩٠

III - الحركة الشابية:

١ – نشأتها:

شهد منتصف القرن الخامس عشر ظهور حركة سياسية ذات توجه صوفي هي الحركة الشابية بالقيروان تحت قيادة الشيخ سيدي أحمد بن مخلوف، «وشهدت أوجه قوتها وازدهارها تحت قيادة ابنه سيدي عرفة الذي أصبح شيخ الطريقة وكان يتمتع بالصفتين العسكرية والمدنية»(١). ويعود أصل تسميتها لان أصلهم من الشابة ولاية المهدية(٢). وقد ساهم العامل القبلي في تكون هذه الإمارة «فلقد شقت طريقها بعد أن وجدت ضالتها في كنفدرالية الحنانشة ومن خلال مجموعاتها أمثال، مرداس، والنمامشة، والحراكته التي عاشت بالشرق الجزائري، وورغة وشارن والفراشيش والهمامة التي توزعت بالمغرب التونسي حيث وقع بين هذه المجموعات والشابيّة تلاحم بدوي صوفي استمر نشاطه على المنطقة الممتدة من القيروان إلى شرق الأوراس إلى غاية النصف الثاني من القرن السابع عشر ميلادي»(٣) وكان سيدي عرفة قد أعلن استقلاله « في القيروان وفي الوسط والجنوب الغربي ومنطقة قسنطينة إلى جبال الأوراس وبلاد سوف، وامتد نفوذه حتى مشارف تونس»(٤)، وهو مجال هام إذا قورن بمجال الحكم الحفصي في أواخر عهده.

وتعود نشأة الحركة الشابيّة كسلطة داخل المجال التونسي إلى حالة الضعف التي آلت إليها الدولة الحفصية وتنفذ النظام القبلي على حساب النظام الحضري الذي كانت تسيطر عليه السلطة. وقد تدعمت مظاهر الهيمنة القبلية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر وكانت هذه الظاهرة «انعكاسا لتراجع المجتمعات نحو البداوة وسيطرة الاقتصاد الرعوي وتصاعد الحرابة القبلية مقابل تراجع الحركة التجارية والاقتصاد النقدي بعد سيطرة أوروبا على الملاحة البحرية واحتكارها الطرق التجارية»(٥) البحرية. فاستغلت الحركة

---

(1) Monchicourt,(CH),*Etude Kairouanaises,Kairouan et les Chabbia (1450-1592)* ,imprimerie J.Aloccio 6 Rue D'Italie,1939, p13.

(٢) أنظر: الرعيني القيرواني (محمد بن أبي القاسم)، **كتاب المؤنس**... **نفس المصدر**، ص ١٥٣.

(٣) بن زردة(توفيق)، **الكنفدراليات القبلية الحدودية ودورها في العلاقت الإقتصاية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني**، الحنانشة أنموذجا، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ٢٠١٣ – ٢٠١٤، ص ص ٦ –٧.

(٤) الشابي (علي)، **عرفة الشابي رائد النضال القومي في العهد الحفصي**، الدار العربية للكتاب، تونس –ليبيا، ١٩٨٢، ص ١٧.

(٥) الأرقش(دلندة)، الأرقش (عبد الحميد)، بن الطاهر(جمال)، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، مركز النشر الجامعي مديا كوم، ٢٠٠٣، ص ٥١.

الشابيّة هذا الضعف السياسي «لتؤطر الفصائل القبلية المرتدة»[1]. ولتكون النواة الأولى للمجموعة السكانية التي ستحكمها ويكون مجال هذه القبائل هو المجال الذي ستسيطر عليه الحركة وتفرض فيه أحكامها وتشريعاتها. لتكون بذلك بداية نشأة سلطة جديدة منذ سنة ١٥٣٤.

وقد اكتسبت الحركة إشعاعها عبر التأثير على الجانب النفسي للأفراد، فقد كانت الزواية تطعم وتأوي مريدها، وهو الجانب الذي لعب عليه المتصوف الشابي في مواجهة السياسي -لكسب أكثر ما يمكن من المريدين- الذي كان يأخذ الضرائب من رعيته، خاصة مع أواخر الدولة الحفصية: حيث وقع مضاعفة الجباية، في مجتمع يعاني المجاعة والجفاف والأوبئة، زيادة على الهجمات الخارجية. فلم يكن هناك من حل غير الالتجاء لبديل آخر قادر على أن يطعم ويأوي ويحمي، من هذا التسلط السياسي التشريعي للسلطة الحاكمة داخل البلاد والهجمات الخارجية.

وقد «إنتشرت الشابية في نواحي الجريد، ووادي سوف وعنابة وخنشلة والخنقة، بحيث كانت لها زوايا ومقدمون، بل وثورات ومدخلات سياسية في هذه المناطق»[2] ومن مردين الشيخ عرفة من القبائل نجد:» طرود والهمامة ودريد والنمامشة وأولاد سعيد وأولاد بالليل وأولاد مهلهل والحراكتة والنيايل والحنانشة والقبائل الموالية لها (خمير وورغة وشارن وأولاد بوغانم والفراشيش)»[3]، وجلها قبائل معروفة بمعارضتها للسلطة وحبها للإستقلالية.

وقد أضيفت إلى الدولة الشابية كل من «القاطنين بالجنوب الجزائري من الزيبان إلى تخوم نفطة، ومرداس والذواودة وبني بربار، وتأكد نفوذها في منطقة الساحل وفي وسط تونس وغربها وشمالها الغربي وجنوبها الغربي ومن منطقة قسنطينة إلى الأوراس »[4]، وهو مجال هام تؤكد المصادر أنه فاق مجال الحكم الحفصي. ورغم سقوطها سنة ١٥٩٢ إلا أن نفوذها تواصل حتى القرن التاسع عشر[5]. بصفة سريّة.

٢- التشريع الشابي:

لما نخوض في الجانب التشريعي لهذه الحركة نلاحظ اعتماد الحكم العائلي المستند على «انتقال

---

(١)الأرقش(دلندة)، الأرقش (عبد الحميد)، بن الطاهر(جمال)، **المغرب العربي الحديث... المرجع نفسه**، ص ٥١.

(٢) العدواني (محمد بن عمر)، **تاريخ العدواني**، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦، ص ١٠٢.

(٣) الشابي (علي)، **عرفة الشابي... نفس المرجع**، ص ٥٤.

(٤) **المرجع نفسه**، ص ص ٦٦ – ٦٧.

(٥) أنظر الشابي (علي)، **عرفة الشابي... المرجع نفسه**، ص ٨٠

أو تطور البركة المرتبطة بالشيخ ولكنها لا تنتقل دائما من الأب إلى الابن »(١). وهو ما يحمل في داخله جانبا من الحرية والليونة عكس الحكم السياسي للدولة الحفصية ومن بعدها السلطة العثمانية بتونس والذي كان بمجمله عائليا وراثيا، وربما هذا من الأسباب التي منح المجتمع عبرها ثقته في الطرق الصوفية أكثر منه للحاكم السياسي.

أما في طريقة منح الثقة للحاكم فلا نتحدث عن بيعة بل نتحدث عن مصافحة، فقد حصل الشيخ عرفة على مصافحة حوالي ١١٤٠٠٠ رجل. وهو رقم هام أفزع رجال الدين فعملوا إلى تحريض السياسي على الصوفي، وهو ما قام به محمد السنوسي أحد رجال العلوم الرسمية ضد الشيخ ابن عرفة(٢) قصد تدمير نفوذه.

وأما عن التشريع الضريبي فبالإضافة إلى الضرائب المتعارف عليها في الدولة الحفصية(٣) أضافت الحركة ضريبة جديدة، وهي «الهدية» المقدمة إلى الشيخ. و«مع تزايد عدد الأتباع وانتشار الطريقة تدعمت مواردها والتي يمكن تقسيمها إلى موارد مادية منها المنقولة والمتمثلة في الإعانات والهدايا والفتوح، وأخرى غير منقولة تشمل الأوقاف والحبوس»(٤). وهذه العادة نسج على منوالها العثمانيون غير أن الفرق بينهما هو أنها مع الشابيين كانت تطوعية أما مع العثمانيين فهي إجبارية (٥) ومضبوطة.

وقد كان أهالي الجريد يدفعون الخراج(٦)، كما استفاد الشيخ عرفة من الأموال «التي يقدمها له الحنانشة، وكانت تعطى باعتبارها زكاة شرعية فحولها إلى عادة، واستطاع عن طريقها أن يواجه تزايد الأنصار وما يطلبونه من نفقات حين كانوا يفدون إليه بالقيروان»(٧). وبالإضافة إلى «ما كان

---

(1) Monchicourt,(CH),*Etude Kairouanaises… op.cit* , p19.

(٢) أنظر : Monchicourt,(CH),*Etude Kairouanaises…op.cit,* pp 45 à 55 -.

(٣) مثل العشور والقانون.

(٤) بن حيدة (يوسف)، **التواصل الصوفي للطرق الصوفية بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية "الطريقة الشابية نموذجا"**، أطروجة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، ٢٠١٦ – ٢٠١٧، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الجيلالي ليابس/ سيدي بلعباس، ص ٣٤.

(٥) بن حيدة (يوسف)، **التواصل الصوفي للطرق الصوفية بين الجزائر… المرجع نفسه**، أنظر ص ص ٣٥ – ٣٦.

(٦) **المرجع نفسه**، أنظر ص ٣٦.

(٧) الشابي (علي)، **عرفة الشابي… نفس المرجع**، ص ٦٦.

يتلقاه ابن مخلوف(١) من عون مادي من الهمامة في صورة فتوح، ثم في صورة زكاة أصبحت عادة تؤدي لسيدي عرفة، أي ضريبة خاصة لا يمكن التخلف عنها »(٢) أبدا.

- المؤسسات التشريعية للحركة الشابية:

كان للحركة الشابية مؤسساتها التشريعية والتي تبدو شبيهة بمؤسسة القبيلة أو الحكم القبلي، إذ لم يلجأ الشابيون إلى إنشاء مؤسسات قضائية جديدة بل كان تشريعهم قائما على نظام عرفي، ويعود ذلك لكون مجال الحكم يتكون أساسا من القبائل.

فضم مجلسها القضائي كمجلس تشريعي، «مجلس الجماعة الكبار، والذي يظهر دوره في حال غياب الحكم المركزي وقد لعبت هذه الجماعة دورها خاصة في ما أطلق عليه Monchicourt جمهوريات الساحل وأيضا بجربة، والمهدية وصفاقس»(٣). كما استعان رئيس الحركة «بمجلس يعرف بمجلس الحكومة الشابية، وهو من أهم المؤسسات، ويضم مجلس الأعيان وجماعة الكبار المجتمعين حول شيوخ القبائل والقرى، وعدد من أقربائه فهو يقوم بدور بيت المال، ويدير الأملاك بالنيابة، وشؤون أخرى متعلقة بالعائلة والدولة وكذا الطريقة، ويحضر اللقاءات مع الوفود الأجنبية ويفصل في النزاعات والمعاهدات والسلم والحرب كما كانت صلاحيات المجلس مرتبطة بسلطة الشيخ المطلقة في التسيير»(٤) وإدارة شؤون أتباعه.

وكان مجلس الجماعة في العهد الشابي يسمى بـ«المحمدية كناية عن الرئيس محمد ابن أبي الطيب من المؤسسين الأوائل للحركة»(٥). كما كانت للشابية مؤسسة تسمى بيت الشريعة وهي مجال للتعليم وفي نفس الوقت «محكمة للتقاضي بين الخصوم فيتصافى المتخاصمون ويتصالحون بحضور الشيخ، ثم يأذن لهم بالمغادرة. أما الإشراف على إعدادها فقد اختص أولاد معمر بإهداء خيمة كل ثلاث سنوات تكون مقرا لبيت الشريعة»(٦). وقد انتهت هذه المؤسسة سنة ١٨٦١ «بعد أن تفرقت عنها القبائل التي كانت تدعمها ماليا»(٧) وبشريا.

كما كان للشابية مؤسستها العسكرية والتي تتمثل

---

(١) وهو جد ابن عرفة.

(٢) الشابي (علي)، **عرفة الشابي ... المرجع نفسه**، ص ٨٢.

(3)Monchicourt,(CH),*Etude Kairouanaises…op.cit,* p p 114 - 115.

(٤) بن حيدة (يوسف)، **التواصل الصوفي للطرق الصوفية بين الجزائر وتونس... نفس المرجع**، ص ١١٢.

(5) Monchicourt,(CH),*Etude Kairouanaise…Ibid,* p119.

(٦) بن حيدة (يوسف)، **التواصل الصوفي للطرق الصوفية بين الجزائر وتونس...المرجع نفسه**، ص ٣١.

(٧) **المرجع نفسه والصفحة.**

في قاعدة حربية تسمى أورقو «وقد إتخذها الشيخ عبد الصمد الشابي بين ١٥٩٢ إلى ١٦١٦ حصنا ينطلق منه في هجماته وحروبه»[١]. فالثراء الذي تميزت به الحركة «سمح لها بإقامة دولة وتكوين جيش قوي»[٢]. هزم الجيش الحفصي والعثماني في أوج قوتها.

ورغم الصراع الشابي الحفصي إلا أن الحركة لم تكن في معزل عن سلطة مولاي حسن، بل كانت تجمعهما علاقات مصاهرة، فالسياسة الشابية القائمة على نصرة الدين الإسلامي ضد الآخر المسيحي تراجعت مع محمد بن أبي الطيب بعد أن شعر بالخطر العثماني الذي يهدد البلاد فعقد تحالفا مع الحفصيين ضد الأتراك.

وقد ساهم الرفض الصوفي للحكم العثماني في سعي حكام الإيالة لاحقا، وخاصة في النصف الثاني من القرن السادس عشر، لإضعاف سلطة الزوايا، فحذف عثمان داي ما كان يتمتع به هؤلاء من مداخيل قائلا «هذه الرعية الذين يأكلون هذه الزوايا والمرابطين، كلها نقص على دار المخزن الرأي عندي أن تفكوا هذه الرعايا، وتستعان بهم دار المخزن»[٣]. ولم تعد في نظر المشرع ذلك الحرم الذي لا يجب الاعتداء عليه، بل أصبح من الممكن الدخول وإخراج الخارجين عن القانون السياسي منه. لتصبح الزاوية متحكم فيها سياسيا، فأصبح بإمكان الحاكم عزل وتولية من يراه شيخا مناسبا للقيام بمهام الزاوية شأنها في ذلك شأن المساجد. وتعتبر هذه التولية السبيل الوحيد للحصول على شرعية القيام بمهام الزاوية [٤]. لذلك نلمح غياب شبه كلي لدور الزاوية خاصة ما بعد القرن ١٧.

- الخاتمة:

من خلال المثالين السابقين يمكن لنا أن نستنتج أن المتصوف لم يكن وكما صور لنا يعيش في عالمه اللاهوتي بعيدا عن واقعه الإجتماعي والسياسي، بل كان متواجدا صلب مجمل التجاذبات التي كانت تتحكم في المجال التونسي، كان كغيره يطمح في الحكم والسيطرة وكانت له طرقه الخاصة فعبر

---

(١) **المرجع نفسه**، ص ٣٢.

(٢) صحراوي (عبد القادر)، "الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني (١٦ م – ١٩ م)"، **الحوار المتوسطي العدد ٣- ٤**، جامعة سيدي بالعباس، ص ٢٨.

(٣) الأرقش(دلندة)، الأرقش (عبد الحميد)، بن الطاهر(جمال)، **المغرب العربي الحديث...نفس المرجع**، ص ١٠٥.

(٤) انظر التميمي(اسماعيل)، **فتاوى التميمي**، مخطوط المكتبة الوطنية رقم ١٧٨٨٨، كشف ورثة النيفر ١٩٥٩، رقم التسجيل ٩٩٥٦، الورقة عدد ٦٣.

أعماله الخيرية سيطر على المجتمع وبالمجتمع حارب السياسي فنجح في حربه وهزمه وكان قادرا على تسيير المجال الذي يحكمه فالعلاقة الروحية بين الزاوية ومريديها لم يمنعها من إيجاد تشريعات يمكن للمجتمع رفضها أو قبولها في ذات الوقت. وكانت المصلحة هي المسيّر لعلاقات المتصوف بمجاله.

البيبلوغرافيا:

١ : المصادر والمراجع باللغة العربية:

أ- المصادر:

- التميمي (اسماعيل)، **فتاوى التميمي**، مخطوط المكتبة الوطنية رقم ١٧٨٨٨، كشف ورثة النيفر ١٩٥٩، رقم التسجيل ٩٩٥٦.

- ابن عظوم (أبي القاسم بن محمد مرزوق)، **كتاب الأجوبة**، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة، قرطاج- تونس، ٢٠٠٤، ج١.

- ابن أبي الضياف(أحمد)، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، بتحقيق الدكتور أحمد الطويل، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٩.

- خوجة (خوجة)، **بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب ليبيا -تونس، ١٩٧٥.

- القفصي (المنتصر بن المرابط بن أبي لحية)، **نور الأرماش في مناقب القشاش**، دراسة وتحقيق لطفي عيسي وحسين بوجرة، نشر المكتبة العتيقة-تونس، ١٩٩٨.

- العدواني (محمد بن عمر)، **تاريخ العدواني**، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦.

- الرعيني القيرواني (محمد بن أبي القاسم)، **كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، ١٢٧٦ه.

- الوزير السراج (محمد بن محمد الأندلسي)، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٨٤.

ب - المراجع:

- الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس في العهد الحديث** (ق١٦_ق١٩)، **من بداوة الجمل إلي بداوة الخروف والحوز / السباسب الوسطي مثالا**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس٢٠٠٥، مطبعة توب للطباعة فيفري ٢٠٠٥.

- الأرقش(دلندة)، الأرقش (عبد الحميد)، بن الطاهر(جمال)، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، مركز النشر الجامعي مديا كوم، ٢٠٠٣.

- روبار (برنشفيك)، **تاريخ إفريقية في العهد**

الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٩٨٨.

- الشابي (علي)، **عرفة الشابي رائد النضال القومي في العهد الحفصي**، الدار العربية للكتاب، تونس – ليبيا، ١٩٨٢.

ج- المقالات:

صحراوي (عبد القادر)، «الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني (١٦ م – ١٩ م)"، **الحوار المتوسطي العدد ٣- ٤**، جامعة سيدي بالعباس.

- الضريف (محمد)، **مؤسسة الزوايا بالمغرب**، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماعي السياسي، ١٩٩٢.

د- الأطروحات:

- بن صولة (عماد)، **وظائف الزاوية في المجتمع التونسي: سيدي البشير نموذجا**، شهادة دكتوراه تحت إشراف رضا بوكراع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، السنة الجامعية ١٩٩٨ – ١٩٩٩.

- بن زردة(توفيق)، **الكنفدراليات القبلية الحدودية ودورها في العلاقت الإقتصاية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني**، الحنانشة أنموذجا، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ٢٠١٣ - ٢٠١٤.

بن حيدة (يوسف)، **التواصل الصوفي للطرق الصوفية بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية «الطريقة الشابية نموذجا»**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، ٢٠١٦ – ٢٠١٧، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الجيلالي ليابس/ سيدي بلعباس.

sources et Ouvrages en langue française :

- Berque(Jaques), *L'intérieur de Maghreb XV-XIX* , Edition Gallimard,1978
- Chérif (MH), *Pouvoir et société dans la Tunisie de H'sayn bin Ali (1705 – 1740)*, ED. Publications de l'Université de Tunis.
- Henry Dunant(J), *Notice sur la Régence de Tunis*, imprimerie de Jules-Genève,1858.
- Monchicourt,(CH),*Etude Kairouanaises,Kairouan et les Chabbia (1450-1592)* ,imprimerie J.Aloccio 6 Rue D'Italie,1939.

أهم مبادئ الإدارة العامة في مصر
خلال العصر العثماني
(١٥١٧ م ـ ١٩١٤ م)

د. ماجد هاشم كيلاني

دكتوراه في القانون الخاص - شعبة فلسفة القانون وتاريخه

من كلية الحقوق – جامعة مدينة السادات

مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في التساؤل الرئيسي الآتي:

– ما أهم المبادئ الإدارية التي حكمت تنظيم ولاية مصر خلال العصر العثماني؟، وكيف أسهمت هذه المبادئ في تحقيق الربط بين المركز والأقاليم وضمان استمرارية الإدارة؟

ويتفرع عن هذا التساؤل عدد من الأسئلة حول طبيعة العلاقة بين الإدارة المركزية والإقليمية، وحدود التدرج الإداري، وأثر التقسيم الإداري المحلي في ضبط شؤون الولاية.

أهمية البحث

– إبراز الأسس التنظيمية التي قامت عليها الإدارة العثمانية في مصر.

– توضيح جذور بعض النظم الإدارية الحديثة الممتدة تاريخيًا.

– الإسهام في الدراسات التاريخية والإدارية من خلال تحليل التجربة العثمانية في مصر.

– فهم طبيعة العلاقة بين السلطة المركزية والسلطات المحلية في سياق تاريخي ممتد.

أهم أهداف البحث

– التعرف على مبدأ الربط الإداري بين الإدارة المركزية والإقليمية في مصر العثمانية.

– تحليل مبدأ التدرج الإداري وأثره في استقرار النظام الإداري.

– بيان مبدأ التقسيم الإداري المحلي لولاية مصر وأثره في إدارة الأقاليم.

– محاولة استنتاج السمات العامة للنظام الإداري العثماني في مصر.

مناهج البحث

– المنهج التاريخي: لدراسة تطور النظام الإداري خلال الفترة (١٥١٧–١٩١٤م).

- المنهج التحليلي: لتحليل المبادئ الإدارية وتفسير أبعادها التنظيمية.

- المنهج الوصفي: لوصف الهياكل الإدارية والعلاقات بين مستويات الحكم.

ملخص البحث

يتناول البحث أهم المبادئ الإدارية التي حكمت ولاية مصر خلال العصر العثماني (١٥١٧م–١٩١٤م) مركّزًا على ثلاثة مبادئ رئيسة: مبدأ الربط الإداري بين الإدارة المركزية في العاصمة العثمانية والإدارة الإقليمية في مصر، ومبدأ التدرج الإداري الذي نظم العلاقة بين مستويات السلطة، ومبدأ التقسيم الإداري المحلي الذي أسهم في إحكام السيطرة على الأقاليم، ويبرز البحث كيف أسهمت هذه المبادئ في تحقيق قدر من الاستقرار الإداري، وضمان تبعية الولاية للسلطة المركزية، مع منح قدر من الصلاحيات للإدارة المحلية في تسيير الشؤون اليومية.

أهم الكلمات المفتاحية:

الإدارة العثمانية، ولاية مصر، الربط الإداري، التدرج الإداري، التقسيم الإداري، المركزية، الإدارة المحلية، التنظيم الإداري.

Abstract:

This study examines the main administrative principles that governed the Province of Egypt during the Ottoman era (1517–1914). It focuses on three core principles: the administrative linkage between the central authority in the Ottoman capital and the provincial administration in Egypt; the hierarchical administrative structure that regulated authority across different levels; and the local administrative division of the province. The research highlights how these principles contributed to administrative stability, ensured the subordination of Egypt to the central Ottoman authority, and at the same time allowed a degree of local administrative autonomy in managing daily affairs.

Keywords:

Ottoman administration، Province of Egypt, administrative linkage, administrative hierarchy, local administrative division, centralization، local governance, administrative organization.

أهم نتائج البحث

- اتسم النظام الإداري في مصر العثمانية بمركزية واضحة مع وجود تنظيم إقليمي فعّال.

- أسهم مبدأ التدرج الإداري في تحديد الاختصاصات ومنع تضارب السلطات في دولة الخلافة العثمانية ككل وفي ولاية مصر العثمانية كجزء.

- مكّن التقسيم الإداري المحلي من إحكام الرقابة وجمع الضرائب وضبط الأمن في دولة الخلافة العثمانية ككل وفي ولاية مصر العثمانية كجزء.

- حافظت الإدارة العثمانية على توازن نسبي بين المركزية واللامركزية بما يخدم استقرار الحكم.

مقدمة

أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة العثمانية بالقسطنطينية بعد أن انتصر الجيش العثماني بقيادة السلطان «سليم شاه» (سليم الأول) على جيش السلطان المملوكي «طومان باي» في موقعة «الريدانية» عام٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م(١)

(1) Peter G. Bietenholz & Thomas Brian Deutscher - Contemporaries of Erasmus: A Biographical Register of the Renaissance and Reformatio –Volume 1 - University of Toronto Press –London- 2003 -p 238, and Michael Winter- Egyptian Society Under Ottoman Rule, 1517-1798- Routledge -London– 2003 – p 81

د. السيد العربي حسن – الأصول التاريخية للقانون المصري القديم – بدون دار نشر – القاهرة – ٢٠٠٤ – ص ٣٥٦، ود. أحمد إبراهيم حسن – تاريخ القانون المصري (مع دراسة في نظرية الالتزامات في القانون الروماني) – دار الجامعة الجديدة – الإسكندرية – ٢٠٠٤ م – ص ٤٣١، ود. مفيد الزيدي – موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر المملوكي – دار أسامة للنشر والتوزيع – سلطنة عمان – ٢٠٠٩ م – ص ١٣٦ و٢٩٤، ود. ناصر الأنصاري – المجمل في تاريخ مصر: النظم السياسية والإدارية – الطبعة الأولى – دار الشروق – القاهرة – ١٩٩٣ م – ص ١٧٠ و١٨٩، ود. أحمد إبراهيم حسن ود. فايز محمد حسين – أصول تاريخ القانون في مصر في العصرين الإسلامي والحديث – دار المطبوعات الجامعية – الإسكندرية – ٢٠١٠م– ص١١٢، ود. محمد الزحيلي – تاريخ القضاء في الإسلام – الطبعة الأولى – دار الفكر المعاصر – دمشق – ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م – ص٤٢٦ وما بعدها، ود. حسن إبراهيم حسن ود. علي إبراهيم حسن – النظم الإسلامية – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – بدون عام نشر – ص١٠٤، ود. سيد محمد السيد محمود – تاريخ الدولة العثمانية (النشأة، الازدهار): وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة– ط١– مكتبة الآداب – القاهرة –١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧ م– ص٢٤٢، ود. محمود السقا – فلسفة وتاريخ القانون المصري ومراحل تطوره– المعهد العالي للدراسات الإسلامية – القاهرة – بدون عام نشر – ص ٢٩٥، ود. محمد صبري – صفحات من تاريخ مصر: من محمد علي إلى العصر الحديث (١٣) – ط٢ – مكتبة مدبولي – القاهرة – ١٤١٧ ه/ ١٩٩٦ م – ص١٩ وما بعدها، ود. توفيق الطويل – السلسلة الفلسفية والاجتماعية (٣): التصوف في مصر إبان العصر العثماني – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٦م – ص ١٨، ود. محمود شاكر – التاريخ الإسلامي (٨): العهد العثماني– =

ط٤ – المكتب الإسلامي – القاهرة- ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م – ص ١٠١ و٥٠٢، وأ. محمد فريد – تاريخ الدولة العلية العثمانية – ط٢- مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة - ٢٠١٤- ص ١٥ وما بعدها و٥٠ و١٠٤ وما بعدها، ويواقيم ميخائيل – تاريخ القانون في مصر- مطبعة مصر – القاهرة – ١٨٩٩ م – ص٥٥، ود. صلاح أحمد هريدي - الجاليات الأوربية في الإسكندرية في العصر العثماني: دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية (٩٢٣ – ١٢١٣ هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨ م) – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية - ١٩٨٩- ص ١٩، ود. أحمد السيد الصاوي – نقود مصر العثمانية: (١) التداول النقدي – مركز الحضارة العربية – القاهرة – ٢٠٠١- ص١١، وأندريه ريمون – المدن العربية الكبرى في العصر العثماني – ترجمة / لطيف فرج – ط١- دار الفكر للدراسات والنشر – القاهرة – ١٩٩١ – ص٢١، ود. محمد حرب – سلسلة دراسات عثمانية (١): العثمانيون في التاريخ والحضارة – المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي – القاهرة – ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م – ص ٢٥ وما بعدها، ود. كليب سعود الفواز – المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين والعثمانيين ١٩٠٨- ١٩١٨ م (دراسة تحليلية) -بدون ناشر – ١٩٩٧ – ص٢٢، ويلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية –– المجلد الأول- ترجمة / عدنان محمود سلمان – مراجعة وتنقيح د.محمود الأنصاري- منشورات مؤسسة فيصل للتمويل – تركيا – ١٩٨٨ – ص٢٢٦ وما بعدها و٢٢٩، وأ. محمد خير فلاحة – الخلافة العثمانية من المهد إلى اللحد: دراسة موضوعية- بدون ناشر – بدون عام نشر – ص٤٥ وما بعدها، وخليل إينالجيك – تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار – ترجمة د. محمد .م. الأرناؤوط – ط١- دار المدار الإسلامي- بيروت – ٢٠٠٢ – ص٥٥ وما بعدها، وأ. جرجي زيدان – مصر العثمانية – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة – ٢٠١٢ – ص٣١، ود. عمر حافظ شريف – نظم الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية – معهد الدراسات الإسلامية – القاهرة – ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م – ص٢٩٨، ود. عويضة بن متيريك الجهني – سلطة أشراف مكة ونفوذهم في المدينة المنورة خلال القرن العاشر الهجري السادس الميلادي – مجلة الجمعية التاريخية السعودية – قسم التاريخ – جامعة الملك سعود – المملكة العربية السعودية – س ٨ – ع ١٦ – نوفمبر / ذو القعدة – ٢٠٠٧ م – ص٧٢، ود. أحمد فؤاد متولي – الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق التركية والعربية المعاصرة له – ط١ – دار الزهراء للطباعة والنشر – القاهرة – ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٥ م – ص١٩٠ وما بعدها، ود. أحمد عبد الرحيم مصطفى – في أصول التاريخ العثماني – ط٣- دار الشروق – القاهرة –١٤٠٦ ه/ ١٩٨٦ م – ص٨٥، ود. زياد حمد الصميعي ود. جمال الدين فالح الكيلاني – تاريخ الدولة العثمانية: رجال وحوادث " عرض موجز " – ط١- المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم - فاس – ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣ م – ص٦٣ وما بعدها، وإبراهيم بك حليم – التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية – مطبعة ديوان عموم الأوقاف – القاهرة – ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥ م – ص٨١ وما بعدها، ود. تركي صالح الشنيفي – الخلافة العثمانية: المفهوم والشرعية – دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة - الرياض- مج ٤٦- ع ١٢- مايو / جمادى الآخر -١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١م – ص٧٠٧، ود. رأفت غنيمي حفني الشيخ – مصر وتركيا مسيرة حضارية مشتركة – مؤتمر " المظاهر الحضارية المشتركة بين تركيا والعرب " – الجمعية العربية التركية للحوار والثقافة والفنون بأنقرة بالتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة قناة السويس- الإسماعيلية – مارس =

– ٢٠٠٩ – ص٢١، ود. زينب جمال الدين – مصر عظمة الإنسان والزمان والمكان – المجمل في تاريخ مصر: الدولة العثمانية – مجلة أبناء الوطن في الخارج – الهيئة العامة للاستعلامات – القاهرة – الحلقة ١٤ – عدد ٣٦- ٢٠١٧م – ص٤١ وما بعدها، وإيرينا بتروسيان – الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية – مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث – دبي- ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦ م – ص١٣٦ وما بعدها، وأ. عمر الإسكندري والميجرا .ج . سفدج – تاريخ مصر إلى العصر العثماني: مع نبذ في أخبار الأمم التي ارتبطت بمصر إلى ذلك العهد – مطبعة المعارف – القاهرة – ١٣٣٨ هـ/ ١٩٢٠ م – ص ١٣ وما بعدها و٢٤٤، ود. عمر الاسكندري ود.سليم حسن – تاريخ مصر من العصر العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر – مراجعة / أ.ج سفدج – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة – ٢٠١٤ – ص ١٣ وما بعدها، ود. عليان عبد الفتاح الجالودي – التحولات الفكرية في العالم الإسلامي من القرن العاشر الهجري إلى القرن الثاني عشر الهجري – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الأردن – ٢٠١٤ – ص٢١، ود. أحمد فؤاد متولي ود. هويدا محمد فهمي – تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي – ط١ – دار إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠٠٢ م – ص٨ وما بعدها و١٩٤ وما بعدها، ود. فايز محمد حسين – تاريخ القانون: القانون الروماني والواقع الاجتماعي في مصر الرومانية، تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر، تكوين النظام القانوني المصري الحديث – دار المطبوعات الجامعية – الإسكندرية – ٢٠١٤ – ص ٣٥٦، ود. محمد صبري الدالي – فقهاء وفقراء: اتجاهات فكرية وسياسية في مصر العثمانية – مركز تاريخ مصر المعاصر – دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة – ٢٠١٠ م – ص٥٥ وما بعدها، ود. إبراهيم حسنين – سلاطين الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط – دار التعليم الجامعي – الإسكندرية – ٢٠١٤م – ص٢٢٥ وما بعدها، ود. الصفصافي أحمد المرسي – الدولة العثمانية والولايات العربية – مجلة الدارة – الرياض – ع ٤ – س ٨ – ١٩٨٠ – ص٧٤، ود. ماجدة صلاح مخلوف – الخدمات والمرافق العامة في مكة في العهد العثماني (٩٢٣-١٣٣٥ هـ/ ١٥١٧ – ١٩١٦ م) – دار ندوة مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية – ١٤٢٦ ه/ ٢٠٠٥ م – ص ١٥٣، ود.نزار قازان – سلاطين بني عثمان: بين قتال الإخوة وسلطة الإنكشارية- ط١ – دار الفكر اللبناني – بيروت – ١٩٩٢ م – ص٤٧ وما بعدها، ود. محمد أحمد الثقفي – زواج السلاطين العثمانيين من الأجانب وأثره في إضعاف الدولة – رسالة ماجستير – قسم التاريخ – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ١٤٣١ هـ/ ٢٠٠٩ م – ١٥ وما بعدها، ود. رفعت موسى محمد – الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية – ط١ – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ – ص٢٠، ود. جلال يحيى – مصر الحديثة ١٥١٧ – ١٨٠٥ م – منشأة المعارف – الإسكندرية – بدون عام نشر – ص ١٠ وما بعدها و٨٦ وما بعدها و١٠٢ وما بعدها و٢٤٩ وما بعدها، ود. محمد صبري – صفحات من تاريخ مصر (١٣): تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث – ط٢ – مكتبة مدبولي – القاهرة –١٤١٧ه/ ١٩٩٦ م – ص١٩ وما بعدها، ود. محمود محمد الحويري – تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى – ط١ – المكتب المصري لتوزيع المطبوعات – القاهرة – ٢٠٠٢ – ص٢١٨ وما بعدها، ود. مفيد الزيدي – موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر العثماني – دار أسامة للنشر والتوزيع – سلطنة عمان – ٢٠٠٣ م – ص٣٠ وما بعدها، ود. سيد محمد السيد – مصر في العصر العثماني في القرن ١٦: دراسة وثائقية في =

وقد شهدت مصر خلال فترة خضوعها للدولة العثمانية (١٥١٧–١٩١٤م) تطورات إدارية مهمة أسهمت في تشكيل البناء المؤسسي للدولة والمجتمع، وقد اتسم النظام الإداري العثماني بقدر

النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية – ط١ – مكتبة مدبولي – القاهرة – ١٤١٨ ه/ ١٩٩٧ م –ص ٦٧ وما بعدها و٨٣ وما بعدها، ود. جنان خضير منصور الجنابي – أحوال الدولة العثمانية (٨٥٥– ١١٦٤ هـ/ ١٤٥١–١٧٥٠م) من خلال النقود: دراسة تاريخية – رسالة دكتوراه – قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة اليرموك- الأردن – ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥ م – ص٢٢٢ وما بعدها و٢٨٧، ود. محمود شاكر – التاريخ الإسلامي (٨): العهد العثماني – ص٤٦٤ وما بعدها، ود. سهيل صابان – المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية العثمانية – مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض – ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م – ص٢٠٧، ود.فراج سيد فراج ود. حسين أنور جمعة – ملامح البناء الاجتماعي في كل من تركيا ومصر – دراسة سسيو تاريخية مقارنة – ورقة بحث – مؤتمر المظاهر الحضارية المشتركة بين تركيا والعرب – كلية الآداب - جامعة قناة السويس- الإسماعيلية – ١٥ مارس – ٢٠١٠ م – ص ١٥٦ وما بعدها، ود. عبد العزيز الشناوي – الدولة العثمانية دولة مفترى عليها- ج١ – ط١- مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة – ١٩٨٠ – ص٢٠ وما بعدها، ود. محمد سهيل طقوش – تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة – ط٣– دار النفائس للنشر والتوزيع – بيروت – ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣ م – ص١٦٥ وما بعدها، ود. محمود ثابت الشاذلي – المسألة الشرقية: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩ م–١٩٢٣ م – ط١- مكتبة وهبة – القاهرة – ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م- ص٧٤ وما بعدها، ود. نادية محمود مصطفى وآخرون – مشروع العلاقات الدولية في الإسلام (١١): العصر العثماني من القوة والهيمنة وبداية المسألة الشرقية – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – القاهرة – ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م – ص٨ وما بعدها، ود. عماد عبد الرؤوف الرطيل – الطب والعلاج في مصر العثمانية وعهد محمد علي – دار الجمهورية للصحافة – القاهرة – بدون عام نشر – ص ١٩ وما بعدها، ود. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة - ١٩٩٠– ص٢٥٦ وما بعدها، ود. عبد الرازق إبراهيم عيسى – تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ – ١٧٩٨ م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة – ١٩٩٨ م – ص٩ وما بعدها، وأ. جرجي زيدان – مصر العثمانية – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة – ٢٠١٢ م – ص٣٧ وما بعدها، وعبد الرحمن بن حسن الجبرتي – عجائب الآثار في التراجم والأخبار – ج١ - تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – تقديم د. عبد العظيم رمضان – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٩٩٨- ص٣٦ وما بعدها، وميكل ونتر – المجتمع المصري تحت الحكم العثماني – ترجمة / إبراهيم محمد إبراهيم – مراجعة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠١ – ص٤٣ وما بعدها و٥١، ود. علي محمد الصلابي – الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط – ج١ – ط١- دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة - ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م – ص ١٨٨ وما بعدها، ويلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية- المجلد الثاني- ترجمة / عدنان محمود سلمان – مراجعة وتنقيح د.محمود الأنصاري –منشورات مؤسسة فيصل للتمويل – تركيا – ١٩٨٨ –ص٨٣٢ وما بعدها، ود. تيسير جبارة – تاريخ الدولة العثمانية (١٢٨٠– ١٩٢٤ م) – جامعة القدس المفتوحة – رام الله – ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥ م – ص ١٠٢ و١٣٤وما بعدها

من التنظيم القائم على المركزية المرتبطة بالعاصمة إسطنبول، مع وجود إدارة إقليمية ومحلية تتولى شؤون الولاية، وتبرز أهمية دراسة المبادئ الإدارية في مصر العثمانية في الكشف عن الأسس التنظيمية التي حكمت العلاقة بين السلطة المركزية والإدارة المحلية، وكيف انعكس ذلك على الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي في البلاد، وفي تلك الدراسة حاولت الإشارة إلى أهم مبادئ الإدارة العامة في مصر خلال العصر العثماني خلال الفترة من عام ١٥١٧ م (الغزو العثماني لمصر) حتى عام ١٩١٤ م (إعلان الحماية البريطانية على مصر)، وذلك من خلال الأفكار الآتية:

أولا: مبدأ الربط الإداري بين الإدارة المركزية والإدارة الإقليمية

ثانيا: مبدأ التدرج الإداري

ثالثا: مبدأ التقسيم الإداري المحلي لولاية مصر العثمانية

وفيما يلي شرح لكل فكرة مما سبق

أولا: مبدأ الربط الإداري بين الإدارة المركزية والإدارة الإقليمية

ربط العثمانيون بين النظام الإداري المركزي في الدولة العثمانية وبين النظام الإداري المحلي في ولاية مصر التابعة لهم، وذلك ضماناً للآتي: -

أولا: ضمان تبعية ولاية مصر للدولة العثمانية في القسطنطينية من الناحيتين العسكرية والسياسية، وذلك تأكيداً لسيادة الدولة العثمانية، فأحكمت الإدارة المركزية العثمانية قبضتها على مجريات الأمور الإدارية في ولاية مصر.

ثانيا: استغلال موارد مصر الاقتصادية، حيث عمل العثمانيون على جمع الضرائب من المصريين لإثراء خزانة الباب الإمبراطورية العثمانية، وتمويل الحروب التي خاضها العثمانيون في كافة أنحاء العالم(١)، كما استولوا على الأراضي المصرية

(١) د. إيمان السيد عرفة محجوب – النظام الإداري في الدولة الإسلامية بين الفكر والتطبيق – مجلة البحوث القانونية والاقتصادية – كلية الحقوق – جامعة المنوفية- شبين الكوم – مج ١٣ – ع ٢٥- إبريل – ٢٠٠٤ م – ص ٢٨٥، ود. محمد بن عبد الله آل زلفة – الإصلاحات العمرانية في الولايات العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني على ضوء الوثائق والصور الفوتوغرافية – الطبعة الأولى – دار بلاد العرب للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية – ١٤٣٣ هـ/ ٢٠١٢م- ص ٥، ود. رائد سامي حميد الدوري – الدولة العثمانية في عهد السلطان " مراد الأول " ٧٦٠- ٧٩١ هـ/ ١٣٥٩ – ١٣٨٩ م- رسالة دكتوراه – قسم التاريخ- كلية التربية – جامعة تكريت – العراق - ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١ م - ص٤٠ وما بعدها، ود. أحمد السيد الصاوي – نقود مصر العثمانية: (١) التداول النقدي – مركز الحضارة العربية – القاهرة – ٢٠٠١-ص ٨٦، ود. أحمد فؤاد متولي – الفتح =

باعتبارها ملكًا لهم، وقد سيطر السلطان «سليم الأول» على كل أراضي مصر، وخلفه ابنه «سليمان القانوني» الذي فك زمام القطر المصري وأعاد تنظيم سجلات المساحة التي اسماها بـ«الترابيع» ليثبت ملكيته لكل أراضي مصر(١)، حيث أصبحت مصر جزء من أراضي الإمبراطورية العثمانية التي تعتبر

العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق التركية والعربية المعاصرة له – ص٩٠ وما بعدها، وخليل إينالجيك – تكون رأس المال في الإمبراطورية العثمانية – ترجمة د. عقيل محمد البربار – مجلة البحوث التاريخية – المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية – ليبيا – مج٣٢–ع٢– يوليو – ٢٠١٠– ص١٧، ود. أحمد فؤاد متولي ود. هويدا محمد فهمي – تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي– ص ٢٠١ وما بعدها، ود. فايز محمد حسين – تاريخ القانون: القانون الروماني والواقع الاجتماعي في مصر الرومانية، تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر، تكوين النظام القانوني المصري الحديث – ص ٣٥٦، ود. السيد العربي حسن – الأصول التاريخية للقانون المصري القديم– ص ٣٩٦، و د. محمد نور فرحات – التاريخ الاجتماعي للقانون في مصر الحديثة والعصر العثماني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠١٢ – ص١٣٥، ود. محمد محمود السروجي – مصر والمسألة الشرقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر– مطبعة المصري – الإسكندرية – ١٩٦٦ م– ص١١٠ وما بعدها، ود. توفيق علي برو – العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ – ١٩١٤ م – رسالة ماجستير – معهد الدراسات العربية العالية – جامعة الدول العربية – القاهرة – ١٩٦٠م – ص١، ود. جلال يحيى – مصر الحديثة ١٥١٧ – ١٨٠٥ م – ص ١٥ وما بعدها، ود. مفيد الزيدي – موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر العثماني – ص٢٨ وما بعدها، وميكل ونتر – المجتمع المصري تحت الحكم العثماني – ص ٨٩ وما بعدها

(١) د. أحمد إبراهيم حسن – تاريخ القانون المصري (مع دراسة في نظرية الالتزامات في القانون الروماني) – ص ٥٥٠، ود. عبد المنعم ماجد – نظم دولة سلاطين المماليك – الجزء الأول – ص ٨٧ وما بعدها، ود. بشري ناصر هاشم الساعدي – شريعة قتل الإخوان وأثرها في نظام حكم آل عثمان ١٥٢٠ –١٦١٧ م – مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية – مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية – جامعة بابل – العراق – مج١–ع٢– كانون الأول –٢٠١١– ص٢٦، ود. أماني بنت جعفر بن صالح الغازي – دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية: الجيش الجديد– دار القاهرة – القاهرة – ٢٠٠٧– ص٢٤١، ود.عبد الجليل التميمي – دراسات في التاريخ العربي العثماني – مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات – سيرمدي ١٤٥٣ هـ/ ١٩١٨ م – زغوان / تونس – ١٩٩٤ –١٤٥٣ هـ/ ١٩١٨ م – ص٩٤، ود. عوض عبد الهادي عطا – العثمانيون في البحر الأحمر– مجلة دراسات أفريقية – مركز البحوث والدراسات الإفريقية – جامعة أفريقيا العالمية– الخرطوم – ع ٣٧– يونيو / جمادى الأولى – ٢٠٠٧– ص٨٤، ود. عبد العظيم احمد عبد العظيم – التقسيم الإداري لمصر العليا في العصر العثماني– مؤتمر " العلاقات الإفريقية التركية " – المحور الأول – مركز البحوث والدراسات الإفريقية – جامعة أفريقيا العالمية – السودان – أكتوبر – ٢٠١٧– ص ٢١، ود. عبد الجليل التميمي وآخرون – الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني – منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات – تونس – مارس – =

بمثابة ضيعة كبرى مملوكة لآل عثمان، ومصدر هام من مصادر الدخل القومي بالنسبة للإمبراطورية العثمانية(١)، حيث قام العثمانيون بتمويل جيشهم ومؤسساتهم الوقفية في بعض الولايات مثل الشام والحجاز من خزانة مصر(٢)، ومما يؤكد ذلك المعنى أيضاً عودة السلطان «سليم الأول» من مصر

١٩٨٨ – ص١١١، ود. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني – ص ٢٠وما بعدها، ود. جلال يحيى – مصر الحديثة ١٥١٧ – ١٨٠٥ م – ص ١٩٥ وما بعدها، ود. سيد محمد السيد – مصر في العصر العثماني في القرن ١٦: دراسة وثائقية في النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية – ص ١٩٦ وما بعدها، وبيتر شوجر – أوروبا العثمانية ١٣٥٤ – ١٨٠٤م: في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة – ترجمة / عاصم الدسوقي – ط ١ – دار الثقافة الجديدة – القاهرة – ١٩٩٨ م – ص٤٩، ود. مفيد الزيدي – موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر العثماني – ص١١٣وما بعدها

(١) د. أحمد إبراهيم حسن – تاريخ القانون المصري (مع دراسة في نظرية الالتزامات في القانون الروماني) – ص ٥٥٠، ود. عبد المنعم ماجد – نظم دولة سلاطين المماليك – الجزء الأول – ص ٨٧ وما بعدها، ود. بشري ناصر هاشم الساعدي – شريعة قتل الإخوان وأثرها في نظام حكم آل عثمان ١٥٢٠ -١٦١٧ م – مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية – مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية – جامعة بابل – العراق – مج١-ع٢- كانون الأول -٢٠١١- ص٢٦، ود. أماني بنت جعفر بن صالح الغازي – دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية: الجيش الجديد- ص٢٤١، ود.عبد الجليل التميمي – دراسات في التاريخ العربي العثماني – مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات - سيرمدي-١٤٥٣ هـ/ ١٩١٨ م - ص٩٤، ود. عوض عبد الهادي عطا – العثمانيون في البحر الأحمر- مجلة دراسات أفريقية – مركز البحوث والدراسات الإفريقية – جامعة أفريقيا العالمية- الخرطوم – ع ٣٧- يونيو / جمادى الأولى – ٢٠٠٧- ص٨٤، ود. عبد العظيم احمد عبد العظيم - التقسيم الإداري لمصر العليا في العصر العثماني- مؤتمر " العلاقات الإفريقية التركية " – المحور الأول – مركز البحوث والدراسات الإقريقية – جامعة أفريقيا العالمية – السودان – أكتوبر – ٢٠١٧- ص ٢١، ود. عبد الجليل التميمي وآخرون – الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني –ص١١١، ود. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني - ص ٢٠وما بعدها، ود. جلال يحيى – مصر الحديثة ١٥١٧ – ١٨٠٥ م - ص ١٩٥ وما بعدها، ود. سيد محمد السيد - مصر في العصر العثماني في القرن ١٦: دراسة وثائقية في النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية – ص ١٩٦ وما بعدها، وبيتر شوجر – أوروبا العثمانية ١٣٥٤ – ١٨٠٤م: في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة – ص٤٩، ود. مفيد الزيدي – موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر العثماني – ص١١٣وما بعدها

(٢) د. السيد العربي حسن – الأصول التاريخية للقانون المصري القديم- ص ٣٩٦، ود. فايز محمد حسين – تاريخ القانون: القانون الروماني والواقع الاجتماعي في مصر الرومانية، تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر، تكوين النظام القانوني المصري الحديث – ص ٣٥٦، ود. محمد نور فرحات – التاريخ الاجتماعي للقانون في مصر الحديثة والعصر العثماني – ص١٣٥، ود. =

إلى الأستانة ومعه غنيمة بلغت ألف جمل محمل بالذهب والفضة بجانب مجموعة كبيرة من التحف والأسلحة والأواني النحاسية والخيل والبغال(١)، بجانب ذلك كله عمل العثمانيون على ربط الاقتصاد المصري بالاقتصاد التركي في علاقة تبعية تجعل كل منهما يتأثر بتقلبات الآخر(٢).

ثالثا: استغلال موارد مصر البشرية، حيث سخّر العثمانيون المصريين - على اختلاف مناصبهم - في الأعمال المدنية والقيام بمشروعات تنموية تعميرية مثل مشروعات إنشاء المستشفيات والمعاهد وخطوط السكك الحديد(٣)، وقاموا بتجنيدهم في الجيش العثماني للدفاع عن الكيان العثماني الحاكم، كما قاموا بسد العجز الإداري في الجيش العثماني والمؤسسات الوقفية والإدارية والعلمية في الأستانة وبعض الولايات مثل الشام والحجاز والمغرب من أفراد الشعب المصري بمن في ذلك الشعب من علماء وجنود وإداريين وسياسيين(٤).

ثانيا: مبدأ التدرج الإداري

يقصد بمبدأ التدرج الإداري «تنظيم المناصب العامة واختصاصاتها ودرجاتها في شكل سلم إداري هرمي بشكل تنازلي بحيث يكون أعلى هذه المناصب في أعلى السلم الإداري في حين تكون

أحمد السيد الصاوي – نقود مصر العثمانية: (١) التداول النقدي – ص ١٣، وميكل ونتر – المجتمع المصري تحت الحكم العثماني – ص ٨٩ وما بعدها، ويلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية- المجلد الثاني- ص ٤١٠وما بعدها

(١) د. توفيق الطويل – السلسة الفلسفية والاجتماعية (٣): التصوف في مصر إبان العصر العثماني- ص٢١، ود. رأفت غنيمي حفني الشيخ – مصر وتركيا مسيرة حضارية مشتركة-ص٢٨ وما بعدها

(٢) د. راشد البراوي ود. محمد حمزة عليش – التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث – ط ٤- مكتبة دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٤٩- ص ٤٠، ود. أحمد السيد الصاوي – نقود مصر العثمانية: (١) التداول النقدي – ص ١٢، ود. نللي حنا – مصر العثمانية والتحولات العالمية ١٥٠٠ – ١٨٠٠ م – ط١- ترجمة / مجدي جرجس – المركز القومي للترجمة – القاهرة – ٢٠١٦ م – ص٢٧ وما بعدها، ود. تيسير جبارة – تاريخ الدولة العثمانية (١٢٨٠- ١٩٢٤ م) – ص١٩١وما بعدها

(٣) د. محمد بن عبد الله آل زلفة – الإصلاحات العمرانية في الولايات العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني على ضوء الوثائق والصور الفوتوغرافية – ص ٢٢، ود. عوض عبد الهادي عطا – العثمانيون في البحر الأحمر- ص٨٣

(٤) د. السيد العربي حسن – الأصول التاريخية للقانون المصري القديم- ص ٣٩٦، ود. فايز محمد حسين – تاريخ القانون: القانون الروماني والواقع الاجتماعي في مصر الرومانية، تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر، تكوين النظام القانوني المصري الحديث – ص ٣٥٦، ود. محمد نور فرحات – التاريخ الاجتماعي للقانون في مصر الحديثة والعصر العثماني – ص١٣٥، ود. أحمد السيد الصاوي – نقود مصر العثمانية: (١) التداول النقدي – ص ١٣، وميكل ونتر – المجتمع المصري تحت الحكم العثماني – ص ٨٩ وما بعدها، ويلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية- المجلد الثاني- ص ٤١٠وما بعدها

أدنى المناصب في أسفل السلم الإداري مرورا بالمناصب التي يكون موضعها في منتصف السلم الإداري»(١)، وقد أخذت الإدارة المصرية العثمانية بهذا المبدأ

بالنسبة للتدرج الرئاسي: - خضع كل شاغل منصب إداري عام لسلسلة رؤساء أعلى منه درجة في السلم الإداري، فخضع الصدر الأعظم ووزرائه لرئاسة السلطان العثماني، وكذلك خضع البكوات ورئيسهم شيخ البلد لرئاسة الباشا حاكم الولاية التي يعملون في نطاقها(٢)

وبالنسبة للتدرج الإقليمي: - تبع شاغلو مناصب الإدارة المحلية المصرية رؤسائهم في الإدارة المركزية في إستانبول، فخضع الوالي ومعاونوه والبكوات لرئاسة السلطان العثماني والصدر الأعظم وشيخ الإسلام في حكومة الباب العالي المركزية.

أما عن التدرج التشريعي: - فكانت الشريعة الإسلامية بمثابة الدستور العام للبلاد، يليها فتاوى شيخ الإسلام المفسرة أو المطبقة للشريعة الإسلامية، ثم قوانين نامة الثابتة والمستقرة، ثم الفرمانات السلطانية، ثم أوامر السلطان الأعظم وقرارات كبار شاغلي المناصب العامة في الدولة، ثم منشورات الولاة في الولايات العثمانية، مما يعني وجود سلم قانوني في الدولة العثمانية يقضي بعدم جواز مخالفة القاعدة القانونية الأدنى لأي قاعدة قانونية أعلى منها في الدرجة(٣)، وهذا ما يؤكده مضمون فرمان السلطان «سليم الثاني» لكبار شاغلي المناصب العامة حين دخلوا جزيرة قبرص والذي جاء فيه:

«.... أصدرت أمري بأن تتبعوا أسلوب التدريج والعدل في تطبيقكم لأحكام الشرع...»(٤)

---

(١) المعنى نفسه عند د.أشرف إبراهيم سليمان – مبادئ علم الإدارة والعمل الشرطي: دراسة تطبيقية على أعمال الأمن– الطبعة الأولى – المركز القومي للإصدارات القانونية – القاهرة – ٢٠١٥ م – ص ٥٦ وما بعدها

(٢) أندريه ريمون – المدن العربية الكبرى في العصر العثماني- ص٢٤ وما بعدها، ويلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية- المجلد الأول – ص١٨، ورب ريتشارد – الشريعة والقانون في العصر العثماني – دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر- بيروت- ع٢ – شتاء- ١٩٨٩م – ص١٥٦ وما بعدها

(٣) أندريه ريمون – المدن العربية الكبرى في العصر العثماني- ص٢٤ وما بعدها، ويلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية- المجلد الأول – ص١٨، ورب ريتشارد – الشريعة والقانون في العصر العثماني- ص١٥٦ وما بعدها

(٤) نقلا عن د. إبراهيم أحمد عيسى وآخرون – التاريخ كما كان- دار كتوبيا للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠١٦- ص٢١٨، ود. عارف خليل أبو عيد ود. أورهان جانبولات – قوانين نامة في الدولة العثمانية دوافعها، أهدافها، آثارها – مجلة دراسات – كلية الشريعة والقانون – الجامعة الأردنية – الأردن– المجلد الأول – ع ١ – عام ٢٠١٢ م – ص٣١١

وفرمان السلطان «سليمان القانوني» الذي أكد على أن الشريعة العامة هي دستور الإمبراطورية العثمانية، حيث جاء فيه:

«إن القانون نامة السلطاني يتفق مع الشريعة الشريفة»(١)

يضاف إلى ذلك التدرّج العرقي حيث اعتلى الأتراك أعلى الهرم الإداري في الإدارة المركزية (حكومة الباب العالي) وفي ولاية مصر أيضاً، فشغلوا المناصب العامة المركزية في إستانبول مثل السلطنة والصدارة ومشيخة الإسلام والدفتردارية والخازندارية، كما شغلوا المناصب العامة المحلية الأساسية في ولاية مثل مناصب الوالي ومعاونيه كالكتخدا والخازندار والمهردار، وتلاهم في مصر طبقة المماليك التي تكونت من مجموعة من شاغلي المناصب العامة متعددي الجنسيات من التُرك والفرس والعرب، وشكّل المصريون الطبقة الدُنيا التي شغلت المناصب الإدارية المُدرجة في أسفل الهرم الإداري في ولاية مصر باستثناء بعض العلماء والقضاة الذين انتُدبوا للعمل في مناصب إدارية عامة مرموقة في الأستانة وباقي الولايات العثمانية (٢)،

---

(١) نقلا عن د. جمال عبد الهادي محمد وآخرون – تاريخ الأمة الواحدة: صفحات من تاريخ الدولة العثمانية (٦٩٩ -١٣١٤ هـ/ ١٢٩٩ – ١٩٢٤ م) – دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة - بدون عام نشر – ص٤٤، ود. مفيد الزيدي – موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر العثماني – ص١٠١ وما بعدها، ود. عبد العزيز الشناوي – الدولة العثمانية دولة مفترى عليها – ج١– ص٥٦ وما بعدها

(٢) بيتر شوجر – أوروبا العثمانية ١٣٥٤ – ١٨٠٤م: في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة – ص٢٠، ود. فاتح رجب قدارة – الدولة العثمانية في آثار الشيخ الطاهر الزاوي – المجلة الجامعة – قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الزاوية – ليبيا – ع ١٦ – مجلد ٤– نوفمبر – ٢٠١٤– ص ١٤، ود. أصلي سنجر – المرأة العثمانية بين الحقائق والأكاذيب – ترجمة / سمير زهران – دار النيل للطباعة والنشر – القاهرة -٢٠١٣م – ص ٥٩، ود.عبد الجليل التميمي – دراسات في التاريخ العربي العثماني – ص٨٩ وما بعدها، ود.ناصر الأنصاري – المجمل في تاريخ مصر: النظم السياسية والإدارية – ص١٩٥، ود. مصطفى بركات – الألقاب والوظائف العثمانية: دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إنهاء الخلافة الإسلامية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات) ١٥١٧- ١٩٢٤ م – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠٠٠ م – ص٣٤٣ وما بعدها، ود. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني - ص ٢٨٠وما بعدها، ود. جلال يحيى – مصر الحديثة ١٥١٧ – ١٨٠٥ م - ص ١٨٠ وما بعدها، ود. سعد تامر الحميدي – الصراع بين القوميتين العربية والتركية وأثره في انهيار الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين - ط١- بدون ناشر - الدوحة – ٢٠١١ – ص١٤٩ و١٦٩ وما بعدها، ود. عبد الرؤوف سنو - النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية ١٨٧٧–١٨٨١ م: بلاد الشام، الحجاز، كردستان، ألبانيا- ط١ – دار بيسان للنشر والتوزيع – بيروت – ١٩٩٨–ص٣١

ويرجع ذلك التدرّج العرقي إلى تمييز الأتراك لأنفسهم عن باقي الأجناس في مصر، حيث أُطلق عليهم «أولاد الروم» أو «عثمانلي لر» بوصفهم أصحاب العرق الطاهر والسلالة التركية العظيمة النقية، بينما أُطلق على العرب - ومن بينهم المصريين- لقب «أولاد العرب» أو «عرب لر» بوصفهم عبيد وأرقاء لا حسب لهم ولا نسب(١)، ومما يؤكد تلك النظرة التركية المتعالية قول المفكر

(١) أوليا جلبي – سياحتنامة مصر – ترجمة / محمد علي عوني - تحقيق عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان – تقديم ومراجعة أحمد فؤاد متولي – مطبعة دار الكتب والوثائق المصرية – القاهرة – ٢٠٠٣ م – ص١٦٨و١٧٠و١٧٨ و٤٣١ وما بعدها و٤٣٤و٦٠٩، ود. زياد حمد الصميعي ود. جمال الدين فالح الكيلاني – تاريخ الدولة العثمانية: رجال وحوادث " عرض موجز " – ص١١٢، ود. ناصر أحمد إبراهيم – فصول من التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة – مكتبة النصر للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠١١م – ص٥٧ وما بعدها و٦١، ود.عبد الجليل التميمي – دراسات في التاريخ العربي العثماني – ص٨٩ وما بعدها، ود. تركي صالح الشنيفي – الخلافة العثمانية: المفهوم والشرعية- ص٧١٣، ود. زينب جمال الدين – مصر عظمة الإنسان والزمان والمكان - المجمل في تاريخ مصر: الدولة العثمانية- ص٤٣ وما بعدها، ود. سعد تامر الحميدي – الصراع بين القوميتين العربية والتركية وأثره في انهيار الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين – ص٦٧، ود. عوض عبد الهادي عطا – العثمانيون في البحر الأحمر- ص٨٨، ود. محمد صبري الدالي – فقهاء وفقراء: اتجاهات فكرية وسياسية في مصر العثمانية –ص٩٥، ود. سهيل صابان – المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية العثمانية- ص١٢٨ وما بعدها، ود. عبد الجليل التميمي وآخرون – الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني – ص٢١٣ وما بعدها ود. توفيق علي برو – العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ – ١٩١٤ م – ص٤، ود.ناصر الأنصاري – المجمل في تاريخ مصر: النظم السياسية والإدارية – ص١٩٤، ود. أحمد آق كوندوز ود. سعيد أوزتورك – الدولة العثمانية المجهولة: ٣٠٣ سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية - وقف البحوث العثمانية - إسطنبول - ٢٠٠٨ – ص ١٨٥ وما بعدها، ود. محمد الناصر النفزاوي – التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية (١٨٣٩- ١٩١٨ م)- ط١ – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – تونس – إبريل – ٢٠٠١ – ص٢٣٤ وما بعدها، ود. سيد محمد السيد محمود – تاريخ الدولة العثمانية (النشأة، الازدهار): وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة- ص٢٥، ود. محمود محمد الحويري – تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى – ص١٢ وما بعدها، ود. تيسير جبارة – تاريخ الدولة العثمانية (١٢٨٠- ١٩٢٤ م) – ص ٦٢، وأندريه ريمون – المدن العربية الكبرى في العصر العثماني- ص٥٥ وما بعدها، ود. محمود شاكر – التاريخ الإسلامي (٨): العهد العثماني – ص١٨٥ وما بعدها، ود. محمود ثابت الشاذلي – المسألة الشرقية: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩ م-١٩٢٣ م – ص٩١ وما بعدها، ود. أكمل الدين إحسان أوغلي – الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي – ج ١– ط١- تقديم أ. رجب طيب أردوغان – تعريب د. صالح السعداوي- ط١ – دار الشروق – القاهرة – ٢٠١١ م – ص٣ وما بعدها و١٠ وما بعدها، وميكل ونتر – المجتمع المصري تحت الحكم العثماني – ص ٢٣ وما بعدها، ود. علي محمد الصلابي – الدولة =

«ضيا كوك ألب» الذي مفاده:

«يلزم أن يكون القائمون على الأمر في الوطن والحكومة من الترك، ويفخرون بذلك.. أوصي أمتي التركية العزيزة بألا تهمل للحظة تفحص الجوهر الأصلي في دماء ووجدان الرجال الذين تربيهم في أحضانها وترفعهم على رأسها»(١)

ويضاف إلى ما ذُكر التدرج الديني حيث شغل أغلب المسلمين قمة الهرم الإداري يليهم المسيحيين ثم اليهود ثم أصحاب الديانات الأخرى(٢)، فمنذ عام ١٥٢٠م حتى عام ١٥٣٠ م،

العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط – ج٢- مكتبة حسن العصرية – بيروت -١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م- ص٢٦٢ وما بعدها، ويلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية- المجلد الثاني- ص ٦٨وما بعدها و٥١١، ود. عبد الرازق إبراهيم عيسى – تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ – ١٧٩٨ م) – ص٢٥٠ وما بعدها، ود. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني – ص٢٨٠وما بعدها، ود. تيسير جبارة – تاريخ الدولة العثمانية (١٢٨٠- ١٩٢٤ م) – ص٨٠

(١) نقلا عن د. سعد تامر الحميدي – الصراع بين القوميتين العربية والتركية وأثره في انهيار الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين – ص١٠٩، ود. محمد حرب – سلسلة دراسات عثمانية (١): العثمانيون في التاريخ والحضارة – ص١٣١ وما بعدها، وأبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى الدميري – قضاة مصر من القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري– ط١ – تحقيق وتعليق ودراسة / عبد الرازق عبد الرازق عيسى ويوسف مصطفى المحمودي – مكتبة العربي للنشر والتوزيع – القاهرة –٢٠٠٠ م – ص٩٧ وما بعدها، ود. عبد العزيز الشناوي – الدولة العثمانية دولة مفترى عليها – ج١ – ص١٣ وما بعدها، ود. قيس جواد العزاوي – الدولة العثمانية: قراءة جديدة لعوامل الانحطاط – ط٢– الدار العربية للعلوم- بيروت – ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م- ص١٢٦ وما بعدها، ود. ثريا شاهين – دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية – ط١– ترجمة د. محمد حرب – دار المنارة للنشر والتوزيع – مكة المكرمة – ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م – ص٩٤وما بعدها، ود. أنور الجندي – تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث: السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية – ط١ – دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م – ص١١٧ وما بعدها و١٧٩ وما بعدها، ود. نادية محمود مصطفى وآخرون – مشروع العلاقات الدولية في الإسلام (١١): العصر العثماني من القوة والهيمنة وبداية المسألة الشرقية – ص٨ وما بعدها، ود. نورة عبد الله هلال البقمي – الديوان الهمايوني في الدولة العثمانية (٨٢٤-١٣٤٠ هـ/ ١٤٢١ – ١٩٢٢م): دراسة تاريخية حضارية – رسالة ماجستير – قسم التاريخ – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥م – ص١١٢ وما بعدها، ود. أحمد عبد الرحيم مصطفى – في أصول التاريخ العثماني – ص ٢٢٤وما بعدها

(٢) بيتر شوجر – أوروبا العثمانية ١٣٥٤ – ١٨٠٤م: في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة – ص٤٧ وما بعدها ود. توفيق علي برو – العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ – ١٩١٤ م – ص٤، وخليل إينالجيك – تاريخ الدولة =

بلغ عدد المسلمون ٩٥١٧ نسمة، وبلغ عدد المسيحيين ٥١٦٢ نسمة، وبلغ عدد اليهود ١٦٤٧ نسمة في مدينة إستانبول وحدها(١)، وفي مصر بلغ عدد المسلمين ١٧٥٠٠٠٠ نسمة، وبلغ عدد المسيحيين ١٥٠٠٠٠نسمة، وبلغ عدد اليهود ٥٠٠٠ نسمة(٢).

أيضا انقسم الأطباء العاملون في المستشفيات الحكومية العثمانية في القاهرة إلى: (٣)

١) طبائعيون: يعالجون الأمراض الباطنية

٢) جرائحيون: يتولون إجراء العمليات الجراحية

٣) كحالون: يعالجون أمراض العيون

٤) صيدلانيون: يتولون صناعة وتركيب وحفظ وتوزيع الأدوية والعقاقير

مما يدل على وجود مبدأي «التخصص الإداري» و«التنوع الإداري» بالنسبة للمناصب العامة الفنية في المجالات الطبية والعلاجية، وجاء منشور كلخانة ليؤكد مبدأ التخصص الإداري بشكل أوضح، وذلك في النص الذي مفاده:

»لا يجوز لأي شاغل منصب إداري أن يتعدى حدود صلاحياته الممنوحة له قانونـًا، فإن كان عسكريـًا يشتغل بالأمور العسكرية، وإن كان من العلماء يشتغل بالأمور الدينية، والواجبات الأخرى المحددة»(٤)

ثالثا: مبدأ التقسيم الإداري المحلي لولاية مصر العثمانية

حافظ العثمانيون على التقسيم الإداري الذي كان موجوداً في مصر خلال العصر الملوكي، ثم قاموا بمسح الأراضي المصرية في عام ١٥٢٦ م،

العثمانية من النشوء إلى الانحدار – ص١٠٩ وما بعدها، ود. مفيد الزيدي – موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر العثماني – ص٩٣ وما بعدها، ويلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية– المجلد الثاني– ص ٥٧وما بعدها، ود. سعد تامر الحميدي – الصراع بين القوميتين العربية والتركية وأثره في انهيار الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين – ص١٦٠ و١٦١ و١٦٣ وما بعدها

(١) الشيخ / مصطفى ملا أوغلو – حقوق الأقليات الغير مسلمة في الدولة العثمانية – الدورة ١٧ – المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث – سراييفيرا – ربيع الآخر / جمادى الأولى ١٤٢٨ ه – مايو ٢٠٠٧ م – ص١٦، ود.فراج سيد فراج ود. حسين أنور جمعة – ملامح البناء الاجتماعي في كل من تركيا ومصر – ص ١٨٩ وما بعدها

(٢) د. أكمل الدين إحسان أوغلي – الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي – ج ١ – ص٥ وما بعدها، وميكل ونتر – المجتمع المصري تحت الحكم العثماني – ص ٣٩وما بعدها و٤١٥

(٣) د. عماد عبد الرؤوف الرطيل – الطب والعلاج في مصر العثمانية وعهد محمد علي – ص٣١ وما بعدها

(٤) نقلا عن يلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية– المجلد الثاني– ص٣٣

وقسّموها إلى: خمسة مقاطعات كبرى كانت بمثابة ولايات صغرى أو أقاليم كبرى هي: الغربية وقاعدتها «المحلة الكبرى»، والدقهلية وقاعدتها «المنصورة»، والمنوفية وقاعدتها «منوف الشرقية»، والبحيرة وقاعدتها «دمنهور»، وجرجا وقاعدتها «جرجا»، ثم قسّموها إلى أقسام إدارية أصغر منها سميت باسم «الكاشفيات» بلغ عددها ٢٤ قسم، فكانت ٣ كاشفيات في مصر السفلى هي: «بلبيس» و«قليوب» و«الطرانة»، و٧ كاشفيات في مصر الوسطى هي: «إطفيح» و«الجيزة» و«الفيوم» و«بني سويف» و«المنيا» و«أشمون» ومنفلوط»، بجانب١٤ كاشفية في مصر العليا(١)، وعلى الأساس التوزيع الجغرافي والإداري للدولة العثمانية.

وقد جاء هذا التقسيم الإداري متوافقًا مع الطبيعة الجغرافية لمصر، إذ راعى العثمانيون الامتداد الطولي لوادي النيل وما يفرضه من اختلافات بيئية واقتصادية بين الوجه البحري والوجه القبلي، فكان الهدف من توزيع الكاشفيات والمقاطعات الكبرى تحقيق قدر أكبر من الضبط الإداري والمالي، ولا سيما فيما يتعلق بجمع الضرائب، وحصر الأراضي الزراعية، ومتابعة شؤون الري والزراعة التي مثلت العمود الفقري للاقتصاد المصري آنذاك. كما أسهم هذا التنظيم في تسهيل عملية الرقابة على الولاة والمسئولين المحليين، وربطهم بالسلطة المركزية في العاصمة العثمانية.

ومن ناحية أخرى، عكس هذا التقسيم مبدأ التدرج الإداري الذي اتسمت به الإدارة العثمانية، حيث خضعت الكاشفيات لإشراف المقاطعات الكبرى، وهذه بدورها خضعت لسلطة الوالي ممثل السلطان العثماني، وقد أتاح هذا البناء الهرمي وضوحًا نسبيًا في توزيع الاختصاصات والمسئوليات، الأمر الذي ساعد على إحكام السيطرة السياسية والأمنية، وضمان ولاء الأقاليم للسلطة المركزية مع الإبقاء على قدر من الإدارة المحلية التي تتولى تسيير الشؤون اليومية وفق الأوضاع السائدة في كل إقليم.

كما أسهم هذا التنظيم الإداري في ترسيخ الطابع المؤسسي لحكم مصر خلال العصر العثماني، إذ لم

(١) بيتر شوجر – أوروبا العثمانية ١٣٥٤ – ١٨٠٤م: في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة – ص ٤٩، د. عبد العظيم احمد عبد العظيم – التقسيم الإداري لمصر العليا في العصر العثماني- ص ١٣ و١٨، وعبد الرحمن الجبرتي – عجايب الآثار في تراجم الأخبار – ج٥- مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة -٢٠١٢م – ص ١٠٢ وما بعدها، ويلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية- المجلد الثاني- ص ٨٣٤، ود. عبد الحميد حامد سليمان – تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة – ١٩٩٥م- ص٣٦، ود. جلال يحيى – مصر الحديثة ١٥١٧ – ١٨٠٥ م – ص ١٦٤ وما بعدها

يكن التقسيم مجرد توزيع جغرافي، بل كان إطارًا قانونيًا وإداريًا منظمًا تحددت من خلاله الاختصاصات المالية والقضائية والعسكرية لكل مستوى من مستويات الإدارة، وقد انعكس ذلك في ضبط عملية تحصيل الخراج والضرائب وتنظيم شئون الالتزام والإشراف على الأمن المحلي بما يحقق استقرار الولاية ويضمن تدفق الموارد إلى الخزانة العثمانية، ومن ثمّ، فإن هذا التقسيم الإداري يُعد تجسيدًا عمليًا لمبدأ الربط بين المركز والأقاليم، ويكشف عن وعي إداري سعى إلى تحقيق التوازن بين إحكام السيطرة المركزية ومراعاة الخصوصيات المحلية لكل منطقة من مناطق مصر.

خاتمة

خلص البحث إلى أن المبادئ الإدارية التي طُبقت في مصر خلال العصر العثماني شكّلت إطارًا تنظيميًا متكاملًا أسهم في إحكام السيطرة المركزية وضمان استمرارية الإدارة، مع توفير قدر من التنظيم المحلي الذي مكّن من إدارة شؤون الولاية بكفاءة نسبية. وتكشف الدراسة أن هذه المبادئ لم تكن مجرد آليات تنظيمية، بل كانت أدوات سياسية لضمان وحدة الدولة واستقرارها، مما يجعل دراستها ضرورية لفهم تطور الإدارة في مصر عبر العصور.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

- إبراهيم أحمد عيسى وآخرون – التاريخ كما كان – دار كتوبيا للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠١٦م
- إبراهيم بك حليم – التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية – مطبعة ديوان عموم الأوقاف – القاهرة – ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥ م
- إبراهيم حسنين – سلاطين الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط – دار التعليم الجامعي – الإسكندرية – ٢٠١٤م
- أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى الدميري – قضاة مصر من القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري- ط ١ – تحقيق وتعليق ودراسة / عبد الرازق عبد الرازق عيسى ويوسف مصطفى المحمودي – مكتبة العربي للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠٠٠ م
- أحمد إبراهيم حسن – تاريخ القانون المصري (مع دراسة في نظرية الالتزامات في القانون الروماني) – دار الجامعة الجديدة – الإسكندرية – ٢٠٠٤ م
- أحمد إبراهيم حسن وفايز محمد حسين –

أصول تاريخ القانون في مصر في العصرين الإسلامي والحديث - دار المطبوعات الجامعية – الإسكندرية – ٢٠١٠ م

- أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك – الدولة العثمانية المجهولة: ٣٠٣ سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية - وقف البحوث العثمانية – إسطنبول – ٢٠٠٨
- أحمد السيد الصاوي – نقود مصر العثمانية: (١) التداول النقدي – مركز الحضارة العربية – القاهرة – ٢٠٠١
- أحمد عبد الرحيم مصطفى – في أصول التاريخ العثماني – ط٣– دار الشروق – القاهرة–١٤٠٦ ه/ ١٩٨٦ م
- أحمد فؤاد متولي – الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق التركية والعربية المعاصرة له – ط١ – دار الزهراء للطباعة والنشر – القاهرة – ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٥ م
- أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي – تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي – ط١– دار إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠٠٢ م
- أشرف إبراهيم سليمان – مبادئ علم الإدارة والعمل الشرطي: دراسة تطبيقية على أعمال الأمن- الطبعة الأولى – المركز القومي للإصدارات القانونية - القاهرة – ٢٠١٥ م
- أصلي سنجر – المرأة العثمانية بين الحقائق والأكاذيب – ترجمة / سمير زهران – دار النيل للطباعة والنشر – القاهرة -٢٠١٣م
- أكمل الدين إحسان أوغلي – الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي – ج ١– ط١– تقديم أ. رجب طيب أردوغان – تعريب صالح السعداوي- ط١ – دار الشروق – القاهرة – ٢٠١١ م
- أماني بنت جعفر بن صالح الغازي – دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية: الجيش الجديد- دار القاهرة – القاهرة - ٢٠٠٧
- أندريه ريمون – المدن العربية الكبرى في العصر العثماني – ترجمة / لطيف فرج – ط١– دار الفكر للدراسات والنشر – القاهرة – ١٩٩١
- أنور الجندي – تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث: السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية – ط١ – دار ابن

زيدون للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت –١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م

- أوليا جلبي – سياحتنامة مصر – ترجمة / محمد علي عوني - تحقيق عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان – تقديم ومراجعة أحمد فؤاد متولي – مطبعة دار الكتب والوثائق المصرية – القاهرة – ٢٠٠٣ م
- إيرينا بتروسيان – الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية – مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث – دبي- ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦ م
- إيمان السيد عرفة محجوب – النظام الإداري في الدولة الإسلامية بين الفكر والتطبيق – مجلة البحوث القانونية والاقتصادية – كلية الحقوق – جامعة المنوفية- شبين الكوم – مج ١٣ – ع ٢٥- إبريل – ٢٠٠٤ م
- بشري ناصر هاشم الساعدي – شريعة قتل الإخوان وأثرها في نظام حكم آل عثمان ١٥٢٠ -١٦١٧ م – مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية – مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية – جامعة بابل – العراق – مج١–ع٢- كانون الأول -٢٠١١
- بيتر شوجر – أوروبا العثمانية ١٣٥٤ – ١٨٠٤م: في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة – ترجمة / عاصم الدسوقي – ط ١- دار الثقافة الجديدة – القاهرة – ١٩٩٨ م
- تركي صالح الشنيفي – الخلافة العثمانية: المفهوم والشرعية – دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة - الرياض- مج ٤٦-ع ١٢- مايو / جمادى الآخر -١٤٣٢ه / ٢٠١١م
- توفيق الطويل – السلسلة الفلسفية والاجتماعية (٣): التصوف في مصر إبان العصر العثماني – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٣٦٥ه/ ١٩٤٦م
- توفيق علي برو – العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ – ١٩١٤ م – رسالة ماجستير – معهد الدراسات العربية العالية – جامعة الدول العربية – القاهرة – ١٩٦٠م
- تيسير جبارة – تاريخ الدولة العثمانية (١٢٨٠- ١٩٢٤ م) – جامعة القدس المفتوحة – رام الله – ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥ م
- ثريا شاهين – دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية – ط١– ترجمة / محمد حرب –

دار المنارة للنشر والتوزيع – مكة المكرمة – ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م

- جرجي زيدان – مصر العثمانية – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة – ٢٠١٢ م
- جلال يحيى – مصر الحديثة ١٥١٧ – ١٨٠٥ م – منشأة المعارف – الإسكندرية – بدون عام نشر
- جمال عبد الهادي محمد وآخرون – تاريخ الأمة الواحدة: صفحات من تاريخ الدولة العثمانية (٦٩٩ –١٣١٤ هـ/ ١٢٩٩ – ١٩٢٤ م) – دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة – بدون عام نشر
- جنان خضير منصور الجنابي – أحوال الدولة العثمانية (٨٥٥– ١١٦٤ هـ/ ١٤٥١–١٧٥٠م) من خلال النقود: دراسة تاريخية – رسالة دكتوراه – قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة اليرموك– الأردن – ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥ م
- حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن – النظم الإسلامية – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – بدون عام نشر
- خليل إينالجيك – تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار – ترجمة / محمد الأرناؤوط – ط١ – دار المدار الإسلامي– بيروت – ٢٠٠٢
- خليل إينالجيك – تكون رأس المال في الإمبراطورية العثمانية – ترجمة / عقيل محمد البربار – مجلة البحوث التاريخية – المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية – ليبيا – مج٣٢–ع٢– يوليو – ٢٠١٠
- راشد البراوي ومحمد حمزة عليش – التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث – ط ٤– مكتبة دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٤٩
- رأفت غنيمي حفني الشيخ – مصر وتركيا مسيرة حضارية مشتركة – مؤتمر «المظاهر الحضارية المشتركة بين تركيا والعرب» – الجمعية العربية التركية للحوار والثقافة والفنون بأنقرة بالتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة قناة السويس– الإسماعيلية – مارس – ٢٠٠٩
- رائد سامي حميد الدوري – الدولة العثمانية في عهد السلطان «مراد الأول» ٧٦٠– ٧٩١ هـ/ ١٣٥٩ – ١٣٨٩ م– رسالة دكتوراه – قسم التاريخ– كلية التربية – جامعة تكريت – العراق – ١٤٣٢ه / ٢٠١١ م

- رب ريتشارد – الشريعة والقانون في العصر العثماني – دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر- بيروت- ع٢ - شتاء- ١٩٨٩م
- رفعت موسى محمد – الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية – ط١- الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م
- زياد حمد الصميعي وجمال الدين فالح الكيلاني – تاريخ الدولة العثمانية: رجال وحوادث «عرض موجز» – ط١ – المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم – فاس – ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣ م
- زينب جمال الدين – مصر عظمة الإنسان والزمان والمكان - المجمل في تاريخ مصر: الدولة العثمانية – مجلة أبناء الوطن في الخارج - الهيئة العامة للاستعلامات- القاهرة – الحلقة ١٤ – عدد ٣٦- ٢٠١٧م
- سعد تامر الحميدي – الصراع بين القوميتين العربية والتركية وأثره في انهيار الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين – ط١- بدون ناشر - الدوحة – ٢٠١١
- سهيل صابان – المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية العثمانية – مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض – ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م
- السيد العربي حسن – الأصول التاريخية للقانون المصري القديم- بدون دار نشر - القاهرة – ٢٠٠٤
- سيد محمد السيد - مصر في العصر العثماني في القرن ١٦: دراسة وثائقية في النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية – ط١- مكتبة مدبولي – القاهرة – ١٤١٨ ه/ ١٩٩٧ م
- سيد محمد السيد محمود – تاريخ الدولة العثمانية (النشأة، الازدهار): وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة- ط١ – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧ م
- الصفصافي أحمد المرسي – الدولة العثمانية والولايات العربية – مجلة الدارة – الرياض – ع ٤ – س ٨ – ١٩٨٠
- صلاح أحمد هريدي - الجاليات الأوربية في الإسكندرية في العصر العثماني: دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية (٩٢٣ – ١٢١٣ هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨ م) – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ١٩٨٩

- عارف خليل أبو عيد وأورهان جانبولات – قوانين نامة في الدولة العثمانية دوافعها، أهدافها، آثارها - مجلة دراسات – كلية الشريعة والقانون - الجامعة الأردنية - الأردن– المجلد الأول – ع ١ – عام ٢٠١٢ م
- عبد الجليل التميمي – دراسات في التاريخ العربي العثماني- مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات - سيرمدي-١٤٥٣ هـ/ ١٩١٨ م – زغوان / تونس – ١٩٩٤
- عبد الجليل التميمي وآخرون – الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني – منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات – زغوان / تونس – مارس – ١٩٨٨
- عبد الحميد حامد سليمان – تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني – الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة – ١٩٩٥م
- عبد الرازق إبراهيم عيسى – تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ – ١٧٩٨ م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة – ١٩٩٨ م
- عبد الرحمن الجبرتي – عجايب الآثار في تراجم الأخبار – ج٥- مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة -٢٠١٢م
- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي – عجائب الآثار في التراجم والأخبار- ج١- تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – تقديم / عبد العظيم رمضان – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٩٩٨م
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٠
- عبد الرؤوف سنو - النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية ١٨٧٧- ١٨٨١ م: بلاد الشام، الحجاز، كردستان، ألبانيا- ط١ – دار بيسان للنشر والتوزيع – بيروت – ١٩٩٨
- عبد العزيز الشناوي – الدولة العثمانية دولة مفترى عليها- ج١ – ط١- مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة – ١٩٨٠
- عبد العظيم احمد عبد العظيم - التقسيم الإداري لمصر العليا في العصر العثماني- مؤتمر «العلاقات الإفريقية التركية» – المحور الأول – مركز البحوث

والدراسات الإفريقية – جامعة أفريقيا العالمية – السودان – أكتوبر – ٢٠١٧

- عبد المنعم ماجد – نظم دولة سلاطين المماليك – الجزء الأول – مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة– ١٩٧٩ م
- علي محمد الصلابي – الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط – ج٢- مكتبة حسن العصرية – بيروت -١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م
- علي محمد الصلابي – الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط – ج١ – ط١- دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة - ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م
- عليان عبد الفتاح الجالودي – التحولات الفكرية في العالم الإسلامي من القرن العاشر الهجري إلى القرن الثاني عشر الهجري – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الأردن – ٢٠١٤
- عماد عبد الرؤوف الرطيل – الطب والعلاج في مصر العثمانية وعهد محمد علي – دار الجمهورية للصحافة – القاهرة – بدون عام نشر
- عمر الإسكندري والميجرا.ج. سفدج – تاريخ مصر إلى العصر العثماني: مع نبذ في أخبار الأمم التي ارتبطت بمصر إلى ذلك العهد – مطبعة المعارف – القاهرة – ١٣٣٨ هـ/ ١٩٢٠ م
- عمر الاسكندري وسليم حسن – تاريخ مصر من العصر العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر – مراجعة / أ.ج سفدج – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة – ٢٠١٤
- عمر حافظ شريف – نظم الحكم والإدارة في الإسلام– معهد الدراسات الإسلامية – القاهرة – ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م
- عوض عبد الهادي عطا – العثمانيون في البحر الأحمر- مجلة دراسات أفريقية – مركز البحوث والدراسات الإفريقية – جامعة أفريقيا العالمية- الخرطوم – ع ٣٧- يونيو / جمادى الأولى – ٢٠٠٧
- عويضة بن متيريك الجهني – سلطة أشراف مكة ونفوذهم في المدينة المنورة خلال القرن العاشر الهجري السادس الميلادي – مجلة الجمعية التاريخية السعودية – قسم التاريخ - جامعة الملك سعود – المملكة العربية السعودية – س ٨ – ع ١٦ – نوفمبر / ذو القعدة – ٢٠٠٧ م
- فاتح رجب قدارة – الدولة العثمانية في آثار

الشيخ الطاهر الزاوي – المجلة الجامعة – قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الزاوية – ليبيا – ع ١٦ – مجلد ٤– نوفمبر – ٢٠١٤

- فايز محمد حسين – تاريخ القانون: القانون الروماني والواقع الاجتماعي في مصر الرومانية، تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر، تكوين النظام القانوني المصري الحديث – دار المطبوعات الجامعية – الإسكندرية – ٢٠١٤
- فراج سيد فراج وحسين أنور جمعة – ملامح البناء الاجتماعي في كل من تركيا ومصر – دراسة سسيو تاريخية مقارنة – ورقة بحث – مؤتمر المظاهر الحضارية المشتركة بين تركيا والعرب – كلية الآداب – جامعة قناة السويس- الإسماعيلية – ١٥ مارس – ٢٠١٠ م
- قيس جواد العزاوي – الدولة العثمانية: قراءة جديدة لعوامل الانحطاط– ط٢– الدار العربية للعلوم- بيروت – ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م
- كليب سعود الفواز – المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين والعثمانيين ١٩٠٨–١٩١٨ م (دراسة تحليلية)–بدون ناشر – ١٩٩٧ م
- ماجدة صلاح مخلوف – الخدمات والمرافق العامة في مكة في العهد العثماني (٩٢٣–١٣٣٥ هـ/ ١٥١٧ – ١٩١٦ م)– دار ندوة مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية – ١٤٢٦ ه/ ٢٠٠٥ م
- محمد أحمد الثقفي – زواج السلاطين العثمانيين من الأجانب وأثره في إضعاف الدولة – رسالة ماجستير – قسم التاريخ – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ١٤٣١ هـ/ ٢٠٠٩ م
- محمد الزحيلي – تاريخ القضاء في الإسلام – الطبعة الأولى- دار الفكر المعاصر – دمشق – ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م
- محمد الناصر النفزاوي – التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية (١٨٣٩–١٩١٨م)- ط١ – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – تونس – إبريل – ٢٠٠١
- محمد بن عبد الله آل زلفة – الإصلاحات العمرانية في الولايات العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني على ضوء الوثائق والصور الفوتوغرافية – الطبعة الأولى – دار بلاد العرب للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية – ١٤٣٣ هـ/ ٢٠١٢م

- محمد حرب – سلسلة دراسات عثمانية (١): العثمانيون في التاريخ والحضارة – المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي – القاهرة – ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م
- محمد خير فلاحة – الخلافة العثمانية من المهد إلى اللحد: دراسة موضوعية– بدون ناشر – بدون عام نشر
- محمد سهيل طقوش – تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة – ط٣– دار النفائس للنشر والتوزيع – بيروت – ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣ م
- محمد صبري – صفحات من تاريخ مصر (١٣): تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث – ط٢– مكتبة مدبولي – القاهرة –١٤١٧ه/ ١٩٩٦ م
- محمد صبري الدالي – فقهاء وفقراء: اتجاهات فكرية وسياسية في مصر العثمانية – مركز تاريخ مصر المعاصر – دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة – ٢٠١٠ م
- محمد فريد – تاريخ الدولة العلية العثمانية – ط٢ – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة – ٢٠١٤
- محمد محمود السروجي – مصر والمسألة الشرقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر – مطبعة المصري – الإسكندرية – ١٩٦٦ م
- محمد نور فرحات – التاريخ الاجتماعي للقانون في مصر الحديثة والعصر العثماني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠١٢ م
- محمود السقا – فلسفة وتاريخ القانون المصري ومراحل تطوره– المعهد العالي للدراسات الإسلامية – القاهرة – بدون عام نشر
- محمود ثابت الشاذلي – المسألة الشرقية: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩ م–١٩٢٣ م – ط١– مكتبة وهبة – القاهرة – ١٤٠٩ه/ ١٩٨٩م
- محمود شاكر – التاريخ الإسلامي (٨): العهد العثماني – ط ٤ – المكتب الإسلامي – بيروت– ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م
- محمود محمد الحويري – تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى – ط١– المكتب المصري لتوزيع المطبوعات – القاهرة – ٢٠٠٢ م
- مصطفى بركات – الألقاب والوظائف العثمانية: دراسة في تطور الألقاب

والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إنهاء الخلافة الإسلامية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات) ١٥١٧- ١٩٢٤ م – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠٠٠ م

- مصطفى ملا أوغلو – حقوق الأقليات الغير مسلمة في الدولة العثمانية - الدورة ١٧ - المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث – سراييفيرا – ربيع الآخر / جمادى الأولى ١٤٢٨ ه - مايو ٢٠٠٧ م
- مفيد الزيدي – موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر العثماني – دار أسامة للنشر والتوزيع – سلطنة عمان – ٢٠٠٣ م
- مفيد الزيدي – موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر المملوكي - دار أسامة للنشر والتوزيع – سلطنة عمان – ٢٠٠٩ م
- ميكل ونتر – المجتمع المصري تحت الحكم العثماني – ترجمة / إبراهيم محمد إبراهيم – مراجعة / عبد الرحمن عبد الله الشيخ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠١
- نادية محمود مصطفى وآخرون – مشروع العلاقات الدولية في الإسلام (١١): العصر العثماني من القوة والهيمنة وبداية المسألة الشرقية – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – القاهرة – ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م
- ناصر أحمد إبراهيم – فصول من التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة – مكتبة النصر للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠١١م
- ناصر الأنصاري – المجمل في تاريخ مصر: النظم السياسية والإدارية – الطبعة الأولى – دار الشروق – القاهرة – ١٩٩٣ م
- نزار قازان – سلاطين بني عثمان: بين قتال الإخوة وسلطة الإنكشارية - ط١ – دار الفكر اللبناني – بيروت – ١٩٩٢ م
- نللي حنا – مصر العثمانية والتحولات العالمية ١٥٠٠ – ١٨٠٠ م – ط١ - ترجمة / مجدي جرجس – المركز القومي للترجمة – القاهرة – ٢٠١٦ م
- نورة عبد الله هلال البقمي – الديوان الهمايوني في الدولة العثمانية (٨٢٤- ١٣٤٠ هـ/ ١٤٢١ – ١٩٢٢م): دراسة تاريخية حضارية – رسالة ماجستير – قسم التاريخ – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥م
- يلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية –– المجلد الأول- ترجمة / عدنان محمود

سلمان – مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري– منشورات مؤسسة فيصل للتمويل – تركيا – ١٩٨٨

- يلماز أوزتونا – تاريخ الدولة العثمانية– المجلد الثاني– ترجمة / عدنان محمود سلمان – مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري –منشورات مؤسسة فيصل للتمويل – تركيا – ١٩٨٨
- يواقيم ميخائيل – تاريخ القانون في مصر– مطبعة مصر – القاهرة – ١٨٩٩ م

المراجع الأجنبية

-Peter G. Bietenholz & Thomas Brian Deutscher - Contemporaries of Erasmus: A Biographical Register of the Renaissance and Reformatio –Volume 1 - University of Toronto Press –London-2003

-Michael Winter- Egyptian Society Under Ottoman Rule، 1517-1798- Routledge -London– 2003

وثائق الجنيزة من الرقمنة إلى الذكاء الاصطناعي

د. سهر سيد دسوقي إسماعيل
باحثة أكاديمية في التاريخ الإسلامي

«إنها ميدانُ معركةٍ للكتب؛ وقد أسهم الإنتاجُ الأدبيُّ لقرونٍ عديدةٍ بنصيبه في هذا الصراع، وأضحت شتاتُ أجزائه متناثرةً اليوم في أرجاء هذا الميدان».

Solomon Schechter[1]

الجنيزة؛ هى أحد أهم الاكتشافات الوثائقية في تاريخ العصور الوسطى. وهي مجموعة ضخمة من المخطوطات والوثائق التي عُثر عليها في معبد بن عزرا في الفسطاط (القاهرة القديمة). والجنيزة في التقليد اليهودي هي المكان المخصص لحفظ الأوراق التي تحتوي على اسم الله أو النصوص الدينية التي لا يجوز إتلافها، إلا أن جنيزة القاهرة تجاوزت هذا الدور الديني الضيق لتتحول إلى أرشيف واسع ضمّ نصوصًا دينية وأخرى حياتية يومية.

(١) سليمان شيشتر؛ أحد أبرز علماء الدراسات اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. ففي عام ١٨٩٠عين محاضرًا في الدراسات التلمودية بجامعة كامبريدج، وفي ١٨٩٦ حدث له تغير مفصلي في حياته حين تعرف عبر الأختين Lewis وMargaret Gibson على مخطوطات من القاهرة من معبد بن عزرا كان من بينها جزء من نص عبري قديم لكتاب "حكمة يشوع بن سيراخ". هذا الاكتشاف قاده فيما بعد إلى إدراك أهمية ما يعرف بـ "الجنيزة" وبتمويل من Charles Taylor، سافر شيشتر إلى القاهرة؛ حيث اكتشف في معبد بن عزرا مجموعة ضخمة من الوثائق التاريخية المتراكمة عبر قرون ووصفها بـ "ساحة معركة من الكتب". نجح شختر في نقل آلاف المخطوطات إلى مكتبة جامعة كمبريدج، لتصبح لاحقًا مجموعة "تايلور- شيشتر" التي تضم نحو ١٩٣ ألف جزء مخطوط من أهم المصادر لدراسة الحياة اليومية لليهود في العصور الوسطى في العالم الإسلامي.

Rebecca J. w. Jefferson: The Cairo Geenizah and the Age of Discovery in Egypt "The History and Provenance of a Jewish Archive, Great Britain, 2022, p.27: 39.

وتنبع أهمية وثائق الجنيزة من كونها تمثل أرشيفًا اقتصاديًا حيًّا؛ حيث تضم هذه الوثائق مئات الآلاف من الشذرات المكتوبة بالعبرية والعربية اليهودية والعربية، وتغطي فترة زمنية تمتد تقريبًا من القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر الميلادي، مع تركيز خاص في العصرين الفاطمي والأيوبي. وتشتمل على رسائل شخصية، وعقود زواج وطلاق، ووثائق تجارية، وسجلات مالية، ووصايا، وعرائض، ونصوصًا قانونية وطبية وأدبية؛ مما يجعلها مصدرًا فريدًا لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المجتمعات الإسلامية واليهودية في حوض البحر المتوسط.

ولقد مرت الجنيزة بعدة مراحل منذ اكتشافها في القرن التاسع عشر؛ فبعد اكتشافها جاءت مرحلة الجمع والنقل على يد سليمان شيشتر، ثم مرحلة التحليل الكلاسيكي على يد جوايتين، ثم مرحلة إعادة القراءة النقدية، ثم التحول الرقمي، وهي مرحلة بدأت منذ ٢٠٠٤ ومستمرة حتى الآن، وأخيرًا مرحلة الذكاء الاصطناعي "Mi DRASH".

فقد لعب Solmam Schechter دورًا محوريًا في هذا السياق؛ إذ قام في نهاية القرن التاسع عشر بجمع ونقل آلاف الشظايا إلى إنجلترا؛ مما أسهم في تحويل الجنيزة من مخزون محلي إلى مادة بحثية عالمية.

وقد اعتمدت الدراسات التقليدية لوثائق الجنيزة على التحليل النصي المباشر للوثائق، وهو منهج أسهم في تأسيس الدراسات الأولى، لكنه واجه عددًا من التحديات، أبرزها صعوبة تتبع العلاقات الاقتصادية المتشابكة بين التجار، إضافة إلى تشتت الوثائق بين عدد كبير من المجموعات الأرشيفية الموزعة بين مكتبات العالم.

تشير التقديرات إلى أن معظم أوراق الجنيزة –والتي تبلغ نحو ٣٨٠ ألف صفحة– هي أجزاء من مخطوطات أدبية يغلب عليها الطابع الديني، إلا أن ما بين ٣٠ إلى ٥٠ ألف جزء يصنف ضمن ما يعرف بالمواد الوثائقية؛ أي النصوص اليومية التي تكتب لأغراض حياتية. ويعود أكبر عدد من هذه الوثائق اليومية إلى مصر والشام في العصرين الفاطمي والأيوبي (٩٦٩– ١٢٥٠م).(1)

وقد لعب S. D. Goitein دورًا بارزًا في تطوير هذا الاتجاه؛ حيث يعد حجر الزاوية في التحول النوعي الذي شهدته دراسة الجنيزة من خلال موسوعته "A Mediterranean Society" حيث اعتمد على تحليل عدد كبير من وثائق الجنيزة لإعادة بناء صورة

(1) Goldberg, J. L., & Krakowski, E. : Introduction: A Handbook for Documentary Geniza Research in the Twenty-First Century , Jewish history, University of California, Los Angeles, vol. 32, pages (115-130),(2019), p.118.

شاملة للمجتمع التجاري في حوض البحر المتوسط. وقد أوضح أن التجار اليهود كانوا جزءًا من شبكة اقتصادية واسعة، اعتمدت على الثقة والعلاقات الشخصية، وهو ما ساعد على ازدهار التجارة في مصر في العصر الفاطمي.

ويمكن القول إن Goitein ترك لنا أرشيفًا ضم من البطاقات المفهرسة والنسخ النصية وترجمات وتعريفات لغوية. لكن على الرغم من أهمية أعماله، فإنها لم تغط سوى أقل من نصف Corpus الجنيزة.[1]

وقد شهدت دراسات جنيزة القاهرة خلال العقود الأخيرة تحولًا جذريًّا، لم يقتصر على إعادة قراءة الوثائق، بل امتد إلى إعادة تعريف طبيعة المصدر نفسه ومنهجيات التعامل معه. وإذا كان القرن العشرون قد اتسم بهيمنة المقاربات الكلاسيكية، خاصة مع أعمال Goitein، فإن القرن الحادي والعشرين يشهد بروز ما يمكن تسميته بـ«المنعطف الرقمي» في دراسات الجنيزة؛ حيث تداخلت أدوات الإنسانيات الرقمية (Digital Humanities) مع التحليل التاريخي لإنتاج رؤى جديدة.

فقد اعتمدت الدراسات الكلاسيكية للجنيزة، خاصة أعمال جويتين، على قراءة انتقائية للنصوص بهدف إعادة بناء صورة شاملة للمجتمع المتوسطي. وقد نجح هذا النموذج في تقديم تصور متكامل، إلا أنه تعرّض لاحقًا لنقد منهجي، خاصة فيما يتعلق بتمثيل الوثائق وانتقائيتها.

تشير كل من Goldberg, J. L., & Krakowski, E إلى أن فهم الجنيزة يتطلب إدراك حدودها؛ حيث يؤكدان أن الباحثين باتوا أكثر وعيًا بـ«الحاجة إلى فهم الجنيزة كجسم وثائقي بثرائه وحدوده غير المعترف بها سابقًا»[2] هذا التحول يعكس انتقالًا من استخدام الوثيقة كمصدر مباشر إلى تحليلها كمنتج ثقافي يخضع لشروط إنتاج وحفظ معقدة.

فوثائق الجنيزة تتميز بخصوصية منهجية ناتجة عن طبيعتها الأرشيفية؛ حيث إنها لا تمثل أرشيفًا منظمًا، بل تجميعًا عرضيًا لوثائق تراكمت عبر قرون؛ مما فرض عليها تحديات في التصنيف والتأريخ.[3]

فمن حيث الإشكالية؛ فتشير الدراسات إلى أن الجنيزة ليست أجزاء متجانسة، بل تتكون من وثائق قانونية (عقود، وصايا)، ووثائق اجتماعية (رسائل شخصية)، ووثائق اقتصادية (سجلات تجارية). ويؤكد كل من جولدبرج وكراكوفسكي أن فهم هذه المواد يتطلب الجمع بين التحليل النصي والسياق الأرشيفي؛ خاصة في ظل صعوبات الأرشفة الناتجة

(1) Ibid, p.121 -*122.*
(2) Ibid, p. 116.
(3) *Ibid, p.115.*

عن تفتت الأوراق وإعادة استخدامها وغياب الترتيب الزمني.(1)

والحقيقة أن دراسة أوراق الجنيزة تتطلب إلى توظيف علوم مساعدة لفهمها وقراءتها منها؛ الباليوغرافيا (تحليل الخطوط)، الدبلوماسية (تحليل الصيغ الوثائقية)، الفيلولوجيا (تحليل اللغة)، والبروسوغرافيا (دراسة الشبكات الاجتماعية).(2)

وعند قراءة أوراق الجنيزة وتحليلها يدعو روتمان إلى تجاوز الإطار المحلي، واقترح الانتقال إلى نظرة شمولية "منظور تاريخي عالمي يربط الجنيزة بمصادر بيزنطية ونورمانية وأوروبية".(3)

والحقيقة أن دراسات الجنيزة شهدت تحولاً جذريًا مع ظهور المشروعات الرقمية؛ فالانتقال من أعمال جوايتين إلى قواعد البيانات الرقمية أدى إلى الانتقال من القراءة الانتقالية إلى البحث الشامل، واستخدام البحث بالكلمة المفتاحية.(4)

فمشروعات مثل ❊❊ Friedberg Genizah Project❊❊ تمثل ثورة في هذا المجال؛ ويعد أهم مشروع لإعادة تجميع الجنيزة رقميًا. بدأ عام ٢٠٠٤، واستطاع أن يجمع ٧٤٠ ألف صورة رقمية مع بيانات وصفية متقدمة، وتتيح: البحث المتقاطع، والربط بين الشظايا/ الشذرات (Fragment joins) وبناء قواعد بيانات تحليلية.

أما عن ❊❊Princeton Geniza Porject❊❊ فقد بدأ في الثمانينيات، عبارة عن قاعدة بيانات نصية وببلغرافية، وهو مهم في عملية البحث النصي والتحليل.

كذلك تعمل مؤسسات مثل ❊❊ Princeton Geniza Lab❊❊ على تطوير بيئة بحثية رقمية تدمج: الصور والنصوص المنسوخة والتحليل التفاعلي، كما تسعى إلى تحويل الوثائق إلى نصوص قابلة للبحث؛ مما يغير جذريًا من طبيعة العمل التاريخي.

إلى جانب ذلك، أسهم مشروع ❊❊Cambridge Genizah** Research❊❊ Unit في تطوير أدوات رقمية لتحليل الوثائق، من خلال استخدام تقنيات التنقيب النصي، وتحليل البيانات، وبناء قواعد بيانات متقدمة لوثائق الجنيزة، وهو ما ساعد في تصنيف الوثائق الاقتصادية والتجارية بصورة أكثر تنظيمًا.

ويعد التحول الأحدث -في هذا الشأن- هو الذكاء الاصطناعي؛ مثل MiDRASH وهو يعتمد على

(1) *Ibid*, *p.118- 121.*
(2) Marina Rustow, "Writing History from the Geniza: Issues, Methodologies, Prospects", *Jewish History* 32 (2019): 508: 510.
(3) Yuval Rotman, "The Geniza: Legacies and Prospects", *Jewish History*, *vol.* 32 (2019), (563-566). P.565.
(4) Mark Cohen: Digitizing the Geniza, *Jewish History*, vol.32 (2019), (547-550) p.548-549.

الذكاء الاصطناعي لقراءة المخطوطات، ويساعد على فك النصوص وربط الشظايا.

ويعد أحد أهم إنجازات الرقمنة هو إمكانية «إعادة تجميع» النصوص الممزقة؛ حيث تؤكد الدراسات أن الرقمنة: «مكّنت الباحثين من إعادة وصل الشظايا افتراضيًا». وقد أدى ذلك إلى تحسين الوصول إلى الوثائق، وإمكانية الربط بين شظايا الوثائق وبناء قواعد بيانات للأشخاص والشبكات.(١)

ونتيجة لظهور تقنيات حديثة كالذكاء الاصطناعي والباليوغرافيا (تحليل الخطوط) الرقمي، أدت إلى ظهور تطوير أدوات جديدة لتحليل الوثائق مثل؛ التعرف الآلي على النصوص (HTR -OCR) حيث أتاحت تحيل الصور إلى نصوص قابلة للبحث، وتحليل الأنماط اللغوية وتسريع عملية الفهرسة.

أما عن الباليوغرافيا الرقمية؛ فيشير ستيزمان إلى أن تحليل الخط أصبح يعتمد على معالجة الصور، وأصبح هناك تعاون بين المؤرخين وخبراء الرؤية الحاسوبية، ولكن على الرغم من ذلك تظل «عين الباحث عنصراً حاسمًا».(٢)

وقد سمحت لنا هذه التقنيات بتحليل العلاقات الاجتماعية والتجارية وبناء قواعد بيانات للأسماء، ودراسة الأنماط الاقتصادية.

وعلى الرغم من هذه الإمكانات، يحذر الباحثون من المبالغة في الاعتماد على الأدوات الرقمية؛ حيث لا تزال العديد من الوثائق غير مفهرسة، وتواجه النماذج الحاسوبية صعوبات في قراءة الخطوط اليدوية، ويظل التفسير التاريخي بحاجة إلى خبرة بشرية، كما أن الرقمنة قد تعيد إنتاج بعض التحيزات القديمة؛ إذ لم تُستخدم ضمن إطار نقدي.

ولكن لا نهمل أن المنهجية الرقمية أتاحت لنا إمكانية إعادة بناء شبكات التجارة في مصر الفاطمية بصورة أكثر دقة، من خلال تحليل العلاقات الاقتصادية التي كشفت عنها وثائق الجنيزة. فقد أظهرت هذه الوثائق أن القاهرة كانت تمثل مركزًا تجاريًا رئيسيًا في شبكة واسعة من المراكز الاقتصادية التي شملت القيروان وعدن وصقلية وبلاد الشام. وقد ساعدت قواعد البيانات الرقمية في تتبع أسماء التجار، ومسارات التجارة، وأنواع السلع المتبادلة، وهو ما أتاح بناء تصور أكثر وضوحًا لطبيعة النشاط الاقتصادي في العصر الفاطمي. وقد أوضحت الدراسات الحديثة أن التجار اليهود كانوا يعتمدون على شبكة من الوكلاء التجاريين، الذين تولوا إدارة عمليات البيع والشراء في المراكز التجارية المختلفة.

(1) Goldberg and Krakowski, “Introduction,” 122–125.
(2) Diego Navarro Bonilla: Training Eyes and Training Hands in the Digital Research with Manuscripts, De Gruyter, 22021, p.3.

كما كشفت وثائق الجنيزة عن تنوع السلع التجارية التي مرت عبر القاهرة؛ حيث شملت المنسوجات والبهارات والمعادن والمواد الغذائية، وقد أظهرت هذه الوثائق أن القاهرة كانت تمثل مركزًا لإعادة توزيع السلع القادمة من الشرق إلى بلاد المغرب والأندلس. وقد أشارت Jessica L. Goldberg إلى أن هذه الشبكات التجارية اعتمدت على بنية مؤسسية غير رسمية، قائمة على الثقة والعلاقات الشخصية.

كما ساعد التحليل الرقمي في تتبع حركة التجار بين المراكز التجارية المختلفة؛ حيث أظهرت البيانات أن عددًا من التجار كانوا يتحركون بانتظام بين القاهرة والقيروان وعدن، وهو ما يعكس الطابع الديناميكي للتجارة في العصر الفاطمي. وقد أوضحت الدراسات أن هذه الشبكات التجارية أسهمت في تعزيز دور القاهرة كمركز اقتصادي رئيسي في حوض البحر المتوسط.

يؤكد هذا البحث أن المنهجية الرقمية تمثل أداة مهمة في دراسة وثائق الجنيزة، لما توفره من إمكانات تحليلية متقدمة تساعد في إعادة بناء شبكات التجارة في مصر الفاطمية. وقد أظهر التحليل أن الجمع بين المنهج التاريخي التقليدي وأدوات التحليل الرقمي يتيح فهمًا أكثر شمولًا للتاريخ الاقتصادي.

وأخيرًا ليس بآخر، فإن دراسات الجنيزة -اليوم- تمثل نموذجًا لتحول أعمق في العلوم الإنسانية؛ حيث لم تعد الوثيقة مجرد نص يُقرأ، بل أصبحت بيانات تُحلل ضمن شبكات رقمية معقدة، وبينما توفر الأدوات الرقمية إمكانية غير مسبوقة، فإنها تطرح تحديات منهجية تتعلق بالتحيز والتفسير والتأويل.

مدونات الرحالة الغربيين عن قطر ومنطقة الخليج خلال العصر الحديث:

دراسة تحليلية

أ.د. يوسف العبدالله - جامعة قطر
أ.د. المهدي جراد - جامعة قطر
د. الشاذلي بية الشطي - جامعة قطر
أ. إخلاص أحمد - باحثة مستقلّة

مقدمة

شكلت روايات الرحالة ومدوناتهم مصدرًا أساسيًا لفهم المشهد التاريخي والثقافي والاقتصادي لشبه الجزيرة العربية وانطلاقا من رحلات العلماء والتجار المسلمين ابتداءًا من رحلات العصور الوسطى وصولًا إلى روايات المستكشفين الأوربيين اللاحقة. إذ تمنح هذه النصوص مساحة للوصف الدقيق للأماكن والشعوب والتفاعلات الاجتماعية التي شكلت هوية المنطقة على مر القرون. كما أن أدب الرحلات العربية وخاصة أدب الأسفار، عكس دقة التدوين بين الملاحظة الجغرافية والتدوين الشخصي، مما عكس سجلا حيويًا لطبيعة الحركة في منطقة شبه الجزيرة، التي كان يقصدها منذ فجر التاريخ آلاف الرحالة المسلمين نحو الأراضي المقدسة نحو مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. وكانوا يتجهون بهدف تأدية فريضة الحج وزيارة قبر النبي ﷺ. إلى جانب حرصهم على تدوين مشاهداتهم بهدف نفع المؤمنين بتجربتهم التي خاضوها، ليصفوا رحلاتهم التي تعد دليلًا لغيرهم، إلى جانب حرصهم على حبس الأوقاف للإنفاق العام ونشر الأجر.[1]

وعلى الرغم من استباق الرحالة المسلمين لزيارة منطقة شبه الجزيرة العربية للرحالة الغربيين بفترات زمنية طويلة، إلا أن الرحالة الغربيين قد اتجهوا إلى أراضي شبه الجزيرة العربية منذ أقدم العصور، بسبب استقطاب المنطقة لاهتمام أوروبا بموقعها الجغرافي الذي جعلها نقطة اتصال مهمة بين الحضارات. وذلك بفضل اهتمام الرحالة بتدوين أدق الملاحظات منذ خروجهم من

(١) حسن، زكي. (٢٠١٣). الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

موطنهم حتى وصولهم إلى غاياتهم، عبر تقارير ومدونات احتفظت بها حكوماتهم واعتنت بتأريخها وأرشفتها ضمن سجلات تحتوي على معلومات متنوعة تعكس الجانب التاريخي والجغرافي والسياسي والاجتماعي والتجاري والعلمي. وعليه تعد مدونات الرحلات مصدرًا أوليًا هامًا في قراءة انطباعاتهم عن المناطق التي زاروها واستنباط ملاحظاتهم واستقرائها[1].

ويقول روبن بدول "Robin Bidwell" بأن ما كُتب عن منطقة الجزيرة العربية يُقدر بأنه يتجاوز بمساحات كبيرة مقارنة بإجمالي ما كُتب عن أي جزء آخر من العالم[2]. وبهذا إشارة إلى عدد كبير من الرحالة ابتداءًا من لودفيكو دي فارتيما وكارستين نيبور وهاري سينت جون فيلبي وغيرهم. ولهذا شكلت منطقة الخليج العربي جوهرًا أساسيا لمبحث العديد من الدراسات والأبحاث التي تناولتها أدب الرحلات على مدى القرون التاريخية، مما أدى إلى تكوين مخزون قيم ومتنوع من الروايات التاريخية التي تسلط الضوء على التحولات التي شهدتها منطقة شبه الجزيرة العربية على مدى القرون المختلفة. ومما لا شك فيه، تختلف دوافع هذه الرحلات، ولكنها تقدم رؤى بالغة الأهمية حول سيرورة التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للقبائل التي سكنت منطقة الخليج العربي.

إذ بدأت رحلات الغربيين للمنطقة مع رحلات البرتغاليين والهولنديين في أوائل القرنين السادس عشر والسابع عشر، ضمن دوافع تجارية واقتصادية في المقام الأول، وبحثًا عن مغاصات اللؤلؤ وطرق التجارة البحرية[3]، موثقين خلال هذه الرحلات العادات المحلية والأنماط الاجتماعية، مما شكل قاعدة أساسية لأولى الملاحظات الغربية الأوروبية المنهجية عن مجتمعات الخليج. وقد تكون البدايات مقترنة بالأهداف التجارية، لكنها لم تنفصل عن الأنشطة الاستعمارية من خلال الرحلات التي تنوعت بين البرية والبحرية حتى وصلت إلى أوجها في القرن التاسع عشر الميلادي بهدف التوسع الإقليمي من خلال اتساع رقعة الأنشطة الاقتصادية في أوروبا مما عزز من التوجه الاستعماري نحو منطقة الخليج العربي.

---

(١) المجنوني، ماجدة عطية الله أحمد. (٢٠٢٠). منهج الكتابة التاريخية عند الرحالة الغربيين في منطقة الأحساء من الفترة ١٣٥٣ ,١٣٢٨هـ ١٩٣٤،١٩١٠م .*مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*، مج. ٤، ع. ٦، ص ص. ٥١-٦٧.

(٢) بدول، روبن.(١٩٨٩). الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة: عبدالله آدم نصيف، جامعة الملك سعود، الرياض، ص ٢٠.

(٣) بلجريف، تشارلز.(٢٠٠٥). ساحل القراصنة، ترجمة: د.عيسى أمين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ٢٧.

إشكالية البحث وتساؤلاته

تُعدّ مدونات الرحالة من أهم المصــادر التاريخية التي تتيح فهم تحولات المجتمعات البشــرية في أبعادها الاجتماعية والثقافية والسـياسـية والاقتصادية، إذ لا تقتصر على الوصف السردي للأحداث، بل تسهم في تشكيل صور ذهنية ومعرفية عن المجتمعات التي تناولتها. وفي هذا السـياق، شـكّلت منطقة الخليج العربي مجالًا واسعًا لاهتمام الرحالة الغربيين، غير أن حضــور قطر في هذه المدونات ظلّ متباينًا بين الهامشـية والاسـتخدام الوظيفي، تبعًا لاختلاف السـياقات التاريخية والدوافع التي حكمت هذه الرحلات.

وانطلاقًا من ذلك، تتمحور إشــكالية هذا البحث حول التساؤل الرئيسي الآتي :كيف تشكّلت صورة قطر في مدونات الرحالة الغربيين منذ القرن السـادس عشـر حتى القرن العشـرين؟ من خلال طرح هذا السؤال، لا تسعى هذه الدراسة فقط إلى تكوين صـورة عن قطر عبر هذه القرون، بل أيضا محاولة فهم التحولات الكبرى التي عرفتها قطر خلال هذه الفترة التاريخية. وعلى هذا الأسـاس انبثقت عن التسـاؤل الرئيسـي المطروح الأسـئلة الفرعية الآتية:

١. ما طبيعة صــورة قطر في المدونات الغربية خلال الفترات التاريخية المختلفة؟

٢. ما أوجه الاسـتمرارية والتغير في صـورة قطر عبر القرون محل الدراسة؟

أهداف البحث واهميته

من خلال طرحها للتساؤلات السابقة تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. تحليل كيفية تشكّل صـورة قطر في مدونات الرحالة الغربيين خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين .

٢. التعرف على التحولات التي طرأت على هذه الصــورة عبر السـياقات التاريخية المختلفة (التجارية، الاسـتعمارية، السياسية) .

٣. الكشـف عن طبيعة المضــامين التي ركّز عليها الرحالة في وصـفهم لقطر (اقتصـادية، اجتماعية، ثقافية، سياسية) .

ومن خلال هذه الأهداف تتضح لنا أهمية هذه الدراسة، التي تتجسد في ثلاثة مستويات مختلفة: معرفية، ومنهجية، وتطبيقية. على المستوى المعرفي، تساهم هذه الدراسة في سد الفجوة البحثية المتعلقة بصورة قطر ضمن مدونات الرحالة الغربيين في سياق تحليلي، إضافة إلى ذلك فهي تقدم إضافة نوعية في مجال التاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي لدولة قطر. اما على المستوى المنهجي، فهي تقدم نموذجا

لتحليل مدونات الرحالة ضمن الدراسات التاريخية. أما على المستوى التطبيقي، فأن هذه الدراسة تُشكل مصدرا لتطوير محتوى تعليمي حول تاريخ قطر.

المنهجية والإطار النظري:

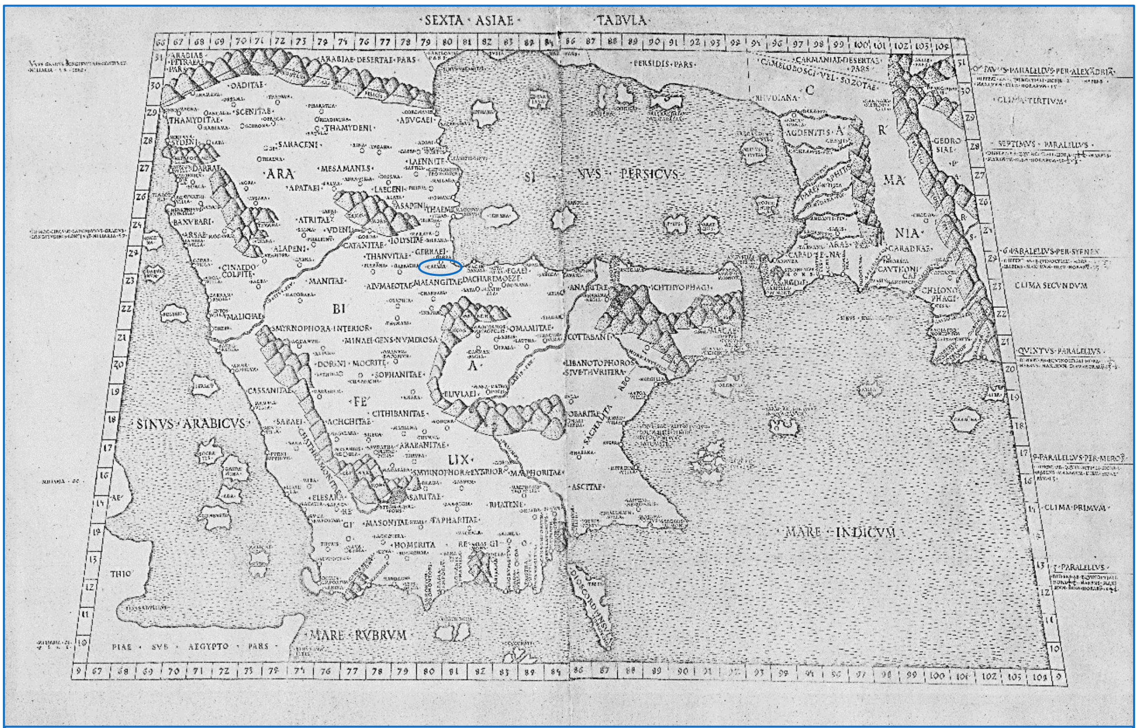
تعتمد هذه الدراسة على المنهج التاريخي التطوري والتحليلي، مستندة بشكل أساسي إلى مدونات الرحالة الغربيين الذين وفدوا إلى منطقة الخليج العربي وقطر خلال الفترة الممتدة بين القرنين القرن السادس عشر والقرن العشرين، على اعتبار أنها تُشكل مصادر أولية تعكس ملاحظاتهم المباشرة وتصوراتهم للواقع الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمنطقة بشكل عام ولقطر بشكل خاص. على هذا الأساس تم اختيار عيّنة من هذه المدونات وفق معيار رئيسي يتعلق بتضمنها على إشارات مباشرة أو غير مباشرة تتصل بقطر. وبهدف تتبّع تطور صورة قطر عبر العصور التاريخية المختلفة، تم إخضاع هذه المدونات إلى تحليل تفسيري، مستندين في ذلك، من الناحية النظرية، إلى مقاربات «صورة الآخر» وتحليل الخطاب التاريخي، مع الاستئناس بإسهامات الدراسات الاستشراقية التي توضح كيفية تشكّل المعرفة الغربية حول الشرق في إطار تصورات ثقافية وسياسية محددة. وبناءً على ذلك، تمت معالجة هذه المدونات على أنها نصوص تعكس خلفيات الرحالة ودوافعهم، وهذا ما يستلزم قراءتها قراءة نقدية تأخذ بعين الاعتبار السياقات الزمنية والمعرفية المرتبطة بها. أمن أجل تعزيز موثوقية التحليل، تم توظيف بعض الوثائق الأرشيفية كمصادر مساندة بهدف دعم المعلومات الواردة في مدونات الرحالة والتحقق من صحتها.

تمهيد

لا يمكن البدء باستقراء مدونات الرحالة والمستشرقين، دون الارتكاز إلى المصادر الجغرافية المتمثلة في التاريخ الخرائطي الذي يشكل قاعدة أساسية لمدونات الرحالة، مع الأخذ بعين الاعتبار الجدل المستمر حول أسبقية المصدر الخريطة أم النص جاء أولا؟ إذ يستند المؤرخون إلى الخرائط اللاتينية المبكرة التي جاءت في القرن الثاني الميلادي ضمن وثائق كتاب دليل الجغرافيا.

والتي تم إعادة رسمها وفق إحداثيات المؤرخ اليوناني الشهير كلوديوس بطليموس، إذ ساهم القرن الخامس عشر الميلادي بإعادة إنتاجها وطباعتها مع عام ١٤٧٧م. حيث يعد عمل بطليموس بعمله الشهير «الخريطة السادسة لآسيا»

والتي أوضحت أقدم إشارة إلى وجود الإسم كاتابا (كتارا Catara) كترجمة من اللاتينية؛ إسم لمنطقة جغرافيـة لفترة تجـاوزت الألفي عـام، حتى بـدت تتجلى معالم شبه الجزيرة بعد نحو ٧٥ عامًا وذلك في عام ١٥٦١م[١].



صورة ١: الخريطة السادسة لآسيا، كلوديوس بطليموس، ١٤٧٨م. مكتبة قطر الوطنية، HC.MAP.00190

(١) سلوت، بن.(٢٠١٥). صورة قطر في التراث الخرائطي القديم: ١٣٠٠–١٧٧٢م، مجلة رواق التاريخ والتراث: يونيو، الدوحة.

التحليل التفسيري لمدونات الرحالة خلال العصر الحديث

يُظهر «**الجدول١**» المجمّع لمدونات لرحالة الغربيين الذين مرّوا بمنطقة الخليج وقطر تحوّلًا جذريًا في طبيعة الرحلة، ودوافعها، ومضامينها المعرفية على مدى خمسة قرون. فمنذ القرن السادس عشر، انتقلت الرحلات من استكشاف تبشيري وتجاري إلى بعثات علمية وجغرافية، ثم إلى استطلاعات سياسية واستعمارية، وانتهت إلى مرحلة الاستكشاف الاقتصادي المتصل بامتيازات النفط. جمع باحثو المشروع عينة البحث الرئيسية، والتي تضمنت اقتباسات من مدونات الرحالة الغربيين التي تناولت وأشارت إلى «قطر» في مدوناتهم، والتي سنسردها وفق الآتي ضمن أجزاء حسب القرون التاريخية من القرن ١٦-٢٠م.

تطور صورة قطر في مدونات الرحلات الغربيين إلى الخليج العربي خلال الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر والقرن العشرين:

صورة قطر في مدونات الرحالة الغربيين خلال القرنين السادس عشر والسابع ميلادي

جدول1 : قائمة الرحالة الغربيين (١٥٠٣-١٦٨٨)

وصف موجز لما كتبه	المهنة أو البعثة	سنة الرحلة	المنطقة التي زارها	اسم الرحّالة (بالإنجليزية / بالعربية)
أول أوروبي يصف مكة والمدينة؛ سجّل ملاحظات عن العادات الدينية والتجارية للسكان(١).	رحّالة إيطالي – مبعوث ديني للبرتغاليين	١٥٠٣م	الحجاز وشرق الجزيرة العربية	Ludovico di Varthema **لودفيكو دي فارتيما**
أشار إلى تجارة اللؤلؤ في الخليج وذكر «بر قطر ـ Barchator» كمركز لتجارة اللآلئ.	تاجر من البندقية – مستكشف تجاري	١٥٨٠م	سواحل الخليج و«بر قطر» وجزيرة حالول	Gasparo Balbi **جاسبارو بالبي**

(١) إبراهيم عبدالعزيز. روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية- الجزء الأول ١٥٠٠-١٨٤٠، دار الساقي للنشر، لندن.

وصف موجز لما كتبه	المهنة أو البعثة	سنة الرحلة	المنطقة التي زارها	اسم الرحّالة (بالإنجليزية / بالعربية)
وصف قطر بالقلعة المنفردة	رسام خرائط برتغالي	١٥٩١	شبه الجزيرة العربية	**لازارو لويس** Lazarro louis
وصف مغاصات اللؤلؤ والملاحة، وأبرز أهمية قطر كمحطة تجارية بحرية. وهو من أوائل الرحالة الذين أشاروا إلى قطر في كتب الرحالة، وأنها مكان جيد لصيد اللؤلؤ.	بحّار ومستكشف برتغالي	١٦٠٤م	سواحل قطر والخليج العربي	Pedro Teixeira **بيدرو تكسيرا**
لم يذكر قطر في كتاباته، لكنه وصف البحرين بأنها جزيرة اللؤلؤ ووثق طبيعة تجارة اللؤلؤ في المنطقة ما بين المحيط الهندي والخليج العربي	رحالة وتاجر فرنسي	١٦٨٨م	الخليج العربي	**جان باتيست تافرنيه** Jan Baptist Tavernier

ومع مطلع القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، اصطبغت كتابات الرحالة الأوروبيين عن منطقة شبه الجزيرة العربية بصبغة تجاوزت الوصف والملاحظة المُجردة، وانتقلت إلى صفة الإنتاج المعرفي الوظيفي بما يرتبط بالملاحة والتجارة والمصالح الاقتصادية التجارية في منطقة المحيط الهندي. إذ جاءت هذه الرحلات ضمن مسارات التوسع الأوروبي عبر الأنشطة البحرية نحو منطقة المحيط الهندي وما يتصل به من خلجان ومسارات بحرية. وشكلت منطقة الخليج

العربي وسواحله؛ فضاءًا هامًا يستقطب القوى الكبرى لرصد الموارد وخاصة اللؤلؤ الذي كان عنصر جذب أساسي في اتجاهات الرحالة الأوروبيين في مراحلها الأولى(١).

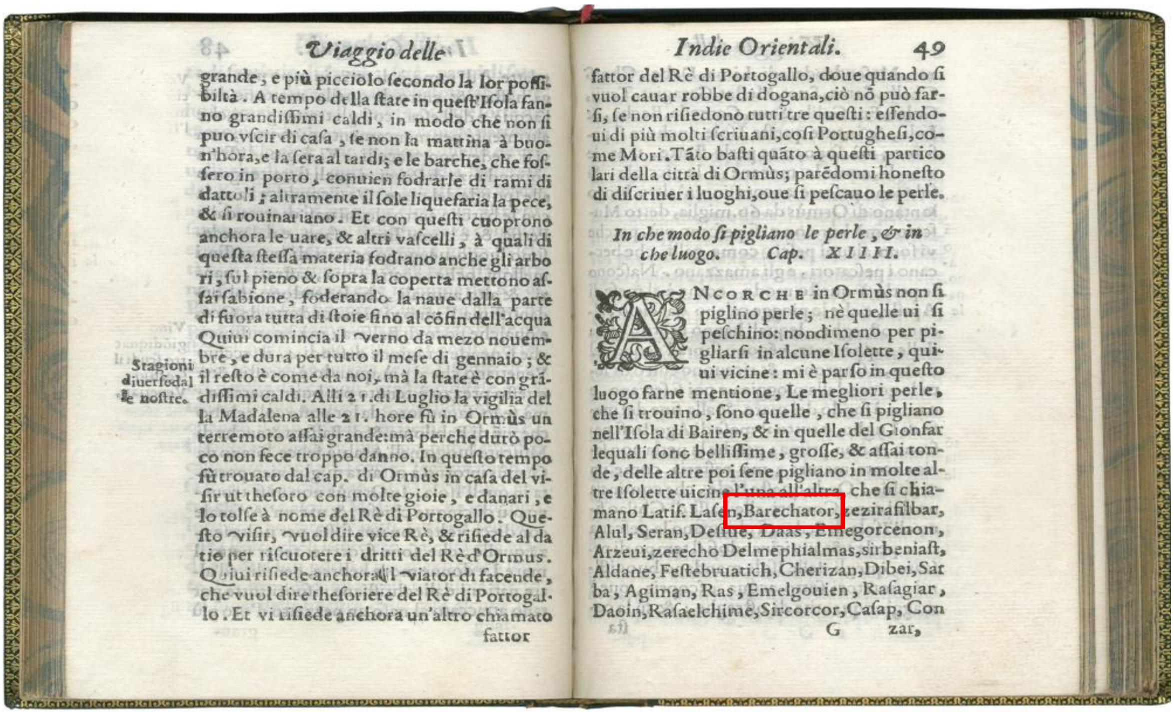
ومن ضمنهم يبرز الرحالة الإيطالي لودفيكو دي فارتيما (ت.١٥١٧) الذي ولد في مدينة بولونيا، وهو من بين أوائل الرحالة الأوروبيين الذين تمكنوا من الدخول إلى قلب الجزيرة العربية في مطلع القرن السادس عشر. فقد كان فضوله ورغبته المتقدة نحو المعرفة واكتشاف الأديان وراء عزم هذا الرحالة الإيطالي الذي يشار بأنه من أوائل الأوربيين الذين استطاعوا وصف الحج إلى مكة متنكرًا بهوية الحاج يونس المصري لأهل الحجاز واليمن، وزار شرق جاوه ووصفها. كما كانت له دوافع أخرى ارتبطت بمهمات استخباراتية لصالح البرتغاليين إذ موّل ملك البرتغال رحلته وتركزت ملاحظاته في شبه الجزيرة العربية على العادات والظواهر الغريبة للسكان وحياتهم اليومية، ولم ترد مدوناته واضحة لشرق شبه الجزيرة وما يحيطها. لكنها أسست لإدراك هام بوحدة هذه المنطقة في اتجاهاتها الاقتصادية والدينية(٢). ولم تأت أية ملاحظات مباشرة عن شرق شبه الجزيرة العربية أو قطر على وجه التحديد، لكن الرحالة فارتيما يعد من أوائل الرحالة الذين تركوا أثرًا استدل به العديد من الرحالة من بعده.

وعند الحديث عن سواحل الخليج العربي من وجهة نظر الرحالة الأوروبيين. يبرز جاسبارو بالبي "□□□□ □□□□□□" الذي يعد من أوائل الرحالة الذين وصفوا سواحل الخليج كسواحل بحرية تجارية هامة. إذ كان جاسباروا رحالة وتاجر البلاط الملكي، وقام برحلته إلى سواحل الخليج العربي نحو عام ١٥٨٠م ضمن رحلة نحو الشرق دوافعها الأساسية البحث عن اللؤلؤ والأحجار الكريمة، حيث كانت رحلته خلال الفترة ١٥٧٩-١٥٨٨م، ويعد من أوائل الرحالة الذين قدموا معلومات عن جزر بحر قطر، بالإضافة إلى الإشارة بتفاصيل عن مغاصات اللؤلؤ الممتدة من ساحل قطر إلى مسقط وأشار في مدوناته إلى اسم قطر (بر قطر) "□□□□□□□□" إضافة إلى جزر قطر مثل حالول، وشراعوه، ودينيه ضمن صفحات كتابه المنشور في

---

(١) بدول، روبن.(١٩٨٩). الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة: عبدالله آدم نصيف، جامعة الملك سعود، الرياض، ص ٢٣-٢٤.

(٢) المصري، الحاج يونس.(١٩٩٤). رحلات فارتيما، ترجمة: المحقق عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٠.


Viaggio delle

grande, e più picciolo ſecondo la lor poſſibiltà. A tempo della ſtate in queſt'Iſola fanno grandiſſimi caldi, in modo che non ſi può vſcir di caſa, ſe non la mattina à buon'hora, e la ſera al tardi; e le barche, che foſſero in porto, conuien fodrarle di rami di datteli; altramente il ſole liquefaria la pece, & ſi rouinariano. Et con queſti cuoprono anchora le uare, & altri vaſcelli, à quali di queſta ſteſſa materia fodrano anche gli arbori, ſul pieno & ſopra la coperta mettono aſſai ſabione, foderando la naue dalla parte di fuora tutta di ſtoie fino al cõfin dell'acqua Quiui comincia il verno da mezo nouembre, e dura per tutto il meſe di gennaio; & il reſto è come da noi, mà la ſtate è con grãdiſſimi caldi. Alli 21. di Luglio la vigilia della Madalena alle 21. hore fù in Ormùs un terremoto aſſai grande: mà perche durò poco non fece troppo danno. In queſto tempo fù trouato dal cap. di Ormùs in caſa del viſir ut theſoro con molte gioie, e danari, e lo tolſe à nome del Rè di Portogallo. Queſto viſir, vuol dire vice Rè, & riſiede al datio per riſcuotere i dritti del Rè d'Ormus. Quiui riſiede anchora il viator di facende, che vuol dire theſoriere del Rè di Portogallo. Et vi riſiede anchora un'altro chiamato

Stagioni diuerſe dal le noſtre.

fattor

Indie Orientali. 49

fattor del Rè di Portogallo, doue quando ſi vuol cauar robbe di dogana, ciò nõ può farſi, ſe non riſiedono tutti tre queſti: eſſendoui di più molti ſcriuani, coſi Portugheſi, come Mori. Tãto baſti quãto à queſti particolari della città di Ormùs; parẽdomi honeſto di diſcriuer i luoghi, oue ſi peſcauo le perle.

In che modo ſi pigliano le perle, & in che luogo. Cap. XIIII.

ANCORCHE in Ormùs non ſi piglino perle; nè quelle ui ſi peſchino: nondimeno per pigliarſi in alcune Iſolette, quiui vicine: mi è parſo in queſto luogo farne mentione, Le megliori perle, che ſi trouino, ſono quelle, che ſi pigliano nell'Iſola di Bairen, & in quelle del Gionfar lequali ſono belliſſime, groſſe, & aſſai tonde, delle altre poi ſene pigliano in molte altre Iſolette uicine l'una all'altra, che ſi chiamano Latif. Laſen, Barechator, zezirafilbar, Alul, Seran, Deſue, Daas, Emegorcenon, Arzeui, zerecho Delmephialmas, sirbeniaſt, Aldane, Feſtebruatich, Cherizan, Dibei, Sarba, Agiman, Ras, Emelgouien, Raſagiar, Daoin, Raſaelchime, Sircorcor, Caſap, Con

G zar,

الصورة رقم ٢: صفحة من كتاب جسبارو بالبي، الطبعة الهولندية لعام ١٧٠٦، وإشارة إلى بر/بحر قطر، كتاب رحلة جزر الهند الشرقية
مكتبة قطر الوطنية، HC.FB.02871

عام ١٥٩٠م، رحلة الهند الشرقية[1]. وتعد إشارته المباشرة إلى ذكر «بحر قطر»[2] دلالة على مركزية تجارة اللؤلؤ في هذه المنطقة وانعكاسا لمركزية هذا النشاط البحري، وتعد إشارة جاسباروا بالبي وعي مبكر بأهمية هذه الشواطئ ومركزيتها في عمق هذه السواحل التي كشفت عن غنى ثري في مغاصات اللؤلؤ في القرون اللاحقة. وتظهر كتابات بالبي بأن الاهتمام الأوروبي في منطقة الخليج انتقل من مرحلة جمع المعلومات غير المباشرة إلى الاستكشاف المباشر مع نهاية القرن السادس عشر، وذلك لما تعكسه منطقة الخليج من أهمية كبرى للأسواق الأوروبية باحتوائها على مغاصات اللؤلؤ. كما يحيل إلى بر قطر، والإشارة إلى سواحل قطر، فيدل على الأهمية الأساسية التي كانت تلعبها قطر في توسع الأنشطة البحرية، مما أسس إلى جعل مدونات جاسباروا بالبي مصدرًا رئيسًا لبداية فهم اتجاه الأوروبيين واهتمامهم بسواحل شرق الجزيرة العربية والتركيز على

(١) فكري، محمد همام. (٢٠١١). قطر في القلب والتاريخ، مكتبة قطر الوطنية: مؤسسة قطر.

(٢) بالبي، غاسبارو. *رحلة غاسبارو بالبي سنة ١٥٧٩*. ترجمة بطرس حداد. بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨.

أهميتها الاقتصادية(١).

واتصالا بأعمال النفوذ البحري البرتغالي في منطقة الخليج العربي، يبرز لازارو لويس «□□□ □□□□□» (٢)رسام الخرائط البرتغالي الذي نشط في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وزار سواحل قطر في عام ١٥٩١م، ضمن محطات الاهتمام الإمبراطوري البرتغالي في تثبيت نفوذهم البحري في المنطقة، على الرغم من أن هذه الفترة شهدت تراجع الحضور البرتغالي بالمنطقة. إذ وصف قطر في إحدى خرائطه المرسومة بوصف «القلعة المنفردة» في أطلس العالم بتاريخ ١٥٩٦م، وهو توصيف يعكس الجانب العسكري والتصور الجغرافي الوصفي لما شاهده. إذ تعكس هذه الخرائط طبيعة التصورات عن هذه المنطقة والتحولات من وصفها منطقة مجهولة إلى منطقة معروفة نالت اهتمام الإمبراطوريات الأوروبية. وتعد هذه الخريطة البحرية لشرقي الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين من أهم وقدم الخرائط التي تعكس نوعية الخرائط البحرية البرتغالية المتقدمة لمنطقة الخليج. إذ ظهرت شبه جزيرة قطر على هيئة نتوء بارز داخل مياه الخليج، وتم رسم قطر برمزية «حصن كبير» به أربعة أبراج ومدخل ضخم مشرف على شاطئ الخليج. ويشار الحصن إلى منطقة الحويلة(٣).

ومع مطلع القرن السابع عشر، برز بيدرو تيكسيرا كأقدم رحالة من البحارة البرتغاليين الذين دمجوا علم الملاحة بالاقتصاد والتجارة، إذ كان هذا المستكشف البرتغالي يعمل لدى التاج البرتغالي في منطقتي الخليج العربي والمحيط الهندي وقدم وصفًا تفصيليًا خلال مسار رحلته التي بدأت من الهند حتى العراق مرورًا بسواحل الخليج العربي، وقدم إشارات جغرافية هامة لسواحل شبه الجزيرة العربية مثل جزيرة هرمز، ومسقط، والبحرين، مما شكل تأريخًا لأقدم المدونات الأوروبية عن طبيعة القوى السياسية في المنطقة والتفاعلات التجارية آنذاك. لاسيما وأنه شهد فترة ضعف القوى البرتغالية وصعود قوى أوروبية منافسة من الهولنديين والإنجليز، إلى جانب مقاومة القوى المحلية التي أدت إلى إضعاف الهيمنة البرتغالية(٤). إلى جانب ذلك جاء أول ذكر إلى قطر عبر عبارة

---

(1) Carter, Robert. “The History and Prehistory of Pearling in the Persian Gulf.” *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 48, no. 2 (2005): 139–209.

(٢) سلوت، بن.(٢٠١٥). صورة قطر في التراث الخرائطي القديم: ١٣٠٠-١٧٧٢م، مجلة رواق التاريخ والتراث: يونيو، الدوحة.

(٣)رمضان، محمود. (٢٠٠٦). قطر في الخرائط الجغرافية والتاريخية من ١٥٠-١٩٣١م، القاهرة. https://kenanaonline.com/users/katara/posts/228008

(4) Abed, Muslih Mohammed. 2020. “Portuguese Control of the Arab Gulf in the Sixteenth Century”. *Journal of Tikrit University for Humanities* 27 (10):324-44. https://doi.org/10.25130/jtuh.27.10.2020 .14.

«ساحل قطر»، في مدوناته الموسومة بـ«رحلات بيدروا تيكسيرا» الذي ترجمه للإنجليزية وليام سنكلير، عبر رحلة بدأها نحو عام ١٥٨٠-١٦٠٥م(١)، جاب خلالها سواحل الخليج العربي وقدم وصف جغرافي وطبيعي لهذه المناطق، ووصف إثنوغرافي لسكانها، إذ وصف سواحل قطر، بـ«بلاد صيد اللؤلؤ»، إذ يعكس هذا الوصف أهمية رحلة بيدروا تيكسيرا في وصف المناطق الحضرية التي مر بها، وأسطول الغوص على اللؤلؤ، كما أشار إلى إثنية القبائل التي سكنت سواحل شرق الخليج العربي، وأن غالبيتهم من العرب الذين عبروا عن غضبهم من وجود البرتغاليين في هذه المنطقة(٢).

في ضوء ما سبق، يمكن أن نستنتج أن مدونات الرحالة في القرنين السادس عشر والسابع عشر أشارت فقط لقطر في سياق وظيفتها الاقتصادية دون الإشارة إليها ككيان اجتماعي أو سياسي مستقل بذاته، وهذا ما يعكس عدم مركزيتها في الوعي الأوربي في تلك الفترة. وهذا ما يدل على أن التمثل الأوربي لقطر في القرنين المذكورين ينحصر في كونها مصدر للؤلؤ أو ممر تجاري بحري مهم في المنطقة، وهذا ما قد يفسر عدم اهتمام الرحالة المذكورين بفهم بناها المحلية على المستويين الاجتماعي والسياسي. وبناء عليه، يمكن القول إن صورة قطر في تلك الفترة تشكّلت ضمن منظور نفعي اختزالي، يخضع لأولويات التجارة والملاحة أكثر مما يعكس واقع المنطقة المعقد ومتعدد الأبعاد.

صورة قطر في مدونات الرحالة الغربيين خلال القرن الثامن عشر ميلادي

جدول2 : رحلة كارستن نيبور (١٧٦١)

وصف موجز لما كتبه	المهنة أو البعثة	سنة الرحلة	المنطقة التي زارها	اسم الرحّالة (بالإنجليزية / بالعربية)
أعدّ خرائط دقيقة ووصفًا جغرافيًا مفصلًا لسواحل الخليج، وذكر مدن أثرية قطرية مثل اليوسفية، الحويلة، فريحة وأشار إلى بعض القبائل وحدود قطر وجغرافيتها.	عالم رياضيات ورسام خرائط دنماركي – عضو في البعثة العلمية الألمانية	١٧٦١م	شرق الجزيرة والخليج العربي	**Carsten Niebuhr** كارستن نيبور

(1) Teixeira, Pedro: **The Travels of Perdo Teixeira,** Translation by William F. Sinclair, The Hakluyt Society, London, 1902, pp. 176, 177.visit via QNL: https://ediscovery.qnl.qa/islandora/object/QNL%3A00021448#page/13/mode/1up

(٢) غازي، علي عفيفي.(٢٠١٥). " قطر والرحالة: بيدرو تكسيرا"، مجلة الجسرة الثقافية، العدد ٣٩، الدوحة.

وبرز خلال القرن الثامن عشر الميلادي من ضمن الرحالة المستشرقين الغربيين، كارستن نيبور (١٧٣٣-١٨٥٠) م، حيث تأتي البعثة الدنماركية بأمر من ملك الدنمارك فريدريك الخامس، ليكون كارستن نيبور أحد أفراد البعثة التي لم تنجو من مشقة الرحلة وصعوبة الجغرافيا، حيث وصل كارستن نيبور وحيدًا إلى الهند، ليبدأ بمهام البعثة وواجباتها، بعد أن مكث في الهند ما يزيد عن ١٢ شهرًا. إلى أن قرر أن يعود إلى بلاده عبر المرور على سواحل الخليج ابتداءًا من مسقط ثم المرور عبر الخليج العربي حتى الوصول إلى البصرة. إذ قام بتوثيق جغرافي ووصفي لمنطقة شبه الجزيرة العربية، وذكر مدن في قطر مثل فريحة واليوسفية والحويلة. والجدير بالذكر بأن كريستن نيبور قد أسس قاعدة أساسية في القرن الثامن عشر، ساهمت بشكل كبير في فهم أهل شبه الجزيرة العربية وتذليل سُبل الارتحال، من خلال وصفه بأن عرب شبه الجزيرة العربية يتصفون بالتهذيب تجاه الأجانب، لكن يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار بأن على الأوروبي ألا يتجاوز سكان شبه الجزيرة، وأن يسعى إلى اكتساب صداقتهم، وأن يتجنّب انتقادهم والتعبير السلبي عما لا يُعجبه، وأن يحرص على الصدق في التعامل معهم لأن العرب يبغضون الانتقاص والخداع[١].

بناء على ما سبق، يظهر تحول نوعي في طبيعة المعرفة التي أنتجها الرحالة الأوروبيون عن قطر، فمقارنة بالقرنين السادس والسابع عشر، بدأت قطر تبرز، في القرن الثامن عشر، كمجال جغرافي محدد بوضوح، ويتضح ذلك أساسا من خلال عمليات المسح ورسم الخرائط. ويعكس هذا التحول انتقال صورة قطر ضمن الاهتمام الأوروبي من الوصف الهامشي والعام إلى التشكل العلمي الدقيق المتجاوز للأفكار المسبقة والسرديات الانطباعية، ويُمكن تفسير ذلك أساسا بتطور أدوات المعرفة الجغرافية من ناحية، وبتزايد البعثات الاستكشافية العلمية من ناحية أخرى. وهذا ما ساهم في بداية حضور صورة قطر ككيان جغرافي مستقل على خارطة الاهتمام والوعي الأوروبي، ولكن دون أن يشمل ذلك بنيتها الاجتماعية أو السياسية.

(١) بيرين، جاكلين(١٩٦٣). اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة: قدري قلعجي، دار الكاتب العربي بيروت، بغداد: مكتبة النهضة، ص١٤٩.

مدونات الرحالة الغربيين حول قطر خلال القرن التاسع عشر الميلادي

جدول 3: قائمة بالرحالة الذين زاروا المنطقة خلال القرن ١٩م

اسم الرحّالة (بالإنجليزية / بالعربية)	المنطقة التي زارها	سنة الرحلة	المهنة أو البعثة	وصف موجز لما كتبه
ديفيد سيتون David seton	سواحل الخليج، وزار البدع والزبارة في قطر	١٨٠١م	مبعوث سياسي بريطاني ورحّالة	أشار إلى سواحل قطر، ومسارات طرق الملاحة وتجارة اللؤلؤ والقبائل المهاجرة.
Domingo Badía y Leblich علي باي العباسي	الجزيرة العربية	١٨٠٦م	عميل استخباراتي فرنسي متنكر باسم مسلم	رصد الأوضاع السياسية والاجتماعية ضمن خطة فرنسية لمنافسة النفوذ البريطاني.
Johann Ludwig Burckhardt يوهان بوركهارت	الحجاز وشرق الجزيرة	١٨١٤م	رحّالة ومستكشف سويسري تابع للجمعية الجغرافية البريطانية	تناول أوضاع الدولة السعودية الأولى وطرق القوافل في شرق شبه الجزيرة العربية.
William Gifford Palgrave وليم بلجريف	وسط الجزيرة وشرقها (الأحساء وقطر)	١٨٦٢-١٨٦٣م	مبشر بريطاني متنكر باسم "سليم أبو محمد"	قدّم وصفًا للمجتمع والعادات لكنه متحيز دينيًا واستشراقيًا واضحًا.
Lewis Pelly لويس بيلي	الرياض ونجد وشرق الجزيرة	١٨٦٥م	مبعوث سياسي بريطاني – المقيم السياسي في الخليج	أعدّ تقارير عن القبائل والنفوذ العثماني، ورسّخ حضور بريطانيا السياسي في منطقة الخليج.

ومع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، برز وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية «ديفيد سيتون» في سلطنة عُمان، بمسار جولاته حول مدن الخليج العربي التي بدأت في نوفمبر ١٨٠١م. إذ رافق سلطان مسقط في مسار رحلة انطلقت من مسقط نحو جزيرة البحرين. وساهمت رحلاته حول سواحل الخليج في تدوين مشاهداته وانطباعاته خلال زيارته لساحل قطر، إذ تركزت حول القبائل وخاصة العتوب الذين سكنوا المحرق وتنقلهم إلى الزبارة بسبب نشاط المنطقة تجاريا والمرور بمنطقة الحويلة، حيث تمت الإشارة إلى منطقة الحويلة كموقع لتوقف أسطول الإمام سلطان البوسعيد، حيث كانت الحويلة في عام ١٨٠١ الموقع الرئيسي لقطر وتضم حصن ضخم وميناء كبير. وتشير المذكرات إلى وصف ديفيد سيتون لمنطقة البدع ووصف المنطقة الممتدة من القطيف

إلى راس عشـيرج بأنها منطقة مقفرة وقاحلة لولا وجود مصـائد اللؤلؤ التي تجذب السـكان لهذه المغاصات(١).

ويشـار إلى يوهان لودفيج بوركهارت (١٧٨٤-١٨١٧م) بأنه واحد من أكثر الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية ووصـفوها بدقة، على الرغم من أن وجهته الأساسية لم تكن نحو شبه الجزيرة العربية، بل كانت باتجاه تمبكتو، إلا أن مسـار رحلته قاد إلى اكتشـافات تاريخية هامة تمثلت في مدينة البتراء ومعبد أبوسمبل إلى جانب رحلته إلى مكة ومعايشته لأهلها. كما يُشـار إلى أن رحلة بوركهارت إلى شبه الجزيرة العربية كانت من تمويل الجمعية الجغرافية الأفريقية الممولة من «إدارة المستعمرات البريطانية» بهدف التعرف على المنطقة ووقف أية مشـاريع للتوسع الروسي[٢]. كما لم ترد قطر بشكل صريح في مذكراته، لكن تعلمه للغة العربية أثناء إقامته في سـوريا، مما مهد له بأن يسـافر إلى الحجاز ويتظاهر بالإسلام حتى تسمى بإبراهيم ابن عبدالله. وشكلت مدوناته مرجعا اجتماعيا واثنوغرافيا عن بدو شـبه الجزيرة العربية(٣).

ولم يزر علي بك العباسـي (دومينغو باديا ليلبيش) قطر تحديدا ولم يقترب من سـواحل شـبه الجزيرة العربيـة، لكن توقيت رحلته في عـام ١٨٠٧م إلى مكة وأدائه لفريضـة الحج ووصـفه لمكة المكرمة وشعائر الحج ومناسك منى، بعد أن برع في انتحال شـخصـية المسـلم العربي ضـمن هوية أصـيلة من نسـل العباسـيين، كلها عوامل سـاهمت في اعتباره من أبرز المصـادر الأولية في تقديم خلفية اجتماعية وسـياسـية هامة عن الجزيرة العربية في فترة القرن التاسع عشر[٤].

ويأتي ذكر وليم جيفورد بلجريف باعتباره من أوائل الرحالة الذين زاروا قطر في نهايات التاسـع عشـر الميلادي. كانت رحلة بلجريف إلى قطر جزءًا من رحلته إلى شـبه الجزيرة العربية، فبعد مغادرته الرياض اتجه إلى الهفوف وصـولا إلى البحرين وقطر، وقدم وصـفًا اجتماعيًا وجغرافيًا عنها. إذ وصـف منطقة البدع[٥]، وأشـار إلى ملاحظاته عن الغوص، إضـافة إلى إشـارته إلى شـيوخ قطر وهم

(١) سيتون، ديفيد.(٢٠١١). يوميات ديفيد سيتون في الخليج ١٨٠٠-١٨٠٩م، تحقيق سلطان القاسمي، منشورات القاسمي: الشارقة.

(٢) رالي، أغسطس. (٢٠٠٩). مكة المكرمة في عيون رحّاة نصارى. ترجمة: حسن غزالة، دارة الملك عبدالعزيز، ص ٢٩.

(٣) بوركهارت، جون لويس. (٢٠٠٧). ترحال في الجزيرة العربية: مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين، ترجمة : صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة: القاهرة.

(٤) إبراهيم، عبد الله.(٢٠١٣). الصحراء، والارتحال، والإمبراطورية[illegible]، ٥٥-٨٨.

(٥) العبدالله، يوسف.(٢٠١٨). صورة قطر في كتابات الرحالة والمستكشفين: رحلة بالجريف إلى قطر عام ١٨٦٣م. نموذجا. مجلة المؤرخ المصري، ع ٥٣، ٨٧-١٠٨.

الشيخ محمد بن ثاني الذي وصفه بالحكمة والروية والرقة. كما جاء هدف بلجريف ضمن بواعث زيارته إلى شبه الجزيرة العربية إلى بث ملامح الحياة الأوروبية في المشرق إلى جانب الرحلة التنصيرية ضمن الخدمات الإنسانية والطبية، بالإضافة إلى رصد الحياة الاجتماعية لأهل الجزيرة العربية. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرحلة قد واجهت تشكيكا في شخصية بلجريف ودوافعه الحقيقية تجاه الرحلة، إذ تنكر بشخصية الطبيب وتارة أخرى بالتاجر المتجول، إلا أنه وصف بأنه كان جاسوسًا وعميلا، لاسيما وأنه أشار بأن رحلته كانت بتمويل سخي من الامبراطور الفرنسي نابليون بونابرت، والتي بها إعلان بصراحة بأنه عميل. كما واجهت رحلة وليام بلجريف العديد من النقد والتشكيك في صحة المعلومات التي أوردها في كتابه، لاسيما من قبل الرحالة الذين جاؤوا من بعده مثل داوتي وفيلبي ولورنس. كما أن فيلبي ينفي قيام بلجريف بالرحلة إلى شبه الجزيرة العربية وأنه أرسل أشخاصًا بالإنابة عنه لجمع المعلومات.(١)

وبالحديث عن المقيم البريطاني لويس بيلي فإن شخصيته وسماته التي عرُف بها على إدارة الأزمات الخارجية والداخلية؛ أهّلته لأن يكون مرشحًا من الحكومة البريطانية التي سعت إلى تعزيز نفوذها في منطقة الخليج، عبر العمل على إعداد تقارير تنقل أحوال الخليج والتي تلخصت في التقارير الاستخباراتية وهي التي تضم توثيق دوري ومنتظم للأحداث التي لها تأثير على مصالح بريطانيا، مثل تنفيذ المعاهدات المبرمة مع بريطانيا، وحماية رعاياها من السكان البريطانيين والتابعين لهم من التجار الهنود (البانيان)، وتسويات النزاعات القانونية. كما كانت مهمة المقيم البريطاني إعداد التقارير الاستقصائية وهي للتحقيق في الأحداث التي من شأنها أن تثير الارتباك والاستقرار وتثير قلق المسؤولين البريطانيين، من خلال جمع معلومات دقيقة حول شخص أو حادثة معينة. أما إعداد التقارير التجارية فتلك التي تركز على أحوال التجارة وحركة السفن والأسعار(٢). وفي سياق ذكر السير لويس بيلي وتاريخ قطر، يعد شخصية رئيسية في تاريخ الخليج، إذ أنه كان المقيم السياسي

---

(١) فكري، محمد همام.(١٩٩٥).مجلة آفاق الثقافة والتراث- مجلة فصلية ثقافية صادرة عن مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث: دبي.

(٢) المنذري، منذر.(٢٠٢٤). لويس بيلي ودوره في السياسة البريطانية في الخليج العربي ١٨٦٢-١٨٧٣م، الدار العربية للموسوعات.

في المنطقة، وأهميته بالنسبة لتاريخ قطر تتمثل في إقراره بخطاب رسمي بسيادة قطر المستقلة في عام ١٨٦٨م بعد مرحلة مفاوضات الهدنة البحرية التي شهدت اضطرابات بين مشيخات المنطقة في فترة ١٨٦٧-١٨٦٨م. إذ أن التزام الشيخ محمد بن ثاني بالإلتزام بالهدنة البحرية إلى المقدم لويس بيلي، تعكس استقلالية قطر وسيادتها بالنسبة إلى شيوخ المنطقة وإلى أطراف القوى الأجنبية في منطقة الخليج(١).

صورة قطر في مدونات الرحالة الغربيين خلال القرن التاسع عشر ميلادي

بالنظر إلى طبيعة مدونات القرن التاسع عشر في منطقة الخليج ومعاينة ما تم رصده حول قطر في كتابات الرحالة. نلاحظ بداية تحول جليّ في تغيّر الصورة نحو منطقة الخليج لدى الوعي الأوروبي، والانتقال من حالة التعامل مع منطقة ذات سمة «مجهولة» جغرافيًا إلى منطقة مجال «نفوذ» تبلورت وأصبحت مركزًا للمصالح، وانتقال مرحلة التدوين من مسارات الرحلة الفردية إلى مرحلة التوثيق والأرشفة النظامية الممنهجة من الحكومة المعنية. وهذا ما عبّرت عنه التقارير التي عكف عليها لويس بيلي ودوره في تثبيت الوجود البريطاني في منطقة الخليج منذ فترة مبكرة مقارنة بمنافسة القوى الأوروبية على الاستحواذ على المنطقة.

كما أن رحلات القرن التاسع عشر الميلادي إلى شبه الجزيرة العربية قد عكست تحولا واضحا تجاه نظرة العالم الغربي نحو الجزيرة العربية من حيث التصورات. حيث أن قسوة المناخ ووعورة البيئة وشدة الرجل البدوي وثقافته، جعلت من هذه المنطقة عصية عن الانفتاح بشكل كبير، ليكتنفها الغموض والتحدي أمام محاولات تدخل الرحالة الغربي لفهم هذه البيئة. وبالرغم من هذه التحديات فمع بداية القرن التاسع عشر الميلادي اتجه العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين، نحو الجزيرة العربية مدفوعين بأهداف مختلفة تنوعت بين الفضول العلمي، وتعزيز الوجود السياسي لبسط القوة والنفوذ، إضافة إلى الحملات الدينية والتنصيرية وتقصي المسارات الدينية وتلك التي دفعت ببعض الرحالة أمثال علي باي العباسي وبوركهارت في التنكر بهويات مسلمة للوصول إلى المدن المقدسة والاختلاط بأهل مكة المكرمة، بالرغم من توتر تلك المناطق في تلك الفترة بسبب التغيرات السياسية التي طرأت مع بدايات ظهور الحركة الوهابية في أواسط القرن

---

(١) [illegible] ، 'وصف للسير لويس بيلي' مكتبة قطر الرقمية <[illegible]/العربية/ وصف-للسير-لويس-بيلي?[illegible]> [تم الوصول إليها في ٢٥ ديسمبر ٢٠٢٥]

الثامن عشر الميلادي(١).

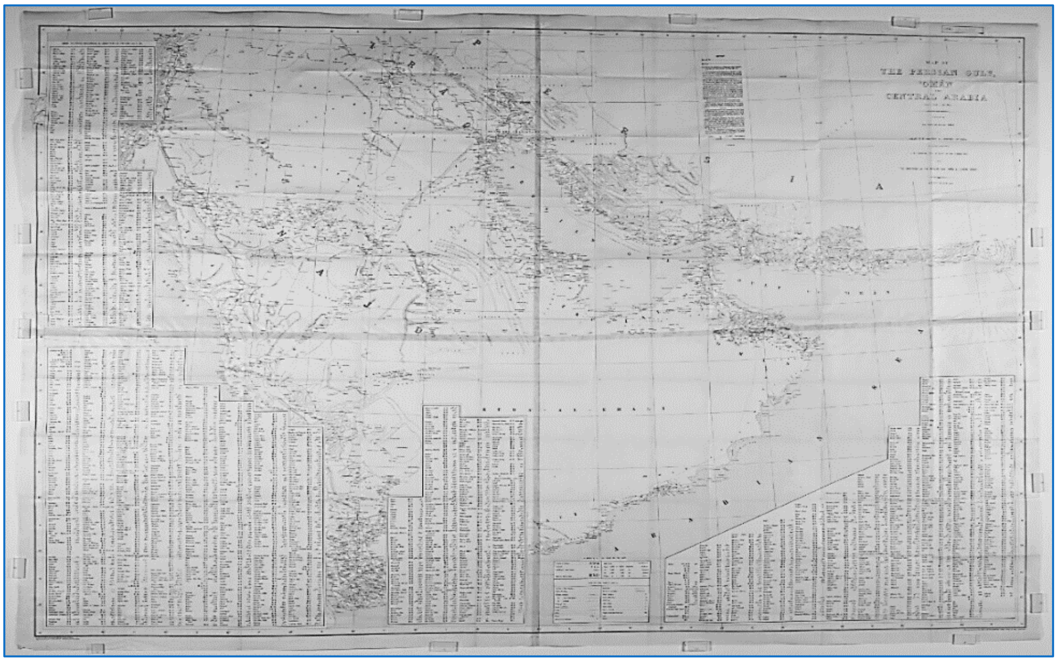
شـهد الربع الأخير من القرن التاسـع عشـر تزايدًا ملحوظًا في الأهمية الاستراتيجية والسياسية لمنطقة الخليج العربي، وذلـك بسـبب تنـافس القوى الأوروبيـة، ممـا دفع الحكومـة البريطـانيـة بتكثيف أنشـطتها في تلك الفترة وصـولا إلى بدايات القرن العشـرين في المنطقـة عبر إجراء المسـوحـات الجغرافية والاجتماعية. تلك الحاجة عبر عنها اللورد كيرزون نـائب ملـك بريطـانيـا في الهنـد (١٨٩٩-١٩٠٤م) بعد جولته الأخيرى في الخليج في عام ١٩٠٣م. تمخضـت عن تلك الزيارة إعداد دليـل جغرافي تـاريخي، يمثـل مرجعًـا أسـاسـيًـا للمسـؤولين السـياسـيين البريطانيين، إذ قاد هذا المشـروع جون جوردن لوريمر الذي قام بتشـكيل فريق من البـاحثين والجغرافيين، الـذين رافقوه خلال رحلاته الموسعة على سواحل الخليج والتي وثق فيهـا القبـائـل التي سـكنت الخليج ووسـط الـجـزيـرة الـعـربـيـة وأحـوالـهـم الاجـتـمـاعـيـة والاقتصادية. وشكلت منهجية الملاحظة المباشرة والدراسـة الميدانية والمعاينة اليومية أداة لوريمر الأساسـية في عملية التوثيق، إلى جانب الاسـتعانة بسـجلات حكومة الهند البريطانية التي أتاحت له جميع أرشيف الوثائق وتقارير السفارات وملفات البعثات السياسية والتجارية والأعمال العسكرية، وأوراق المعاهدات السياسية والاتفاقيات.

وتمخضـت أعمال البريطاني جوردن لوريمر الذي عمل لدى الحكومة البريطانية في الهند خلال الفترة ١٩٠٣-١٩١٥م عن إصـدار مجلدات ضـخمة انقسـمت إلى أجزاء تـاريخية وأجزاء جغرافيـة. شـكلت رصـيدًا أوليًا معرفيًا ضـم مسـوحات للأرصـاد الجوية والصـحة في منطقـة الخليج «الفارسـي» كما يوثقه في مدوناته، إلى جانب عدد من الملحقات التي رصـدت مصـائد اللؤلؤ في الخليج ومسـارات الإنتاج الزراعي وتجارة التمر، بالإضافة إلى رصد شامل لعدد المراكب الشراعية التي تملكتها القبائل في الخليج، والحيوانات التي اسـتخدموها أهل البادية في النقل والماشـية، كما رصـد الأوبئة والحياة الصحية في الخليج ومهمات الإرسـاليات الغربية والتنصـيرية التي جاءت لسواحل الخليج العربي وغيرها من التوثيق للحياة السـيـاسـيـة والاجتماعيـة في منطقـة الخليج[٢].

(1) Koger, G. (2023). *Exploration of Arabia*. EBSCO Research Starters. https://www.ebsco.com/research-starters/history/exploration-arabia

(٢) "دليل الخليج. مجلد I. القسم التاريخي. الجزء II. ج. ج. لوريمر. ١٩١٥" [٦٤٦٢] (١٢٦٢/ ١١٦٣) والمكتبة البريطانية: أوراق خاصة وسجلات من مكتب الهندو [illegible] ومكتبة قطر الرقمية <[illegible]» [تم الوصول إليها في ١٦ يناير ٢٠٢٦]

وتبلورت أهمية هذه التقارير التي كانت سرية لفترة ليست بوجيزة، عندما اتجهت حكومة قطر عبر قسم الترجمة بالديوان الأميري بأمر من حكامها السابقين رحمهم الله ابتداءًا من الشيخ أحمد بن علي آل ثاني والشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، بتسخير الجهود لترجمة هذه التقارير إلى اللغة العربي التي جاءت مناصفة في أربعة عشر مجلدا بين القسمين التاريخي والجغرافي[1]. كما استمرت هذه الجهود بتحديث طبعة جديدة في عهد الأمير الوالد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني في عام ٢٠٠٢م. وفي التالي نشير إلى خريطة موضحة التضاريس للخليج العربي وشبه الجزيرة العربية والتي تم إعدادها ضمن مرفقات " دليل الخليج" لجون جوردن لوريمر، والتي تظهر توضيحات الطرق وخطوط السكك الحديدية ومخططات الإنشاء بالإضافة إلى خطوط التلغراف البحرية وحدود الأقاليم، كما تم إرفاق فهرس بالأبجدية لتصنيف فهرس الأسماء باللغتين العربية والإنجليزية. وتجدر الإشارة إلى أنه تم تصنيف هذه الخريطة على أنها " سرية" بهدف توثيقها وحفظها ضمن أرشيف الوثائق السرية و«التخلص منها» ولهذا يأتي تذييل هذه الخريطة ب عنوان «نسخة رقم ٣٥».



خريطة للخليج العربي تم إعدادها ضمن مرفقات دليل الخليج وعُمان ووسط الجزيرة العربية، ١٩٠٥م –

(١) العناني، أحمد.(١٩٨١). قطر في دليل الخليج، قسم الوثائق والأبحاث، الديوان الأميري: الدوحة.

رقم الاستدعاء [illegible] :(1)

لا غرو في القول أن تدوين الوثائق بجميع أشـكالها يأتي ضـمن سـياق منحاز، لأنه يسـتحال لمدون التاريخ أن يفصـل تمامًا بين ما هو موضـوعي وما بين ما هو ذاتي، مما يجعل حالة الكتابة المحايدة أمرًا مسـتحيلًا. وفي سـياق الكتابة عن قطر، فإن رصـد المؤرخ يأتي في سـياق تأريخ لأفق ممتد عبر الصـحراء إلى يابسـة ممتدة في عمق الخليج، مما يعكس أن بيئة قطر تتصـف بـالرمـال المتحركـة والأمواج المناسـبة، ويجعل الكتابة التاريخية عن قطر تتصـف بالتحدي وصـعوبة إمسـاك المعلومة وتدوينها، إذ كثيرًا مما تم تداوله لم يتجاوز الرواية الشـفاهية، وهذا ما يفسّـر حالة وصـف القوى وتوازنها طبقا لطبيعة المصالح(٢).

من خلال ما سـبق، يتضـح تطور ملحوظ لصـورة قطر في مـدونـات الرحـالـة الأوربيون، ففي القرن التاسع عشر لم تتناول هذه المدونات قطر على أنها مجرد منطقة جغرافية أو موقع اقتصـادي كما كان ذلـك خلال الفترة الممتـدة بين القرنين السـادس عشر والثامن عشر ميلادي، بل بدأت تبرز كمنطقة تحظى باهتمام سياسي واستراتيجي واضح بحكم موقعها المؤثر في حسـابات القوة والنفوذ في منطقة الخليج العربي. ويتجلى ذلك بوضـوح من خلال الزيادة الكمية لتقارير البعثات الرسـمية والمهام الاستكشافية الأوروبية وفي تحول محتواها، والذي أصبح يحمل طابع استخباراتي وسياسي بالأساس. وهذا ما سـاهم في بداية تشـكل صـورة قطر لدى الرحالة الغربيين ككيان اجتماعي (قبلي) يخضـع لتنظيم محكم تتبلور ضمنه منظومة سياسية مستقلة وقائمة بذاتها. ولكن، لا يمكن في أي حال من حال من الأحوال عزل هذه التصـور الأوروبي الجديد لقطر عن مشـاريع التوسـع والنفوذ الاسـتعماري، وهذا ما يجعل من هذه الصورة بعيدة كل البعد عن الحيادية والمعرفة العلمية البحتة.

صـورة قطر في مدونات الرحالة الغربيين خلال القرن العشرين ميلادي

يتضمن الجدول أدناه نحو ١٤ مصدرًا من مدونات الرحالة والبعثات العلمية التي أوردت في مضـمونها ذكر قطر من الجوانب السـياسـية والاجتماعية

(١) خريطة للخليج العربي، "عُمان ووسط الجزيرة العربية أعدها الملازم أول ف.ف. هوندر في وزارة الخارجية في شيملا، مسح الهند من قبل الجيش الهندي، بالتشاور مع ج.ج. لوريمر، والمكتبة البريطانية: أوراق خاصة وسجلات من مكتب الهند[illegible] ومكتبة *قطر الرقمية*] [illegible] " تم الوصول إليها في ١٦ يناير ٢٠٢٦.

(٢) حجر، جمال.(٢٠١٩). تاريخ قطر الحديث في وثائق الأرشيفات البريطانية، مجلة تاريخ وتراث (رواق)، الدوحة، مركز حسن بن مجمد للدراسات التاريخية.

والاقتصادية والجغرافية والأثرية خلال القرن العشرين الميلادي. ولعل ثراء المدونات في هذا القرن يعكس تحولًا جليًا في أهداف الرحلة التي عكف عليها الرحالة الغربيين، والتي انتقلت من الاستكشاف والحالة الوصفية، إلى اعتبار الرحلة والتدوين أداة مؤسسية تخدم الجهات التابعين لها سوءًا كانت سياسية، نفطية، أثرية، طبية. إذ يتجلى هذا الجانب في تقارير المقيم السياسي في بوشهر لدى حكومة الهند البريطانية، جون لوريمر الذي شكل عمله رفقة الفريق البحثي عملية تجميع لوثائق سرية، ضمت معلومات مسحية اثنوغرافية واجتماعية وجغرافية لمنطقة الخليج في ظل ازدياد التنافس وصراع القوى الأوروبية(١).

جدول4 :قائمة الرحالة الذين زاروا المنطقة في القرن العشرين

موجز وصفي	المناطق التي زارها في قطر	الصفة/ البعثة	الرحّالة (بالإنجليزية / العربية)	السنة
"تجميع لوثائق سرية خاصة بحكومة الهند البريطانية... تقارير سياسية واجتماعية واقتصادية، وتوثيق للقبائل ورصد للمناطق... في ظل التنافس الأوروبي على الخليج".	قطر والخليج	المقيم السياسي البريطاني في بوشهر – حكومة الهند البريطانية	John Gordon Lorimer جون جوردون لوريمر	1903
"حصل على إذن بالتصوير؛ صوّر شاطئ البدع والسفن، وقلعة العسكر وبعض الجنود الأتراك، وصورة لمسجد أبو القبيب".	من دوحة سلوى إلى الدوحة	رحّالة ومصوّر فوتوغرافي	Hermann Burckhardt هيرمان بورخارت	1904
قام بريدوكس بزيارة قطر عام ١٩٠٥ حيث قام بزيارة قلعة الشيخ جاسم في الوسيل ثم بعد ذلك انتقل لمقابلته في المناطق الداخلية حيث قام بوص الطريق من الوسيل الى مكان معسكر الشيخ جاسم بن محمد كما وصف الشيخ جاسم، وبعد ذلك انتقل الى البدع لزيارة الشيخ احمد بن محمد.	الوسيل،الصخامة،بو حصا،المزروعة،البدع	الوكيل السياسي في البحرين	F. B. Predoux إف. بي. بريدوكس	1905
"زيارة للتباحث مع الشيخين جاسم وأحمد حول الوضع السياسي، والاستكشاف عن	الدوحة (البدع)	السير، المقيم السياسي البريطاني في الخليج	Percy Cox بيرسي كوكس	1915

(١) العناني، أحمد.(١٩٨١). قطر في دليل الخليج، قسم الوثائق والأبحاث، الديوان الأميري: الدوحة.

موجز وصفي	المناطق التي زارها في قطر	الصفة/ البعثة	الرحّالة (بالإنجليزية / العربية)	السنة
الحامية التركية في البدع؛ وصف الوسيل والطريق إلى الصخامة وبو حصى والمزروعة". التقى الشيخ عبدالله بن جاسم آل ثاني.				
قام الرحالة بعدة زيارات لقطر خلال رحلات طبية تبشيرية من خلال دعوة من الشيخ عبدالله بن جاسم،حيث قام بجولة في الدوحة والسوق،كما وصف الاوضاع في مستوصف الدوحة	الدوحة، الرويس، قرى الساحل الشرقي	قسّ؛ رحلات تبشيرية طبية	Gerrit Pennings / جيريت بننجس	1918
وصف بعض الطيور التي شاهدها في المنطقة الحدودية بين قطر والسعودية	منطقة سلوى (الحدود القطرية–السعودية)	ميجور/ عالم طيور بريطاني	Robert Ernest Cheesman / روبرت إرنست تشيزمان	1921
قامت بعثة البحث الجيولوجي بالتنقيب والكشف عن البترول في قطر من خلال زيارة عدة اماكن في قطر من خلال الدليل القطري منصور بن خليل الشهواني،حيث قامت البعثه بكتابة تقرير عن نتيجة أعمالها في قطر.	سلوى، جبل العديد، آبار نعيجه، قلعة الشيخ عبدالله بن جاسم، أوُبير	بعثة جيولوجية/ نفطية	Eccles / بعثة; شركة النفط الإنجليزية–الفارسية	1925
الرحلة الأولى عام ١٩٢٥ كان الرحالة مصاحبًا لبعثة الكشف الجيولوجي إلى قطر والتي كانت تضم الجولوجي ام.ليز وكذلك واشنطن جراي،وعالم النباتات فرنانديز.قام عبدالله وليمسن في اثناء رحلته الثانية عام ١٩٣٣بكتابة عدة تقارير عن قطر، منها تقرير عن الأسرة الحاكمة في قطر،الموارد المالية للشيخ عبدالله بن جاسم،المواقع والاماكن الجغرافية في قطر،كما كتب تقرير عن مصادر المياة في قطر. كما التقى	الدوحة، سوق الدوحة، بساتين الريان	ضابط بحري/ رحّالة موظف لدى شركة النفط	عبدالله وليمسن– وليام ريتشارد وليمسن	1925

موجز وصفي	المناطق التي زارها في قطر	الصفة/ البعثة	الرحّالة (بالإنجليزية / العربية)	السنة
الشيخ عبدالله بن جاسم،الشيخ حمد بن عبدالله آلثاني،مأمور جمرك قطر، مأمور جمرك قطر				
يعد توماس هو أول رحاله قام بعبور صحراء الربع الخالي من عمان الى قطر، ويستعرض في كتابه تفاصيل رحلته،كما ذكر عن معلومات جغرافية لقطر وبعض الاماكن التي زارها مثل النعيجة،ابراج الدوحة،والقلعة، وأجتماعه مع الشيخ عبدالله بن جاسم في عام ١٩٣٠،ويحتوي الكتاب على صوره التقطها توماس للشيخ عبدالله مع كلا من محمد وصالح المانع.	سلوى، نعيجة، أبراج الدوحة، القلعة	رحّالة ومستشار مالي، مفوّض لسلطان عمُان	Bertram Sidney Thomas / برترام سيدني توماس	1931
اهتم هاري بالكشف عن الآثار في قطر، حيث اكتشف مجموعة من الأدوات الحجرية تعود الى عصور جيولوجية قديمة	جنوب قطر	مستشار سياسي بريطاني/ مستكشف	Harry St. John Philby الحاج عبدالله– فيلبي	1931
رحلة تبشيرية طبية كان الهدف منها مساعدة الشيخ عبدالله بن جاسم الثاني على انشاء مستوصف الدوحة وايضا علاج بعض المرضى اثناء الرحلة	الدوحة، الريان	بعثة تبشيرية طبية بعثة الإرسالية الأمريكية العربية	بعثة الارسالية الامريكية العربية– كورنيلا دالنبيرج (شريفة الأمريكانية) اتش ستورم،بيه دبليو هاريسون	1941
التقى الصحفي بشخصيات بارزة من قطر وهم: الشيخ علي بن عبداله الثاني،عبدالرحمن الدرويش،قاسم الدرويش،عبدالله الدرويش،عبدالله العثمان،أحمد خليل الباكر،أحمد الملا،حسن عبدالله مراد سكرتير	الدوحة، دخان، أم سعيد	صحفي أرمني	Karnik George Minassian كارنيك جورج ميناسيان	1953

موجز وصفي	المناطق التي زارها في قطر	الصفة/ البعثة	الرحّالة (بالإنجليزية / العربية)	السنة
الشيخ أحمد بن علي. كانت رحلة الصحفي الأرمني كارنيك جورج إلى قطر عام ١٩٥٣م. حيث قام بعدة جولات في مدينة الدوحة واصفًا مظاهر الحياة فيها، ومقابلته للشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، وكذلك زيارته إلى مدينتي دخان وأم سعيد				
أجرت البعثة الدانماركية عمليات التنقيب الأثرية والأبحاث الأثونغرافية بخصوص الحياة في قطر في فترة الخمسينات من القرن الماضي،حيث قام البعثة باعداد عدد من الابحاث والتقارير.	شمال قطر، مروب، أم صلال، الدوحة، الريان، ميناء الدوحة، جنوب قطر	بعثة استكشافية/ تنقيب	The Danish Expedition / البعثة الدانماركية	1959
قام الصحفي جون بولوك برحلة إلى شبه الجزيرة العربية في السبعينيات من القرن الماضي، ومر بدولة قطر وعاين فيها التطورات وآثار التنمية بعد مرحلة اكتشاف البترول. وتضمنت قراءته قراءة تحليلية لدولة قطر وإرادتها السياسية، وقراءة اجتماعية مقارنة مع دول الخليج المجاورة. والتقى شخصيات من حكام قطر وهم الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني. الشيخ عبدالله بن حمد آل ثاني	قطر (متعددة)	صحفي بريطاني	John Bullock / جون بولوك	1988

أما مدونات هيرمان بورخارت التي رُصدت في يناير ١٩٠٤م، خلال جولة قام بها في منطقة الخليج ابتداءا من عام ١٩٠٣م حتى عام ١٩٠٤م، من البصرة وصولًا إلى مسقط، وقام بتوثيق المناطق التي مر بها وتصويرها. إذ تشكل هذه الرحلة نقلة في طبيعة التوثيق والتدوين، إذ قام بالتوثيق البصري من خلال الصور الفوتوغرافية، حيث بحصوله على إذن بالتصوير، وثق مشهدًا من أقدم الصور

التي تم التقاطها لساحل البدع وتظهر قلعة العسكر ومسجد أبو القبيب وبعض الجنود الأتراك لوجود الحامية العثمانية آنذاك، حيث أنه وثق خلال مساره الذي استمر ١٢ يومًا من حدود سلوى إلى الدوحة، ويشار إلى أنه من المحتمل أنه التقى الشاعر القطري الشهير الفيحاني ومجموعة من الجنود الأتراك، لاسيما وأنه تعرض لاستجواب من الحامية العثمانية، بعد توجيههم له بأخذ الإذن من شيوخ قطر، حيث أن سلطة الأتراك لا تتجاوز السلطة الاسمية، ليكون بورخارت من الرحالة القلائل الذين لم يملكوا أهدافًا عسكرية أو استخباراتية، حيث أن التقاط الصورة كان هدف هذا الترحال[1].

وشهد عام ١٩٠٥م زيارة الوكيل السياسي المقيم في البحرين بريدوكس، والذي وثق فيه لقاءه بالشيخ جاسم بن محمد آل ثاني، واطمئنانه على صحته وصحة العين لديه، كما تضمنت مراسلات بريدوكس بعض الإشارات حول إثارة القلائل من القبائل المجاورة، ومحاولة إثارة الفتنة، مما يعكس أن زيارة بريدوكس لم تكن رحلة فحسب، بل رحلة تقصي سياسي للأوضاع الداخلية والمناطق مثل لوسيل والبدع[2]، لاسيما وأن رحلته سبقت حدثًا كبيرًا وهي الحرب العالمية الأولى وانهيار الحامية العثمانية وقوتها في المنطقة.

ونرصد مع بورخارت (١٩٠٤) انتقالًا من نصوص القرن ١٩ الأدبية إلى التوثيق البصري المباشر؛ إذ تكمل الصور الفوتوغرافية نقص الوصف النصّي، وتمنح قطر (البدع/ قلعة العسكر) حضورًا ماديًا قابلاً للتحقق. وتأتي زيارة بريدوكس(١٩٠٥) لتؤكد أن الوكيل السياسي لا يدوّن "رحلة"، بل يتقصّى وضعًا سياسيًا (الوسيل–الداخل–البدع)، في لحظة حساسة سبقت الحرب الكبرى.

أما زيارة المقيم السياسي البريطاني السير بيرسي كوكس في أكتوبر ١٩٠٥ للخليج وتحديدا البدع، فإنها تقدم قراءة عن سلوك الإدارة البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى، وقنوات اتصالها التي شكلتها مع شيوخ المنطقة. حيث أن كوكس هدف خلال هذه الزيارة إلى لقاء الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني والشيخ أحمد بن حمد آل ثاني، للحديث عن الوضع السياسي في الخليج وعن قطر خاصة

(١) أنغريت نيبا وبيتر هربسترو.(٢٠٠٩). رحلة عبر الخليج العربي من البصرة إلى مسقط، من خلال صور نادرة للرحالة هيرمان بورخارت، هيئة ابوظبي للثقافة والتراث: أبوظبي.

(٢) [illegible]

بوجود الحامية التركية في البدع. كما أنه وصف منطقة لوسيل والمناطق القريبة منها والمزروعة وبوحصى. لتساهم هذه الزيارة في فترة لاحقة في التمهيد للتوقيع على معاهدة الحماية مع الحكومة البريطانية في عام ١٩١٦م والتي انتهت في عام ١٩٧١.

وخلال الفترة ١٩١٨-١٩٢٣م، برز مسار جديد من أهداف الرحالة وهي ضمن الدوافع التنصيرية الدينية تحت الغطاء الطبي. وذلك عبر زيارة القسيس جيريت بننجس الذي قام بعدة زيارات إلى قطر خلال رحلات طبية تنصيرية، تلبية لدعوة من الشيخ عبدالله بن جاسم،حيث قام بجولة في الدوحة والسوق،كما وصف الاوضاع في مستوصف الدوحة، إضافة إلى مروره بالرويس الذي قابل فيها الشيخ عبدالله بن جاسم آل ثاني؛ شيخ الرويس آنذاك. وتمثلت زيارته خلال فترتين منفصلتين في عام ١٩١٨م و١٩٢٣ بتوجيه من الإرسالية العربية الأمريكية[١]. وتعد هذه الزيارة من أوائل الخطوات التي دفعت بالشيخ عبدالله بن جاسم آل ثاني على اتخاذ خطوات مستقلة في تأسيس مستوصف للعلاج محلي في قطر. هذه الخطوة ترتبط مع مجيئ البعثة الإرسالية الأمريكية العربية بإشراف كورنيلا دالنبيرج التي عُرفت باسم «شريفة الأمريكانية»، عبر قدومها ضمن مهمة لرحلة تنصيرية طبية في عام ١٩٤١م، كان الهدف منها توفير الخدمات الصحية للشيخ عبدالله بن جاسم آل ثاني وعلاج المرضى آنذاك. إضافة إلى أن وجود البعثة قد ساهم في اتخاذ الخطوات الإجرائية لإنشاء مستوصف الدوحة الذي قاد لاحقًا لافتتاح مستشفى الرميلة في الدوحة، بدلًا عن سفر أهل قطر إلى مقرات الإرساليات الأجنبية والعلاج خارج قطر. مما يعبر عن مرحلة جديدة من زيارات الرحالة بأهدافهم المختلفة إلى تبلور واضح لأهداف مؤسسية منظمة للخدمات[٢].

وقد أوردت شريفة الأمريكانية كما لقبها أهالي قطر، مسار رحلتها في قطر، إذ زارت قصر الحاكم في الريان نحو ثلاث مرات، وقابلت الشيخ عبدالله بن جاسم آل ثاني، وذلك لحرصه ومتابعته لأمور تأسيس المستشفى، إلا أن الهيئة الطبية الأمريكية لم تستمر طويلًا في العمل، إذ اضطرت الإرسالية

---

(١) البسام، خالد. (٢٠٠٠م). القوافل : رحلات الإرسالية الأمريكية في مدن الخليج العربي والجزيرة العربية ١٩٠١-١٩٢٦، دار قرطاس: بيروت.

(٢) البسام، خالد. (٢٠٠٠م). القوافل : رحلات الإرسالية الأمريكية في مدن الخليج العربي والجزيرة العربية ١٩٠١-١٩٢٦، دار قرطاس: بيروت.

إلى التوقف عن العمل بسبب صعوبة وفشل محاولاتهم في افتتاح مقر للبعثة الأمريكية في قطر(1).

وكان الرحالة البريطاني وليام ريتشارد وليامسون الذي ولد لأبوين بريطانيين في عام ١٨٧٢م، واشتهر في العراق بالحاج عبدالله فاضل الزبير، وتارة أخرى بالمسلماني الإنجليزي. يشار إلى اسمه ضمن أبرز الأعلام التي استندت إليهم الحكومة البريطانية في تعزيز سلطتها ونفوذها في شبه الجزيرة العربية لاسيما من خلال النافذة الاقتصادية واحتكار الموارد الطبيعية، على الرغم من أن رحلات وليامسون قد تعززت في العراق. إلا أنه قام بجولة حول الخليج العربي لحساب شركة النفط الإنجليزية في نحو سنة ١٩٢٤ بعد تعيينه مفتشًا لوكالات الشركة في الخليج حتى سنة ١٩٣٧م. وضمن جولته زار شبه جزيرة قطر مرتين، الأولى في عام ١٩٢٥م وكان مصاحبًا لبعثة الكشف الجيولوجي(2). أما في رحلته الثانية عام ١٩٣٣م وصف (الدوحة) باعتبارها عاصمة لقطر ويحكمها الشيخ عبدالله بن ثاني. كما أثار إعجابه السوق في وسط المدينة الذي اشتهر بحركته وحيويته، إضافة إلى المساكن المنتشرة وسمت الرخاء الذي يعم المدينة، بخلاف ما دونه وليام بلجريف أثناء زيارته وملاحظته بأن المدينة مقفرة بائسة. كما كان وليامسون برفقة الشيخ حمد بن عبدالله في الريان، ليأخذهم إلى لقاء الشيخ عبدالله بن جاسم، الذي وفر عدد من الإبل لتنقلهم نحو المخيم. كما أعدوا لهم وجبة العشاء الرئيسية " خروف كاملًا"، لتكون هذه نهاية المحطة فانتقل إلى خوزستان(3). كما توصف هذه الجولة بأنها بالغة الخطورة بأهدافها ونتائجها، اذ أنها مهدت للشركات البريطانية ان تضع يدها منذ ذلك الوقت على منابع النفط في البلدان الواقعة على الخليج العربي ووطدت أركان الاستعمار البريطاني فيها وربطتها بمعاهدات جائرة طويلة الامد، الا ان الوريقات القلائل التي دون فيها عبدالله بعض تلك الجولة لايمكن ان تشفي غليل الباحث عن الحقيقة التي ما تزال مجهولة، حقيقة المناورات التي قام بها الحاج عبدالله واستطاع عن طريقها ان ينتزع من

---

(١) السبيعي، عبدالله. (١٩٨٢). نشاط الإرسالية الأمريكية للتبشير في شرقي الجزيرة العربية، مجلة الدارة: دائرة الملك عبدالعزيز.

وليمسن، عبد الله: رحلة إلى الخليج العربي، ترجمة سليم أحمد خالد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٩، ٤٩.

(٢) وليامسون، الحاج عبدالله. (١٩٦٢م). جولة في الخليج العربي رحلة بعثة شركة النفط الانكليزية الفارسية الى البحرين وقطر ومسقط وعمان وأبو ظبي والشارقة وعدن، منشورات البصري: عدن.

(٣) عبدالغني،عبدالعزيز.(٢٠١٣). روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية ، دار الساقي: بيروت.

شـيوخ الكويـت ومسـقط وعمـان وابي ظبي والشـارجة تواقيعهم على اتفاقيات البحث عن البترول في بلادهم وخص الشـركـات الانكليزيـة وحدها بهذه الامتيازات[1].

ونقف عند توماس سـيدني بيرترام، كأول رحالة اسـتطاع إتمام مهمة مليئة بالتحديات وهي عبور صـحراء الربع الخالي انطلاقًا من ظفار في جنوب شبه الجزيرة العربية وصولًا إلى شبه جزيرة قطر في ثلاثينيات القرن الماضـي. وتتمثل براعته انطلاقا من التمكين الـذي حصـل عليـه بتعيينـه في عـام ١٩٢٤م وزيرًا لسـلطان مسـقط وعُمان، مما مكنه من مرافقته في رحلات وزيارات مختلفة، شـكلت جوهر كتبه ومدوناته لتحقيق هدفه الرئيسـي في عبور الربع الخـالي[2]. أمـا عن معلومـات جغرافيـة لقطر وبعض الاماكن التي زارها تمثلت في تدوينه لمنـاطق مثـل نعيجـة، أبراج الـدوحـة، والقلعـة. بالإضافة إلى اجتماعه مع الشيخ عبدالله بن جاسم في عـام ١٩٣٠، ويحتوي الكتـاب على صـوره التقطها توماس للشـيخ عبدالله مع كل من محمد وصالح المانع[3].

أما في خمسينيات القرن الماضي تعزز الاتجاه نحو الاستكشافات والبعثات الأثرية وأبرزها دور البعثة الدنماركية التي قضت مدة تزيد عن شهرين في عام ١٩٥٩م، بهدف وصـف الحياة اليومية في البادية وتوثيقها عبر الصور الفوتوغرافية. إذ عملت منتجة الأفلام يتـه بـانغ مع عـالم الأثنوغرافيـا كلاوس فرينـانـد مع أفراد من قبيلـة المرّة وقبيلـة النعيم، لتوثيق العيش عنـد البدو، وتحليـل رمزيـة الثقـافـة المادية عند البدو في قطر[4]. كما أن مرحلة التوثيق البصـري قد سـمحت بالتعرف على الفروقات في الحياة اليومية بين مختلف القبائل البدوية التي رصـدتها أفراد البعثة الاسـتكشـافية. لاسـيما وأن مرحلة التوثيق سـبقت مرحلة تأثير ما بعد اكتشـاف النفط والتغييرات التي طرأت على الحياة الحضرية في قطر وتـأثيرهـا على البنى الاجتمـاعيـة. حتى أصـبحت نتائج هذه البعثة إلى يومنا الحالي بمثابة مصـدر مرجعي تـأريخي واجتمـاعي يعود لـه المؤرخين والبـاحثين في تحولات المجتمع الاجتماعية.

بناء على ما تم عرضـه، لم تعد مدونات الرحالة

(١) هوب، يتانتون.(٢٠١١). رحلات المغامر العربي: الحاج عبدالله وليمسون المسلماني، ترجمة: إنعام إيبش، دار الكتب الوطنية، أبوظبي.

(٢) فكري، محمد همام. (١٩٩٦). عبور الربع الخالي: رحلة توماس بيرترام، العدد الخامس، مجلة نزوى: عُمان.

(٣) عبدالغني،عبدالعزيز.(٢٠١٣). روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية ، دار الساقي: بيروت.

(٤) يته بانغ وكلاوالس فردناد، البعثة الدنماركية في قطر عام ١٩٥٦، الدوحة، هيئة متاحف قطر،٢٠٠٩

الأوربيين حول قطر، مع حلول القرن العشــرين، مجرد سرديات شخصية أو انطباعات فردية مرتبطة برحلات اســتكشــافية، بـل تحولـت إلى أدوات سياسية أو اقتصادية أو علمية ضمن مشاريع كبرى منظمة وذات أهداف منفعية. ويمكن تفسـير هذا التحول أساسا بازدياد الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربي بسبب الاكتشافات النفطية الطبيعية الضخمة في باطن الأرض، فهي لم تعد مجرد مركز لتجارة اللؤلؤ، بل أضــحت مصــدرًا كبيرا للطاقة الاحفورية. وســاهم هذا التحول في إحداث تغيير جـذري نحو الصــورة التي ينطلق بها الأوروبيون نحو منطقة الخليج وقطر، حيث لم تعد مجرد بقعة جغرافية أو منطقة تجمعات قبلية، بل أصــبحت تعكس تشكّلا مستقلّا ذا سيادة وحضور سياسي واقتصــادي مؤثر في نفس الوقت في منطقة الخليج العربي وفي إطـار العلاقـات الـدولية. ولكن هـذه المعـارف المنقولـة من قبـل هؤلاء الرحـالـة، والتي تشكلت من خلالها هذه الصورة، لا يمكن الاستناد إليهـا فقط لفهم الواقع الحقيقي للمنطقـة في تلـك الفترة، على اعتبار أنها قد تشكلت في سياق وظفت فيه مـدونـات الرحـالـة كـأدوات للهيمنـة والنفوذ الغربي على المنطقة.

الخاتمة

على الرغم من خصوصية الجغرافيا التي وهب الله بها طبيعة قطر، إلا أنها جعلت من الرحّالة يقصدونها في رحلاتهم وتتخذ حيزًا في كتاباتهم ويعكس القرن العشــرين الميلادي في مـدونـات الرحـالـة تحـولًا واضحًا، بدأت من الارتحال وفضول الاستكشاف، والســـرد الوصــفي الذي يتســـم بالهامش في فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وما قبلهـا. إلى التوجـه أكثر نحو توثيق معرفي ممنهج وتدوين تقارير دقيقة لأغراض ســياســية وتعزيزا للوجود البريطاني في المنطقة خلال القرن العشرين، كما ســاهمت في تأســيس إرث أرشــيفي وعلمي، وأدت إلى تعزيز رســـم صـــورة قطر من خلال الكتابات التاريخية.

ويوضح الجدول التالي التحولات التي طرأت على صورة قطر في مدونات الرحالة الغربيين عبر الحقب التاريخية المختلفة، من حيث طبيعة الرحلات والدوافع وأنماط المعرفة المنتجة.

جدول ٥: تحولات صورة قطر في مدونات الرحالة الغربيين بين فترة (القرن ١٦–٢٠م)

الحقبة التاريخية	طبيعة الرحلات	الدوافع الرئيسية	صورة قطر في المدونات	نوع المعرفة المقدمة	ملاحظات تحليلية
القرن ١٦–١٧	رحلات استكشافية وتجارية	البحث عن اللؤلؤ والتجارة البحرية	حضور هامشي، مرتبط بمغاصات اللؤلؤ	وصفية عامة (اقتصادية/ ملاحية)	تم اختزال قطر في وظيفتها الاقتصادية دون إبراز كيانها الاجتماعي أو السياسي
القرن ١٨	بعثات علمية وجغرافية	التوثيق العلمي ورسم الخرائط	بداية بروز جغرافي لقطر كمجال محدد	معرفة جغرافية دقيقة	انتقال من الوصف العام إلى التحديد المكاني المنهجي
القرن ١٩	رحلات سياسية واستعمارية	تعزيز النفوذ الأوروبي وجمع المعلومات	قطر كفضاء قبلي ثم كيان سياسي ناشئ	تقارير سياسية واجتماعية	تحوّل في الخطاب من الاستكشاف إلى التوظيف الاستراتيجي
القرن ٢٠	بعثات مؤسسية (سياسية، نفطية، علمية)	المصالح الاستراتيجية (النفط، الإدارة، البحث العلمي)	قطر كدولة ذات أهمية استراتيجية	معرفة منهجية متعددة (سياسية، اقتصادية، أنثروبولوجية)	مأسسة التدوين وتحوله إلى أداة إنتاج معرفة رسمية تخدم القوى الدولية

يتضح من الجدول أن صورة قطر انتقلت من التهميش النسبي في المدونات المبكرة إلى مركزية متزايدة في المدونات الحديثة، وهو تحول يرتبط بتغير طبيعة الاهتمام الأوروبي من البعد الاقتصادي إلى البعد السياسي والاستراتيجي.

وعند النظر في المسارات التاريخية منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى القرن الثامن عشر الميلادي، والذي غلبت عليه المدونات هامشية كبيرة في الإشارة إلى قطر ضمن المدونات الجغرافية والتاريخية. وقد يُعزى هذا الأمر إلى موقع الجغرافيا الذي تتسم به دولة قطر جغرافيًا، إلى أن جاءت رسائل المقيم السياسي لويس بيلي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، لتثبّت مكانة قطر سياسيًا ضمن سياق المدونات والمراسلات البريطانية. يقودنا هذا الأمر إلى القراءة الحديثة التي تشير إلى أن دولة قطر قد «قفزت»(١) على الجغرافيا، وتجاوزت معضلة الموقع الجغرافي كونها شبه جزيرة مُحاطة بالبحر من ثلاث جهات، إضافة إلى إحاطتها بمنطقة تتسم بالتوتر المستمر وسط تنافس القوى المحيطة. مما دفع بنخبة صانع القرار إلى الاتجاه إلى أدوات جديدة للعب دور إقليمي مؤثر من خلال أدوات القوة الناعمة عبر الوساطة والتأثير والاقتصاد وتنوع مساراته، وعدم الاعتماد على أدوات الواقع الجيوسياسي المتمثلة في مساحة الجغرافيا والموقع والقوة الصلبة. بل اتجهت النخبة القطرية إلى تحدي الواقع الجغرافي والخروج من دائرته، واستثمار أدوات جديدة ضمن مظلة القوة الناعمة بهدف تعزيز قوتها والحفاظ على سيادتها.

إن هذا الاتجاه الذي يُناقش في علم العلاقات الدولية والسياسية، ينعكس بالتناظر في حقل التأريخ والكتابة التاريخية، من خلال تطور الرحالة في التدوين عن قطر خلال القرون السابقة حيث مثّل القرن العشرين الميلادي، بمثابة " القفزة" على قلة التوثيق التاريخي من خلال إدراج عنصر التصوير الفوتوغرافي إلى جانب التقارير السياسية الدورية، حتى التوثيق الاجتماعي ضمن السردية التاريخية المباشرة عن قطر كموضوع رئيسي وليس هامش في المدونة التاريخية.

وفي الأخير فقد عكست انطباعات الرحالة على مدى قرون «نظرة الآخر» لقطر وللتطورات التي شهدتها، على أنه من المفيد التنويه بأن هذه الانطباعات والتصورات كانت ممزوجة أحيانا بالذاكرة أحيانا، وبالدوافع الاستعمارية أحيانا

---

(١) " القفز على الجغرافيا": مصطلح أشار له د. مروان قبلان أستاذ السياسة في كتابه: سياسة قطر الخارجية: الاستراتيجية في مواجهة الجغرافيا، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠٢١.

أخرى، وفقًا لما أشــارت له ســجلات لوريمر بأن التأريخ هدف لتوســيع التوثيق المعرفي عن الخليج بهـدف خـدمـة دوافع الإمبراطوريـة البريطـانيـة في منطقة الخليج العربي.

التوصيات:

يوصي القائمون على الدراسة البحثية الآتي:

١. البناء على هـذه الـدراســة البحثيـة ضــمن حقول الدراســات البينية من خلال المقارنة بين تحولات الكتابة التاريخية لمدونات الرحالة عن دولة قطر عبر القرون، وتطور صورة قطر عبر مشهد العلاقات الدولية، إذ شــهـد تحولًا كبيرًا من خمســينيات القرن الماضـي، ولهذا يوصـي الباحثون بالاسـتناد إلى كتابات مدونات الرحالة، عند محاولة فهم تطور قطر ضــمن النظـام الـدولي بالإضــافة إلى فهم ســياســتها الخارجية والتحولات التي طرأت عليها.

٢. **استخدام مصادر مكتبة قطر الرقمية كمصدر أولي:**

تعميق التحليـل البحثي والمنهجي بـالانطلاق من وثائق مكتبة قطر الرقمية، إذ تضـم آلاف المصـادر الأولية من المراســلات، التي تســتدعي التحليل والتمحيص، ودمجها مع مدونات الرحالة كمصدر داعم وليس أولي.

٣. **الاستفادة من الأدوات الرقمية والخرائطية (□□□□□□□ □□ □□□□□□)**

اســتخـدام نظم المعلومـات الجغرافيـة (GIS) والخرائط الزمنية التفاعلية لربط تحرّكات الرحّالة بـالمواقع القطريـة، وإظهـار تطوّر الموانئ والطرق والموارد عبر الزمن، بما يفتح آفاقًا جديدة للتحليل البصــري المقـارن عبر تتبع مســـارات التطور الحضــري والمدني في مدن قطر. ويشــار في هذا الصــدد إلى مشــروع الصــور الجوية الذي يحتوي هذا الأرشـيف على أكثر من ٩,٠٠٠ صـورة جوية تـاريخية لقطر وبعض الـدول المجـاورة، التقطتها طائرات عســكرية بريطانية أو أمريكية. تتضــمن المجموعة صــورًا عالية الدقة من ٥٥ رحلة جوية التُقطـت بين عـامي ١٩٤٤ و١٩٨٣، وتظهر فيهـا المنازل والأحياء عبر السنوات المتعاقبة.

تنويه: أنجز هذا المقال في إطار منحة بحثية □□□□□□□□□□□□□□/□□□□□□

La propagande politique en Tunisie pendant la Première Guerre mondiale : entre mobilisation religieuse et stratégies d'influence (1914-1918)

Dr. Aloui Imen Makhlouf
Chercheuse en histoire contemporaine
Faculté des sciences humaine sociales de Tunis

Résumé

Cet article analyse les dynamiques de la propagande politique en Tunisie durant la Première Guerre mondiale, en mettant en lumière les interactions entre acteurs locaux et puissances internationales. Il montre que la propagande antifrançaise, portée par des courants tels que le panislamisme et le maraboutisme, ainsi que par l'Empire ottoman et l'Allemagne, s'appuie largement sur le référent islamique comme vecteur de mobilisation.

En parallèle, la France développe une contre-propagande visant à maintenir la loyauté des populations colonisées. Celle-ci repose sur la délégitimation des puissances adverses, notamment à travers la critique de l'Allemagne et de l'Empire ottoman, ainsi que sur l'utilisation de la presse arabophone et des témoignages locaux.

L'étude met en évidence que cette guerre de propagande ne produit pas des effets homogènes, les populations colonisées conservant des marges d'interprétation et d'autonomie. Elle souligne ainsi le rôle central de la religion comme instrument politique, tout en révélant la complexité des dynamiques sociales en contexte colonial.

Abstract (English)

This article examines the dynamics of political propaganda in Tunisia during the First World War, highlighting the interactions between local actors and international powers. It demonstrates that anti-French propaganda, driven by movements such as pan-Islamism and maraboutism, as well as by the Ottoman Empire and Germany, relied heavily on Islam as a mobilizing force.

At the same time, France developed counter-propaganda strategies aimed at maintaining the loyalty of colonized populations. These strategies were based on discrediting rival powers, particularly Germany and the Ottoman Empire, and on the use of Arabic-language press and local testimonies.

The study shows that this propaganda war did not produce uniform effects, as colonized populations retained a degree of agency in interpreting and responding to these messages. It highlights the central role of religion as a political instrument while revealing the complexity of social dynamics in a colonial context

Mots-clés
Propagande coloniale; Tunisie; Première Guerre mondiale; Panislamisme; Maraboutisme; Empire ottoman; Allemagne; France; Presse arabophone; Islam et politique.

La propagande politique en Tunisie pendant la Première Guerre mondiale : entre mobilisation religieuse et stratégies d'influence (1914-1918)

Introduction

La Première Guerre mondiale ne se limite pas à un affrontement militaire entre puissances européennes ; elle constitue également une véritable guerre de propagande, particulièrement dans les espaces coloniaux, en Afrique du Nord, et notamment en Tunisie sous protectorat français depuis 1881, le conflit prend une dimension spécifique où s'entremêlent enjeux politiques, religieux et identitaires.

Dans ce contexte, les populations colonisées deviennent l'objet d'une compétition intense entre plusieurs acteurs, d'un côté, l'Empire ottoman et l'Allemagne développent une propagande antifrançaise visant à mobiliser les populations musulmanes contre la domination coloniale, en s'appuyant notamment sur le référent islamique.

De l'autre, les autorités françaises mettent en œuvre des stratégies de contre-propagande destinées à maintenir la loyauté des populations et à contenir toute forme de contestation.

Ainsi, la Tunisie apparaît comme un espace privilégié d'observation de ces dynamiques, où circulent discours, rumeurs et supports écrits mobilisant à la fois des acteurs locaux et internationaux. Clercs, marabouts, soldats et intellectuels participent à cette lutte symbolique pour l'adhésion des populations.

Dans cette perspective, il convient de s'interroger sur les formes et les enjeux de cette guerre de propagande ,comment la propagande politique, tant antifrançaise que pro-française, mobilise-t-elle le facteur religieux et les relais locaux en Tunisie durant la Première Guerre mondiale, et dans quelle mesure influence-t-elle les attitudes des populations colonisées ?

I- La propagande antifrançaise en Tunisie

1- Une propagande indigène à fondement islamique

La propagande antifrançaise en Tunisie s'appuie largement sur l'instrumentalisation du référent islamique, dans un contexte de domination coloniale, l'islam constitue un puissant vecteur de mobilisation, permettant de fédérer les populations autour d'une identité religieuse et culturelle commune.

Le panislamisme représente l'une des expressions majeures de cette dynamique ; il repose sur l'idée d'une solidarité entre les musulmans face à la domination européenne. En Tunisie, ce courant est diffusé par divers acteurs tels que les imams, les prédicateurs, les enseignants coraniques, les étudiants de la Zitouna ainsi qu'une partie de la jeunesse instruite.

Tous partagent une même aspiration : l'unité du monde musulman et le soutien à l'Empire ottoman, perçu comme protecteur du califat[1].

Avec le déclenchement de la première guerre mondiale, cette propagande connaît une intensification notable, des initiatives issues de Constantinople diffusent des appels au jihad contre les puissances alliées. Le conflit est alors présenté comme une confrontation entre l'islam et les puissances chrétiennes coloniales, ce qui contribue à légitimer la contestation de l'ordre colonial français[2].

Dans ce contexte, les lieux de culte jouent

un rôle central. Mosquées, zaouïas et écoles coraniques deviennent des espaces de circulation des discours politiques et de mobilisation. Les prêches insistent fréquemment sur la symbolique du califat ottoman comme facteur d'unité religieuse et appellent au soutien de la Turquie.

Certaines figures religieuses exercent une influence particulière, à l'image du cheikh Salah Chérif, qui contribue à la diffusion d'un discours panislamiste et antifrançais depuis l'étranger. Ses prises de position dénoncent la domination coloniale et appellent à l'unité des musulmans[3].

Par ailleurs, le maraboutisme constitue un autre canal important de mobilisation. Fondé sur une religiosité populaire et sur l'autorité des confréries, il permet de toucher des couches sociales plus larges. Les marabouts participent ainsi à la diffusion de sentiments d'hostilité envers la présence française, en inscrivant la résistance dans une logique de défense de l'islam.

2- La propagande ottomano-allemande

La propagande antifrançaise est également alimentée par des acteurs extérieurs, notamment l'Empire ottoman et l'Allemagne, qui cherchent à mobiliser les populations musulmanes contre la France.

L'Empire ottoman s'appuie principalement sur le référent religieux en valorisant le rôle du calife comme guide spirituel des musulmans, de son côté, l'Allemagne adopte une stratégie complémentaire fondée sur la dénonciation des injustices coloniales françaises et sur la promotion de son image auprès des populations musulmanes.

Les témoignages de soldats musulmans engagés dans l'armée française jouent un rôle important dans cette propagande. Ils mettent en avant les difficultés rencontrées sur le front et dénoncent certaines formes d'exploitation coloniale, contribuant ainsi à nourrir un discours critique à l'égard de la France[4].

Par ailleurs, l'Allemagne diffuse des brochures et des pamphlets destinés aux populations musulmanes, insistant sur le respect de l'islam et le bon traitement des prisonniers musulmans. Cette stratégie vise à se présenter comme une puissance favorable au monde islamique.

Cependant, malgré ces efforts, l'impact de cette propagande reste limité, notamment en raison de la fidélité de certaines élites religieuses et locales à la France.

II- La propagande pro-française

1- Une propagande anti-allemande

Face à la propagande allemande, les autorités françaises développent une contre-propagande visant à discréditer leur adversaire, alors que l'Allemagne se présente comme protectrice de l'islam, la France cherche à démontrer le caractère artificiel et opportuniste de cette posture.

Dans ce cadre, certains documents attribués à l'administration allemande sont mobilisés pour dénoncer des pratiques jugées contraires au respect de l'islam, notamment en Afrique orientale, ces éléments servent à illustrer le double discours allemand[5].

Toutefois, les autorités françaises adoptent une certaine prudence dans la diffusion des contenus propagandistes, en évitant notamment les récits trop violents susceptibles de heurter les sensibilités du public musulman, cette adaptation témoigne d'une stratégie de communication ciblée.

2- Une propagande anti-ottomane

La France s'emploie également à délégitimer l'Empire ottoman en tant que prétendu défenseur de l'islam, cette stratégie repose en grande partie sur la presse arabophone, notamment des journaux tels qu'*Al-Mokattam* en Égypte et *Al-Zahra* en Tunisie.

Ces publications mettent en avant les contradictions du pouvoir ottoman et soulignent les tensions internes, notamment

entre Turcs et Arabes sur les plans linguistique et identitaire. L'objectif est de fragiliser l'idée d'une unité islamique autour du califat[6].

Des témoignages d'officiers arabes sont également utilisés pour renforcer la crédibilité de ce discours et remettre en cause la légitimité du pouvoir ottoman.

3- Le rôle de la presse et des relais locaux

La presse constitue un outil central de la propagande pro-française ;des journaux tels qu'*Al-Zahra*, soutenus ou encadrés par les autorités coloniales, jouent un rôle de relais dans la diffusion des messages officiels.

À travers ces supports, la France met en avant la loyauté des soldats musulmans engagés dans son armée et présente leur participation à la guerre comme un acte de bravoure et d'honneur. Des lettres et témoignages sont publiés afin de renforcer cette image positive.

Par ailleurs, la propagande française repose sur une stratégie de disqualification des adversaires, en opposant les « atrocités » allemandes et ottomanes à l'image d'une France protectrice et civilisatrice.

Cette action bénéficie également, dans une certaine mesure, du soutien de la presse britannique et égyptienne, ce qui témoigne d'une coordination informationnelle entre les puissances alliées.

Conclusion

L'analyse de la propagande politique en Tunisie durant la Première Guerre mondiale révèle l'importance majeure du facteur idéologique dans le contexte colonial, le conflit dépasse largement le cadre militaire pour devenir une véritable lutte d'influence et de légitimation.

La propagande antifrançaise, qu'elle soit d'origine indigène, ottomane ou allemande, s'appuie principalement sur le référent islamique comme instrument de mobilisation et d'unification. En réponse, la France développe une contre-propagande fondée sur la critique de ses adversaires et la valorisation de son rôle colonial.

Cependant, l'efficacité de ces stratégies demeure relative, dans la mesure où les populations locales ne sont pas de simples récepteurs passifs, mais interprètent ces discours en fonction de leurs réalités sociales et politiques.

Ainsi, la propagande apparaît comme un révélateur des tensions structurelles du système colonial, où domination politique, enjeux religieux et dynamiques sociales s'entrecroisent constamment.

Notes de bas de page

1. Charles-Robert Ageron, *Les musulmans algériens et la France (1871-1919),* Paris, PUF, 1968, p. 248.
2. Jacques Frémeaux, *Les colonies dans la Grande Guerre*, Paris, 14-18 Éditions, 2006, p. 132.
3. David Motadel, *Islam and the European Empires*, Oxford University Press, 2014, p. 175.
4. Edmund Burke III, *The Ethnographic State: France and the Moroccan Empire*, University of California Press, 2014, p. 98.
5. Frémeaux, op. cit., p. 140.
6. Ageron, op. cit., p. 260.

Bibliographie

- Ageron, Charles-Robert, *Les musulmans algériens et la France (1871-1919)*, Paris, PUF, 1968.
- Burke, Edmund III, *The Ethnographic State: France and the Moroccan Empire*, University of California Press, 2014.
- Frémeaux, Jacques, *Les colonies dans la Grande Guerre*, Paris, 14-18 Éditions, 2006.
- Motadel, David, *Islam and the European Empires*, Oxford University Press, 2014.